يهود الأمس

سلف سيئ لخلف أشر

تأليف

فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري

رحمه الله

راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه

مصطفى بن أبو النصر الشلبي



مكتبة السوادي للتوزيع

جدة

يهود الأمس

سلف سيئ لخلف أسوأ

تأليف

فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله

راجعه وخرج نصوصه وعلق عليه

مصطفى بن أبو النصر الشلبي



مكتبة السوادي للتوزيع
جدة - هاتف: ٦٨٨٤٢١٢

يهود الأمس

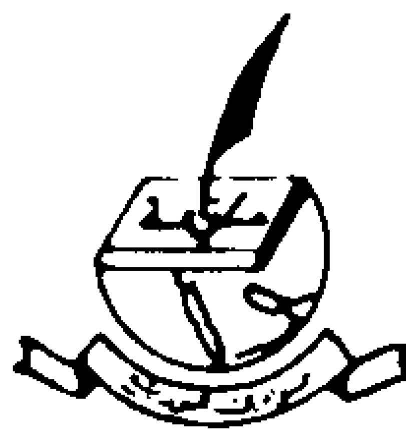
سلف سيئ لخلف أسوأ

تأليف

فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله

راجعه وخرج نصوصه وعلق عليه

مصطفى بن أبو النصر الشلبي



مكتبة السوادي للتوزيع
جدة - هاتف: ٦٨٨٤٢١٢

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



الناشر

مكتبة السوادي للتوزيع

ص.ب - ٤٨٩٨ جدة ٢١٤١٢ - ت: ٦٨٨٤٢١٢

فاكس ٦٨٧٨٦٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم/ إبراهيم عبد الرحمن الدوسري

الحمد لله وحده، صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده.. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيد الخلق وإمام المرسلين المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

منذ فترة وجيزة انتهينا - بحمد الله - من تهيئة وترتيب وتنسيق كتاب «اليهودية والماسونية» للداعية الكبير الوالد المرحوم الشيخ عبد الرحمن الدوسري، ودفعنا به إلى الطبع داعين الله أن يسهل صدوره قريباً. وقد كان أملي - بعد أن جمعت وهيأت مخطوطات ذلك الكتاب - أن يكون فيه نافذة جديدة يطل القارىء الكريم من خلالها على بعض المواقع القابعة في زوايا مظلمة لا ترى من تاريخ اليهودية والماسونية الأسود. فالشيخ - رحمه الله - عرض موضوعه بجرأة المؤمن ووعي المثقف، وقد كان يصر دائماً قبل وفاته على سرعة إصدار ما يتعلق بهذا الموضوع، فكان الكتاب وأسأل الله أن يجد القارىء فيه ما يفيد. واليوم وأنا أتابع النظر في المجلد الثاني من كتاب والدي «صفوة الآثار والمفاهيم...» وقعت على ما يضفي كمالاً على الكتاب الأول من خلال تفسير الشيخ لآيات سورة البقرة التي تتعلق ببني إسرائيل، وتنفيذاً لتلك الرغبة رأيت أن أجمع ما يتعلق بالموضوع وأجعله في كتاب ثانٍ يضم إلى أخيه فتكتمل الفائدة ويتحقق الغرض بإذن الله.

لقد كان الكتاب جزءاً من تفسير سورة البقرة - كما أشرت - ولكن الشيخ كان يستشهد بآيات أخرى من سور أخرى من القرآن الكريم تتعلق باليهود ويمضي بشرحها وربط محتواها بما بين يديه من آيات سورة البقرة، فبدا الموضوع وكأنه أحاط بمعظم الآيات الكريمة التي تتناول سيرة بني إسرائيل، كفرهم بالنعم، وكفرهم بالرسل والأنبياء، وكفرهم بالكتب السماوية والملائكة، ونقضهم العهد تلو العهد، كأمة عشش الغدر والتخريب والمكر في رؤوسها، وسرى الكفر والطغيان سمًّا في عروقها.. تأبى الهُدى والرشاد وتأبى العيش آمنة مسالمة كبقية البشر فاستحقت بذلك كله لعنة الله والرسل والناس أجمعين.

تحدث الشيخ - رحمه الله - في معرض تفسيره الآيات عن النعم التي أنعم الله بها عليها وأجلّها تنجيتهم من الغرق، وإغراق عدوهم وهم ينظرون، ونعمة المن والسلوى، ونعمة دخولهم الأرض المقدسة، ولكنهم في كل مرة يرفضون النعم كما رفضوا المعجزات الكبيرة التي جاءت على يد موسى عليه السلام من تحويل عصاه حية تلقف ما صنع سحرة فرعون، وانشقاق البحر ليعبروه آمنين، وتدفق الماء من الصخر الأصم، ورفع الطور فوقهم، - رفضوا كل هذا - ليبقوا أمة تعيش على الكفر والرفض والفجور، وشعباً ملوثاً انكب على وجهه فأقبل على هياكل الضلال والفسق مما صنعت نفوسهم الضالة وأيديهم القذرة.. هذه المعاني برزت في حديث الشيخ عن عجل السامري، وقصة البقرة، وجعل الذهب رباً لهم من دون الله الواحد الأحد، وتسفيههم دعوة الأنبياء، وتحريف الكتاب وتأويله، ومحاولتهم المستميتة الدائمة للتصدي لدعوة رسول البشرية محمد ﷺ بالتكذيب مرة وبالتأليب أخرى، وبالمساومة ثالثة، مصرّين على حجب الخير عن الناس وعن أنفسهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[1].

(١) سورة المائدة، آية ٨٣.

وبهذا وصل أواسطهم حبل الغدر والكيد الذي نسجه أوائلهم ليتابع أواخرهم خنق أنفسهم فيه، واتقاء لغدرهم وحبلهم هذا، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾(١).

هؤلاء هم اليهود سلسلة متصلة من البغي والفساد عملوا بكل ما أوتوا من قوة ليصدق فيهم القول: «يهود الأمس سلف سيىء لخلف أسوأ».

فأين أولئك من قول الله هذا؟! أولئك الذين فرّطوا بالأرض والعرض، فهادنوا وانهزموا واستسلموا، وحاولوا فرض الاستسلام والهزيمة على شعوبهم والمسلمين عامة ضاربين بكتاب الله وأوامره عرض الحائط، ضحكوا على شعوبهم عندما حاولوا أن يفرقوا بين يهود الأمس واليوم، وعندما فرقوا بين اليهودية والصهيونية، والحقيقة هي أنهم كانوا يضحكون على أنفسهم، فشعوبهم تعلم وهم يعلمون - ولكنهم نذروا أنفسهم لخدمة أسيادهم - إن يهودي اليوم تسري بعروقه دماء اليهودي القديم جشعاً وخسة ودناءة وكراهية لكل أهل الأرض غيره، وأن الصهيونية واليهودية شيء واحد، فهما وجهان لعملة واحدة جاءا هكذا ليربح أي وجه فيهما على مبدأ لعبة (الطرة والنقش).

إن كل يهودي هو عدو للإنسانية والإسلام، وكل يهودي صنع بفكر شيطاني غرضه الدس والتخريب والكسب من أي شيء وعلى حساب أي شيء ولا فرق أبداً بين يهودي اليوم ويهودي الأمس، فيهودي اليوم هو، أسوأ خلف لأسوأ سلف(٢).

---

(١) سورة المائدة، آية ٥١.

(٢) لقد عرض موضوع اليهودية والصهيونية والماسونية بشكل واضح ودقيق في كتاب للشيخ يسلط الضوء على دسائسهم ومخططاتهم هم وأفراخهم قديماً وحديثاً، تحت عنوان (اليهودية والماسونية وكيفية المواجهة) وسيصدر قريباً بإذن الله.

وقبل الختام من هذه المقدمة حول موضوع الكتاب أتوجه بالشكر إلى الأخ الشيخ مصطفى أبو النصر الشلبي الذي تبنى مراجعة الكتاب وتخريج نصوصه.

كما أتوجه بالشكر إلى القائمين على مكتبة السوادي لمساهمتهم في الإشراف على طباعة الكتاب، وإخراجه بثوبه اللائق به.

سائلاً المولى الكريم أن يسدد خطا الجميع لما يحب ويرضى، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وان ينفع به المسلمين، وأن يجعله في ميزان حسنات الوالد الفاضل الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم عبد الرحمن الدوسري

مقدمة التحقيق

بقلم
مصطفى أبو النصر الشلبي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ».

(سورة آل عمران، آية ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

(سورة النساء، آية ١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

(سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ - ٧١)

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعــد:

فإن أمتي الغضب والضلال من اليهود والنصارى ليعلمون تمام العلم بأنهم لن يحصلوا على تحقيق مطامعهم الخبيثة في الاستيلاء والسيطرة على بلاد العالم الإسلامي إلا بالقضاء على كل وازع ديني عند الشعوب المسلمة، ومن أجل هذا نزلوا بكل ثقلهم على العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة. فنشروا فيه الإلحاد والفساد، وأحدثوا فيه خواءً روحياً، وأشغلوا الناس عن مصدر عزتهم وقوتهم بشتى أصناف اللهو والمغريات الخسيسة الدنيئة، وتمكنوا من إلقاء الشبهات وتشكيك المسلمين بدينهم فصرفوهم عن وحي الله المنزل إلى غيره من وحي الشياطين ودساتيرهم المتمثلة: بالصهيونية الماكرة، والصليبية الحاقدة، والأحزاب العلمانية الضالة المضلة.

وللأسف الشديد فقد نجح شذاذ الآفاق وأفراخهم من قلب الحقائق، وتن[illegible] الباطل، وتوزيعه بشتى الزخارف والألوان، حتى استطاعوا بمكرهم الخبيث من تقسيم المسلمين إلى شيع متحاربة مما سهل عليهم احتلال بلادهم ومقدساتهم وتشريدهم بلا قاهر ولا رادع، يساندهم في هذا الغدر والخيانة والإجرام ساسة وطواغيت العالم النصراني الصليبي وتلامذتهم من المحسوبين على الإسلام من شيوعيين أو بعثيين، وقوميين... و...

وها نحن أولاء اليوم نرى أن اليهود عليهم لعائن الله قد تفاقم شرهم، وعمت فتنتهم وأضرارهم، وتمادوا في استخفاف العرب والمسلمين لدرجة أننا نشاهد جموع المسلمين ذات الأعداد الهائلة، وعلى الرغم مما تملكه من ينابيع الثروات الضخمة، والقوة الضاربة لتنقاد مذللة خاضعة لمن يتاجرون باسم السلام الظاهر، والذي يحمل في باطنه لأمتنا المسلمة مزيداً من المذلة والهوان، والسبب في كل هذا الواقع المر المؤلم: أن أدمغة طغاة الناس

وحكامهم قد عشش فيها الضعف المعنوي، والانهزام النفسي الناجم من قحط القلوب وافتقارها لوحي الله وهديه الذي لا ينفع معه أي قوة أو سلاح.

وإنني في غمرات هذه المحن الشديدة، والأحداث العصيبة التي يعيشها المسلمون اليوم أمام جرذان الخليقة وأفراخهم من الصليبيين الحاقدين، ليسرني أن أتقدم للمساهمة في إخراج كتاب: (يهود الأمس سلف سيىء لخلف أسوأ).

وهذا الكتاب القيم هو عبارة عن جزء من المجلد الثاني من كتاب: (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم) لمؤلفه الداعية المجاهد فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري رحمه الله، والذي عُرِف بجرأته في الحق، وامتيازه عن غيره بالصراحة والوضوح في تقرير الواقع الإسلامي، وبيان فساده، وسبل علاجه، والرد القوي على مزاعم أعداء المسلمين، وكشف مخططاتهم الخبيثة الماكرة.

وإني لأتقدم بالشكر لولد الشيخ الفاضل الأستاذ ابراهيم بن عبد الرحمن الدوسري لثقته بي، ودفعه بالكتاب إليّ للقيام بمراجعته، وتخريج نصوصه، والتعليق المناسب عليه.

كما أتقدم بالشكر إلى الأخ الفاضل محمد خليل السوادي مدير مكتبة السوادي لمسارعته بتبني طباعة الكتاب ونشره. وتفريغي للقيام بهذه المهمة الطيبة.

وأخيراً إني لأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يكون هذا الكتاب القيم - بما يحمله من حقائق مذهلة - سبباً في إنارة العقول والقلوب الشاردة عن منهج الله، وعودتها إلى مصدر عزتها وقوتها، ومثيراً لهمتها في الخلاص من جميع أنواع الضعف والوهن، والتمرد على كل الشدائد والصعاب التي تحول دون قيام المسلمين بواجب إقامة الدين لله.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

جدة في يوم الاثنين من شهر ربيع الآخر
لعام ١٤١٢هـ

الموافق لـ: ١٩٩١/١٠/٢١ م

مصطفى أبو النصر الشلبي

نبذة عن حياة المؤلف

بقلم ولده/ إبراهيم عبد الرحمن الدوسري
مدرس التربية الإسلامية في ثانويات الرياض

إن الحمد لله. نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: وبعد:

ترددت كثيراً قبل أن أمسك القلم لأكتب نبذة عن حياة والدي وأستاذي الشيخ عبد الرحمن الدوسري، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.......

ترددت لأني خشيت أن لا أعطي الموضوع حقه، فزادي من المعرفة قليل، وقدرتي على الإحاطة بالتفسير والمعرفة متواضعة ورحم الله رجلا عرف حده فوقف عنده، ولولا الوفاء للوالد الراحل والبر به حياً وميتاً لما كتبت كلمة واحدة.......

وبهذه المناسبة أذكر قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (سورة الرعد، آية ٤١)

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير فيها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء.

ورحم الله من قال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها   متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها   وإن أبى عاد في أكنافها التلف

وأشهد أن جهدي وجهد أشقائي في مضمار الدعوة الإسلامية لا يعادل - مهما عملنا - بعض ما كان يبذله الوالد رحمه الله.... كان يجوب البلاد ويتنقل بين الأحياء واعظاً ناصحاً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر...

لقد حاضر في معظم مدارس وجامعات المملكة السعودية، وكان يخطب الجمعة. ويشهد مواسم الحج، ويصوم رمضان في مكة المكرمة، وهناك في بيت الله الحرام يجتمع الناس حوله فيتحدث إليهم ويجيب على أسئلتهم.

وكان رحمه الله لا يتقاضى أجراً على أنشطته ودروسه، ويرى بأن إعراض الناس عن بعض أهل العلم جاء بعد أن صاروا موظفين وأجراء عند السلاطين.

وكان رحمه الله واسع العلم والمعرفة كأنما يغرف من بحر، ووهبه الله ذاكرة عجيبة، فتكاد لا تنتهي من قراءة بحث أمامه حتى يحفظه عن ظهر قلب... وعلومه لم تكن قاصرة على جانب من الجوانب، فهو مفسر وفقيه ومحدث وعنده اطلاع واسع على المخططات التي يدبرها أعداء الإسلام. فتراه يحدثك عن دعاة القومية والعلمانية وتاريخهم وأفكارهم وعن ردوده عليهم شعراً ونثراً، ثم ينتقل بك إلى الماسونية واليهودية وعن أوكارها في العالم الإسلامي وأهدافها، ثم يحدثك عن الشيوعية والشيوعيين وكتبهم وأباطيلهم وفضائحهم. وعن الوجوديين (كجون بول سارتر) وغيره وردوده عليه وعلى أمثاله...

وفي أحاديثه كلها رصانة وموضوعية وقدرة عجيبة على ربط الأمور والإحاطة بها وكشف أسرارها.

وفي بيته كان نعم الأستاذ والموجه والوالد الناصح، ومن أعز أمانيه أن يسير أبناؤه على طريقته في الدعوة والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان في مشاعره وأحاسيسه يعيش آلام الأمة الإسلامية كلها... كنا نراه حزيناً على المذابح التي يتعرض لها المسلمون في الهند على يد الهندوس، وفي أفغانستان على يد الشيوعيين، وفي قبرص والفلبين على يد الصليبيين. وكان يمشي في قضاء حاجة الضعفاء والمساكين، وكان حريصاً على نشر وتشجيع الكتب والصحف الإسلامية، فأحياناً يشتري عدداً غير قليل من الكتب الإسلامية ويوزعها على نفقته الخاصة، ويشترك سنوياً في عدد كبير من المجلات الإسلامية ويوزعها، ثم ينصح أهل الخير ليساهموا في هذه الأعمال النافعة.

وكان في نصحه لا يخشى في الله لومة لائم، ولماذا يخشى وهو الذي لا يأخذ أجراً على نصحه، وليس له مصلحة عند أولي الأمر، ولا يتطلع إلى وظيفة أو جاه، ولهذا عرفه الناس قوياً صريحاً لا يهتم بغضب الناس أو رضاهم، وإنما همه الوحيد أن يرضي رب الناس.

وصرف - رحمه الله - جزءاً مهما من وقته في سنيه الأخيرة في كتابة تفسيره هذا الذي أسماه: (صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم). وأذيع معظمه على شكل حلقات في إذاعة المملكة العربية السعودية، فلقي إقبالاً ورواجاً بين أهل العلم والفضل، وشاء الله أن يفارق الوالد هذه الحياة دون أن ينتهي من التفسير، وإن كان قد قطع فيه مراحل طيبة والحمد لله.

وركز رحمه الله في تفسيره على قضايا العقيدة وبشكل أخص قضايا العقيدة المعاصرة، فرد على شبهات أعداء الإسلام، ودحض أباطيلهم، وبدد أراجيفهم.

وبعد هذه التقدمة أقدم للقراء نبذة عن حياة الوالد كان قد كتبها جواباً على سؤال ورده من بعض دور العلم:

بسم الله

استجابة لطلب فضيلتكم شيئاً من ترجمتي أفيدكم بهذه المعلومات:

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلف بن عبد الله الفهد آل نادر الدوسري من قبيلة الدواسر ومن أسرة هم أمراء بلد (السليّل) المشهور.

(٢) ولد في مدينة البحرين عام ١٣٣٢ هـ، وسافر به والده إلى الكويت بعد شهور قليلة، ذلك أن جده عبد الله بن فهد آل نادر قد نزح من قومه وبلاده إلى قرية الشماسية من مقاطعة القصيم، وتزوج بها، وأنجب ما أنجب من الأولاد الذين ماتوا ولم يبق منهم سوى محمد الذي بعد ما تزوج انتقل بزوجته إلى الكويت، ثم سافر بها إلى البحرين لزيارة أبيها الذي هو الشيخ علي بن سليمان اليحيي، وهناك وضعت ابنها عبد الرحمن صاحب الترجمة الذي عاد به أبوه إلى الكويت، ونشأ بها، ودرس وتعلم ما شاء الله وبقي فيها أكثر عمره يزاول التجارة ليستغني بها عن ابتذال علمه بالوظائف التي إما تخرسه عن الصراحة بالحق أو تجعله يساير رغبات الدولة التي توظفه، فلهذا لجأ إلى العمل الحر شحاً بدينه وعرفاناً بقيمته وارتفاعاً بكرامته عن ملابسات الوظائف، وقد قال في قصيدته الميمية التي هي ردٌّ على الشاعر القروي النصراني في شأن الوظائف وفتنتها وأنها من جملة المخططات الماسونية في ميدان التربية والتعليم:

ولست أمد الطرف نحو مراتب ... وزينة امتاع مُـدَسٍ لآدمي
فذي فتنة الماسون شر من الألى ... قد استرخصوا فيها لقيمة مسلم
وقيمته أعلى وأغلى مضاعفاً ... لأضعاف ما في الأرض من كل قيم
فساع إلى نيل الوظيفة بائع ... رسالته والدين من غير مَسْوم
حشا أن يرى توظيفه كركيزة ... لدين وأهل الدين فليستقدم

(٣) نشأ في بيئة صالحة محافظة وفي محلة من حارات الكويت تدعى محلة (المرقاب)، أكثر أهلها عمار للمساجد، نقاد للأخلاق، يحرض بعضهم بعضاً على الخير والفضيلة، فلذلك يسيطر الحياء عليهم أجمعين.

(٤) دراسته - لقد طلب العلم في المدرسة المباركية، وكان اسمها مطابقاً لمعناها في السابق، لأنها مدرسة أهلية لا علاقة لها بالحكم والحكام، ولم ترتبط بالمناهج التي خططتها الماسونية للتعليم، بل هي في أول نشأتها تفوق المعاهد والكليات العلمية الدينية في البلاد السعودية، حيث كان الحفظ فيها إجبارياً عن ظهر قلب بحيث لم يخرج منها إلا وهو حافظ للثلاثة الأصول مع بعض شرحها، وحافظ للدرة المضية نظم السفاريني (٢٠٩) بيت في التوحيد، وحافظ للرحبية والبرهانية في الفرائض، ومنظومة هدية الألباب في جواهر الآداب للشيخ محمد الجسر، ومنظومة الآداب المشهورة لابن عبد القوي، ولامية ابن الوردي، ولامية العجم، وقصائد كثيرة متنوعة، قد حفظها عن ظهر قلب، وحفظ من متون الفقه (دليل الطالب) ومجموعة من عبارات غيره، وحفظ القرآن الكريم، وكان لصعوبة تحصيله كل الكتب يحفظ ما يعجبه بمجرد العثور عليه مجلوباً في السوق يطلب من صاحبه السماح بتصفحه، وقد حفظ جملة من أحاديث (منتقى الأخبار) ومجموعات أخرى من غيره، ودرس السيرة النبوية، وطرفاً من التاريخ، وحفظ شيئاً كثيراً من (الكافية الشافية نونية ابن القيم) ولو ظهر توضيح الشيخ عبد الرحمن السعدي لها لتقدم لحفظها كلها ولكن عدم فهمه لبعض معانيها جعله لا يحفل بحفظها.

ثم بعد خروجه من هذه المدرسة المباركة في زمنها، درس الفقه والتوحيد على الشيخ المرحوم عبد الله بن خلف الدحيان، وعلى الشيخ صالح بن عبد الرحمن الدويش رحمه الله، وفي أثناء سفراته للبحرين يحظى بمقابلة الشيخ العلامة قاسم بن مهزع ويتدارس معه البحوث المهمة.

(٥) وقد تأثر بهذين الشيخين عبد الله بن خلف، وقاسم بن مهزع رحمهما الله تعالى.

(٦) وكان يحب الجمع بين الفقه والحديث، ولا يرى الفصل بينهما، فلا يحب الفقه ناشفاً خالياً من الدليل، ولا يحب تطرف الزاعمين أنهم من أهل الحديث في رفضهم للفقه ومناصبتهم العداوة للفقهاء أو التحقير من شأنهم ونحوه مما فيه إهدار لكرامتهم ونكران لجميلهم.

(٧) وقد عاصر آخر الأحداث والمنازعات التي أثارها الإنكليز بين الكويت والسعودية، ولاحظ ما جرته تلك الأحداث من البغض والتكفير لبعضهم البعض مما جره إلى البحث والتمحيص، فكان من جراء ذلك مولعاً بكتب البحث والمناظرة والردود مما صار له الأثر القوي في تكوينه العلمي والروحي.

(٨) وقد صار له نشاط في نشر العلم والتوعية الروحية بإلقاء المواعظ والمحاضرات المتوالية في المساجد والمدارس والأسواق، ويعطي كل موقف حقه الملائم له بحيث لا يلقي في المدرسة شيئاً مما يلقيه في المسجد، بل يلاحظ المناسبة ويرعى الاختصاص، وكانت الأسئلة تنهار عليه فيجيب على بعضها شفاهياً في وقفته مهما طالت ويكتب باقي الأجوبة في الصحف عند ضيق الوقت عن الإجابة الشفوية، له نشاط في تدعيم العلم الروحي وخدمة الدين بشراء مجموعات كبيرة من الكتب وتوزيعها على حسابه الخاص على مكتبات المدارس والجامعات وغيرها من المكتبات العامة الهامة، كل ذلك يحتسبه لله.

(٩) وله من المؤلفات عدد غير قليل وهي:

١ - الأجوبة المفيدة لمهات العقيدة، ضمنها توحيد العبادة والعقيدة السلفية، وتفنيد جميع المذاهب والنظريات العصرية المادية.

٢ - الجواهر البهية في نظم المسائل الفقهية على مذهب الحنابلة الأحمدية (١٢٠٠٠ بيت) وقد توسع فيها بذكر الدليل والتعليل والخلافات.

٣ - إيضاح الغوامض من علم الفرائض (١٠٤٨).

٤ - الجواب المفيد في الفرق بين الغناء والتجويد.

٥ - المسلم الثبوت في الرد على شلتوت.

٦ - السيف المنكي في الرد على حسين مكي.

٧ - إرشاد المسلمين إلى فهم الدين.

٨ - الحق أحق أن يتبع (ثلاثة أجزاء) في الرد على القوانين.

٩ - الإنسان الكامل الشريف والحيوان الناطق المخيف.

١٠ - صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، وينشر منذ عدة سنوات في مجلة البعث الإسلامي.

١١ - معارج الوصول إلى علم الأصول.

١٢ - مشكاة التنوير حاشية على شرح الكوكب المنير.

١٣ - من هم المنافقون؟ كتاب ضمّنه جميع صفات المنافقين الواردة في وحي الله من الكتاب والسنة، يكتشف المسلم بقراءته حقيقة كثير ممن أبرزتهم الثقافة الماسونية المسماة بالتربية الحديثة، فيعرف أن أكثر المدارس التي بثتها الماسونية على أيدي الاستعمار الغربي والشرقي وعملائه. ما هي إلا مصانع لتخريج المنافقين الذين سيحتلون الصدارة ويسيرون العامة حسب المخططات الماسونية في كل ميدان. كما تثبته صفاتهم التي أخبرنا بها العليم الحكيم.

١٤ - تكملة المنظومة الصرصرى في قصة يوسف وتعليقات عليها.

١٥ - مختارات من التفاسير والروايات فيها من الفوائد ما لا يستغني عنه طالب العلم خاصة والمسلم الواعي بصفة عامة.

١٦ - تعليقات متنوعة على كثير من الكتب التي قرأها في مختلف المواضيع. منها ما هو جبر وتوضيح. ومنها ما هو انتقاد وتصحيح، لأنه قد جرت في عادته أنه لا يقرأ أي كتاب قراءة سطحية، بل يعيد قراءة كثيرة من الكتب لهذه الغاية، وقل أن تجد كتاباً في مكتبته قد قرأه ولم يعلق عليه حتى كتاب «فتح الباري شرح

البخاري » وصل في تعليقاته عليه إلى الجزء الثالث فانشغل عنه بغيره مما تتطلبه أحداث الزمن.

١٧ - قصيدة أرجوزة في حكم من أقوال العلماء والحكماء والقادة وسائر المفكرين التقطها نثراً من كتب شتى فنظمها أرجوزة حلوة سلسة بديعة.

١٨ - قمع المفتري على الله - عدة أجزاء في الرد على أهل الزيغ والإلحاد، مبتدئاً بمحرر مجلة العربي أحمد زكي.

١٩ - النظم المرئي في الرد على الشاعر القروي مع شرحها.

٢٠ - تأملات عميقة في أحسن القصص.

٢١ - نور على نور مقتبس من سورة النور.

٢٢ - محاضرات ومناظرات.

٢٣ - ملاحظات على التاريخ.

٢٤ - عروبة وعروبة.

٢٥ - كيف نحارب إسرائيل.

٢٦ - أجوبة علي المحاضرات.

٢٧ - من كنوز السنة، وهي أحاديث مشروحة بما ينطبق على الواقع، وقد افتتحها بما يتعلق بالعقيدة مبسطاً ثم ما يتعلق بالسلوك والأخلاق.

٢٨ - كتاب مركب النقص، يعالج فيه وصمة عار التقليد الذي ابتلت به مجتمعاتنا في عقيدتها وأخلاقها.

٢٩ - الجاهلية الجديدة كتاب يعكس فيه على العصريين مقاصدهم ويفضح نفاقهم ومعاذيرهم.

٣٠ - فلسفة أركان الإسلام كتاب يوضح فيه مدلول الشهادتين وفلسفتها والحكم العظيمة في إقامة حقيقتها، ثم يبين حكمة الصلاة وحيويتها إلى آخره، وهو أربعة أجزاء.

٣١ - شرح المنظومة السخاوية وزيادات عليها في مشكل القرآن.

٣٢ - شرح على إيضاح الغوامض من علم الفرائض، ضمنها فوائد فرائد في هذا الفن.

٣٣ - الأسلحة التي انتصر بها اليهود، ضمنها أهم المخططات الرهيبة التي وضعتها اليهودية العالمية في سائر المجالات لإفساد الأحوال العربية في جميع الشؤون السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والإعلامية وإفساد علاقاتها بالدول الرأسمالية والإسلامية خاصة، وتركيزها في ميدان الصدارة، والتنفيذ على طريق الحصر من ينفذ لها ما تريده، وجعل العالم العربي في العصر الذي يسمى بعصر النور يعيش في ظلمات من ركام السياسة ودجل المفرطين.

٣٤ - أضواء على الروايات والتاريخ، ضمنه فضيحة المدسوسات في التفسير والتاريخ من أصحاب الفرق الضالة والحركات الهدامة في الإسلام.

٣٥ - معارضات لمحاضرات الخضري وبيان ما فيها من النقول الخاطئة.

٣٦ - المجاني المختارة من ثمرات الكتب وكلمات الفحول فيها من روائع النظم والنثر والقصص البديعة الممتازة.

٣٧ - ديوان قصير طبع منه بعض قصائد منها الفلسطينيات الرائية والدالية المتضمنتان تصوير نكبة شهر حزيران سياسياً واجتماعياً، ونشر منه قصائد ميمية عالجت بعض المفتريات العقائدية الماسونية، وقصيدة عينية في تصوير بعض الأحوال الحاضرة.

(١٠) يرى في مستقبل الجيل الإسلامي ضرورة مقابلة علماء المسلمين وولاتهم لمخططات أعدائهم بما يقابلها ويحبطها، فيقومون بإنشاء المدارس الدينية والروضات التربوية الروحية، وأن يُصنع أولاد المسلمين على أعينهم لا على أعين أعدائهم وتلاميذ أعدائهم، وأن يعملوا على إصلاح الأجهزة الإعلامية بتركيز الركائز الطيبة فيها وتغيير برامجها تغيراً جذرياً،

بل يرى من أوجب الواجب على علماء المسلمين أن يبثوا الوعي الديني الصحيح في طبقات الأمة ويلهبوا حماس شبابها وأثريائها ليسخوا بتأسيس جميع ما يكفل عودة القيادة الفكرية إليهم، فإذا نجحوا في التربية الروحية وحازوا القيادة الفكرية التي انتزعها منهم أعداؤهم وهم سادرون، كانوا جديرين بالحياة الصحيحة، أما دون هذا فإن مجهودهم يشبه عمل من يعالج الجرح والرأس مقطوع - عياذاً بالله من مثل السوء ومن عاقبة السوء - فإن كل مخطط لا يحبطه إلا ما يوازيه أو يزيد عليه - والماسونية اليهودية وإن سبقتنا أشواطاً بعيدة في هذا المضمار فإنه بقوة الوعي وحسن القصد والصدق في العمل سنغلبهم في وقت قصير كما قيل (إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل) والمسألة تتطلب:

١ - الوعي العام الصحيح.

٢ - العمل الجاد المتواصل.

٣ - اطراح الجبن والشح اللذين هما أصل البلاء ومجمع الشرور.

٤ - السخاء في سبيل الله.

٥ - البصيرة النافذة بتركيز الركائز الإسلامية الصالحة في كل ميدان وإعطاء كل عمل حقه.

٦ - عدم ترك فراغ يشغله أعداؤنا.

٧ - مجابهة كل خطة بما يفسدها.

وليكن جميع ذلك بصدق مع الله وإخلاص لدينه بحيث لا يشوبه رياء ولا سمعة ولا أي شيء من الأنانية، وهنالك يسدد الله الخطى، ويسلك بذا سبيل النصر (والله غالب على أمره).

وهكذا سجل فقيدنا رحمه الله أفكاره وتاريخ حياته وآماله وآلامه في هذه الأسطر القليلة التي كتبها عن تاريخ حياته... انظر إلى حديثه عن السبب الذي جعله يعمل في التجارة بدلا من الوظائف، ومن ذلك قوله:

... إنه يستغني بها عن ابتذال علمه بالوظائف التي تخرسه عن الصراحة بالحق أو تجعله مسايراً لرغبات الدولة التي توظفه، فلهذا لجأ إلى العمل الحر شحاً بدينه وعرفاناً بقيمته وارتفاعاً بكرامته عن ملابسات الوظائف.

وكان رحمه الله في وصيته مثالاً لأهل الخير وقدوة جديرة بالاتباع. أوصى بثلث ماله للجمعيات والمراكز الإسلامية القائمة بأمر الدعوة إلى الله وفي نشر الكتب والمنشورات الإسلامية وفي إطعام المحتاجين من الفقراء والمساكين وسائر القربات، مع مراعاة الأهم فالأهم حسب الترتيب الذي ذكره.

وأخيراً: أشعر بأن خسارة الدعوة الإسلامية في وفاة الوالد - رحمه الله - كبيرة جداً.....

وقد كان طلابه ومحبوه أوفياء له يوم تركوا أعمالهم وهرعوا إلى المسجد الكبير، فصلوا عليه وأبوا إلا أن يحملوا نعشه على أكفهم، وكان من عادة أهل الرياض أن يحمل الميت بسيارة، فما قبل الناس للوالد أن يحمل إلا على أكفهم، وكان موكباً لم تشهده المدينة من قبل... وهكذا يقدر الناس الرجال الدعاة في حياتهم ومماتهم.

وبعد أن توقف القلب الذي كان ينبض بالعقيدة والدعوة وإعلاء كلمة الله، لا أملك أكثر من ترديد قول رسول الله ﷺ:

«**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**». رواه مسلم.

كانت وفاته في ١٣٨٩/١١/١٦ هـ.

اللهم فاشهد: هذا علم عبدك ووديعتنا عندك ننشره لينتفع الدعاة به. وهذه صدقته الجارية نوزعها كما أراد: على الكتب الإسلامية وعلى الدعاة والجماعات الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر.

اللهم وهذا ابنه وأخوه يسألانك بأسمائك الحسنى وصفاتك الرفيعة

وبكل اسم، إذا دعيت به أجبت أن تغفر لفقيدنا خطاياه، وأن تتقبل صالح أعماله، وأن تثيبه على ما أنفق في سبيلك، وأن تمن عليه بالجنة مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

اللهم لا تفتنا بعده، واغفر لنا وله.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الذين يدعونك فتتقبل دعاءهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

اليهود يكفرون بنعم الله

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾[1].

من بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لن يبلغ شأوها بليغ أبداً، هو تفننه بانتظام مسائل مختلفة في سلك موضوع واحد، فإنه سبحانه قرر عدم الريبة في القرآن، ثم ذكر أصناف الناس فيه، من مؤمن وكافر ومنافق، ثم ضرب الأمثال للمنافقين، ثم طالب الناس بعبادتهم له، وأقام الدليل على أن القرآن من عنده، وتحدى المرتابين بما يعجزهم.

ثم حاجج الكافرين بأنصع البراهين، من إحيائهم مرتين وإماتتهم مرتين وخلق السماوات والأرض لمنافعهم، ثم ذكرهم بأصل الخليفة واقتضاء حكمته استخلاف بني آدم في الأرض، وذكرهم بالامتحان المرير لأبيهم آدم وإهباطه إلى الأرض لابتداء دور القيام بعهد الله، متعهداً للمتبعين هدايته قولاً وعملاً ودعوة بحياة طيبة في الدارين، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لا يخافون مما هو آت، ولا يبالون بأي قوة مهما عظمت، لقوة اعتمادهم على الله الذي يصرفها عنهم أو ينصرهم عليها، ولا يحزنون على ما

(١) سورة البقرة، الآيتان ٤٠ - ٤١.

فات، لجزمهم أن الله يخلفه عليهم، ومتوعداً الكافرين بالعذاب الأليم على اختلاف أنواعهم.

بعد هذا كله وجه الخطاب إلى اليهود لمجاورتهم المؤمنين في المدينة وشرقتهم بالرسالة المحمدية، مع علمهم بها في التوراة، ومع ما أنعم الله عليهم من نعم ليس لها مثيل، وحملهم عهده أحقاباً من السنين، فلم يرعوه حق رعايته، ففضح دفائن نفوسهم الخبيثة في مائتين وأربع وستين آية من وحيه المبارك، منها أربع وثمانون آية في هذه السورة[1]، وسبع وستون آية في سورة آل عمران، وتسع وعشرون آية في سورة النساء، وثلاث وأربعون آية من سورة المائدة وإحدى وأربعون آية من سورة الأعراف. هذا عدا ما جاء في قصة موسى المكررة في سبع سور من القرآن الكريم، وعدا آيات أخرى قليلة في سورة الإسراء، وغيرها تعرضت لذكرهم، وقد ابتدأ الله التحدث معهم وختمه بندائهم ونسبتهم إلى أبيهم وتذكيرهم بنعمته وعهده بكل لطافة، ليفتح قلوبهم، ويحرك عواطفهم، ويستحثهم على الإيمان قائلاً:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[1] وإسرائيل لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم السلام ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[2] فقد أنعم عليهم بعشر نعم عظيمة لم تتوفر كاملة لغيرهم من الأمم، سيأتي تفصيلها، والمقصود من تذكيرهم أن يشكروه شكراً عملياً، فيؤمنوا إيماناً صحيحاً كاملاً برسله جميعاً وبوحيه من التوراة التي فيها ذكر خاتم أنبيائه محمد عليه الصلاة والسلام وذكر أوصافه التي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، لأنهم إن لم يقوموا بذلك لم يشكروا نعمته، بل كانوا بها من الكافرين.

وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ هذا العهد المطلق الذي جاء بلفظ المفرد يراد به جميع العهود، الشرعي منها والفطري.

---

(١) سورة البقرة، آية ٤٠.

(٢) وهذا أمر اتخذه اليهود سياسة أبدية لهم في تضليل بني البشر ونشر مفاسدهم فيهم.

فالعهد الفطري هو التدبر والتروي بآيات الله الكونية، ووزن كل شيء بميزان العقل، فإنها شاهدة على الله وعلى كمال قدرته وإحاطة علمه وشمول حكمته وعظيم رحمته، بحيث لا يعذر معها المشرك المعطل عقله وتفكيره، تقليداً للآباء، أو انجرافاً مع تيار الإلحاد، أو خضوعاً للبيئة.

والعهد الشرعي بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقد اختص بنو إسرائيل بنصيب كبير من ذلك، فعندهم التوراة من أمهات الكتب السماوية، فيها التوحيد، وفيها التشريعات والحدود، وفيها ذكر العهد على النبيين وأممهم، لئن جاءهم محمد ﷺ ليؤمنن به ولينصرنه، وفيها ذكر أوصافه تماماً كما تقدم، وفيها وعد الله لهم إذا حققوا الإيمان وأخذوا وحيه بقوة أن يمكنهم من بيت المقدس، ولكنهم نكسوا جميع ذلك، فلهذا يذكرهم الله بهذا العهد المتشعب قائلاً: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٠) أي أنجز لكم ما وعدتكم به تحت قيادة هذا النبي الذي تعرفونه في التوراة.

ولما كان سبب مخالفتهم لوحي الله ونقضهم عهود الله: الخوف والطمع، قال لهم سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي لا تخشوا غيري أبداً لينحصر خوفكم فيّ دون سواي، فإن الخوف من غيري شرك والطمع في غير مرضاتي إفلاس من الخير الصحيح.

فإن كنتم تخافون فوات المنافع، أو نزول الأضرار بكم إذا خالفتم جماهيركم واتبعتم الوحي، فالأجدر بكم أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا ممن بيده أزمة الأمور، لا يحصل نفع أو يحل ضرر إلا بأمره وتدبيره، فهو المالك لكل شيء وهو المنعم عليكم بكل شيء، وهو القادر على إنزال أفدح العقوبات بكم إذا استمررتم على ترك شكره وعدم الوفاء بعهده.

ولقد كان من المنتظر أن يسارع يهود المدينة إلى الإسلام ويكونوا دعاة لمن وراءهم إليه، لأنهم يعرفون رسول الإسلام، وقد جاءهم بما يعرفون، ولأنهم كانوا يهددون مشركي العرب، كما سيأتي بيانه.

ولـذا يقول الله لهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾[1] ذلـك أن القرآن جـاء مصـدقـاً بـالتوراة وآمراً بـالإيمـان بهـا، وهذا من أكبر الحوافز لهم على الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل إليه لو كانت صدورهم سليمة ومقاصدهم حسنة، - ولو كان العكس لانجرح شعورهم أو أخذهم الكبر والإعجاب بما أوتوا - لكن لما كان هذا القرآن قد أعطى التوراة ونبيها حقها فالواجب العقلي الوجداني فضلاً عن الديني يوجب عليهم الفرح والمبادرة بالإيمان، لينالوا أجر السبق ومفخرته، ولهذا يوجههم الله إلى ما فيه خيرهم وعزهم، ويحذرهم من انعكاس الأمر قائلاً: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾[2] لأن الكـافر الأول ينال مساوىء وجرائم كل من تبعه وقلده على الكفر، فله نصيب كبير من آثامهم دون أن ينقص عليهم شيء من الأوزار، وهذا إثم متواصل إلى يوم القيامة، كما وردت النصوص بذلك، لأن المعجب بطريقة ما لا بد أن يحبذها ويدعو إليها، فإن كانت طريقة حسنة كان له أجرها وأجر من تبعه عليها إلى يوم القيامة وإن كانت سيئة كان عليه وزرها وأوزار من تبعه عليها إلى يوم القيامة.

فلهذا نهاهم الله أن يكونوا أول كافر بالقرآن، وكفرهم به جحودهم أنه من عند الله وأولية الكفر هنا لبني جنسهم، فكأنه يقول لهم: «يا معشر أحبار أهل الكتاب صدقوا بما أنزلت على رسولي محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن المصدق لكتابكم والذي عندكم من التوراة والإنجيل المعهود إليكم فيها أنه رسولي ونبيي، ذلك الرسول النبي الأمي الذي تجدونه مكتوباً عندكم فيها، ولا تكونوا أول من كذب به من أمتكم وجحده، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم، فيكون عليكم إثم الجميع، وتتحملون ضلال من ضل من أمتكم إلى يوم القيامة».

---

(١) سورة البقرة، آية ٤١.

(٢) سورة البقرة، آية ٤١.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[1] يعني لا تستبدلوا بآياتي ما تأخذون من عرض الدنيا على تعليم الدين وما تريدون بقاء رئاستكم وفرض نفوذكم على عامتكم، ذلك أن أكثر ما يصرف العارفين عن الحق هو الطمع إما بالمال الذي يأخذونه بالدجل والشعوذة أو الطمع بالرئاسة والجاه ونفوذ الكلمة، وجميع هذا يعتبر قليلاً مهما عظم وكثر بالنسبة إلى ما عند الله، فإن الملتزم لآيات الله ينال من فضل الله العاجل والآجل ما لا تعدله الدنيا جميعها، ولذا صار الجاحد لآيات الله والمعرض عنها طمعاً بمال أو جاه قد اشترى بها ثمناً قليلاً، فهو مغبون وصفقته خاسرة.

ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ يعني اتقوا سخطي في بيعكم آياتي بالثمن الخسيس الذي هو طمعكم بمال أو جاه أن أنزل بكم ما أنزلته بأسلافكم من العقوبة والنقمة، وخذوا لأنفسكم وقاية منها باتباعكم هذا الوحي وتصديقكم بهذا الرسول.

«تنبيه»: جاء في هذه الآية صيغة خطاب الجمع في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟﴾، ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ ﴾. وقد أفرد لفظ كافر، فلم يقل: (أول الكافرين) ووجه الجمع بينهما في شيء واحد هو أن ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ ﴾ أي أول فريق كافر فاللفظ مفرد والمعنى جمع، فيجوز مراعاة كل منهما، وقد جمع اللغتين قول الشاعر:

فإذا همو أطعموا فألأم طاعم ... وإذا همو جاعوا فشر جياع

وقيل هو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقول الشاعر:

وكان بنو فزارة شر عم ... وكنت لهم كشر بني الأخينا

يعني شر أعمام.

وقوله سبحانه وتعالى في آخر الآية الثانية: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ وفي آخر

---

(١) سورة البقرة. آية ٤١.

الآية الأولى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ليس بينهما تعارض، بل هما في غاية التناسب، ففي الآية الأولى التي فيها الأمر بوفاء عهد الله ورعاية نعمة الرسالة لما كان من جملة الموانع عن الوفاء خوف بعضهم من بعض، أمرهم الله أن يحصروا خوفهم ورهبتهم من الله فقط، فهو الذي بيده مقاليد الأمور. وهو القادر وحده على عقوبتكم وعلى سلب النعمة منكم. وفي الآية التي تليها قال: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ لأن تركهم الحق واستمرارهم على الباطل كان بسبب اقتضاء المرؤوس غضب الرئيس واتقاء الرئيس فوات منافعه من المرؤوسين، فطلب الله منهم اتقاءه وحده وعدم المبالاة بما سواه، فالتناسب بينهما واضح بديع.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٢) تحذير من الله لهم من أن يلبسوا، أي يخلطوا الحق بالباطل حتى يشتبه على عوام الناس، وذلك أن أكثر الضلالات لا تروج على الناس ويتفاقم شرها إلا بسبب هذا الخلط الذي يضيع به وجه الحق. وقد كان من تلبيس أحبار اليهود أنهم يلبسون الأمر على العامة[١] في شأن محمد ﷺ بأنه من الكذابين استناداً لما جاء في التوراة من نبوغ أنبياء كذابين، ومن بعث رسول من بني إسماعيل موصوف بأوصافه الحسية الصحيحة التي يعرفونها، فهم يكتمون ما في التوراة من الحق الذي هو الإخبار ببعثه محمد ﷺ ويزعمون أنه من الكذابين الذين جرى التحذير عنهم في التوراة، وهذا من أشنع أنواع الخلط والتلبيس. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فهم يكتمون الحق بطريقة الخلط الذي يحصل فيه الالتباس، وبعضهم يلبس الحق بطريق النفاق. فيظهر الإيمان بمحمد ﷺ ولكن يزعم أنه نبي العرب خاصة تلبيساً منه على العامة لئلا يشكّوا في التوراة.

ومن معنى اللبس المذكور قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾[١].

---

(١) سورة الأنعام، آية ٩.

وقول الشاعر:

لمـــا لبس الحـــق بـــالتجني   غنين واستبـــدلن زيـــداً مني

فزعمهم أن محمداً ﷺ مبعوث إلى غيرهم - وهو مبعوث إلى الناس كافة - هو من لبسهم الحق بالباطل ليختلط الأمر، وقيل إن الحق هو التوراة، والباطل هو ما كتبوه بأيديهم ودسوه فيها، فخلطوا الحق بالباطل، وليس هذا ببعيد، لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

والسبب الحادي لهم على شن المعركة ضد الإسلام هو ما يعرفونه ويتحققونه من زوال سيادتهم وانتقال القيادة العالمية عنهم إلى بني إسماعيل. ولكنهم لم يلوموا أنفسهم لسوء تصرفاتهم وفساد أعمالهم وأخلاقهم التي بسببها قضى الله سبحانه بنقل القيادة عنهم إلينا، بل أبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يحاربوا الحق بكل لؤم وخسة. ولا يزالون على هذه الحال، لأنهم ضربوا بوحي الله عرض الحائط.

ولذا فالله سبحانه يواجههم بهذه النداءات والتذكيرات والوصايا النافعة والتفريعات المؤثرة للقلوب، فنجده سبحانه وتعالى بعد تلك النواهي يأمرهم بما يعمر الضمائر قائلاً: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (سورة البقرة. آية ٤٣).

فأوصاهم بإقامة الصلاة لأنها إذا أقيمت على وجهها كانت أفضل ما يعبر عن الشعور بعظمة المعبود وشديد الحاجة إليه. ولها أعظم تأثير في تهذيب النفوس والسمو بها إلى الملكوت الأعلى. ولذا أبان الله أثرها بأنها

---

(١) سورة البقرة. آية ٧٩.

تنهي عن الفحشاء والمنكر، فلو أقامتها يهود حق إقامتها لارتدعوا عن ما يقومون به من صنوف المنكر ضد الإسلام والمسلمين، خصوصاً إذا قرنوها بالزكاة المرققة للقلوب، فالله يرشدهم إلى فعل ما تصلح به أخلاقهم وترتفع به نفوسهم عن المطالب الخسيسة والمقاصد الدنيئة إلى المطالب العالية التي يوجبها عليهم في وحيه المبارك من التوراة والقرآن.

ومن انطبع بالتكبير الصادق شمخ برأسه إلى السماء قاصراً همته على حمل بضاعة السماء وترفع عن المقاصد الأرضية المادية، ولذا طلب الله منهم أن تكون صلاتهم جماعة قائلاً سبحانه: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ يريد منهم أن يكونوا في جماعة المسلمين يصلون معهم لما في صلاة الجماعة من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة والتعارف والتكاتف بين المؤمنين، إذ باجتماعهم يتدارسون مشاكلهم، ويتشاورون فيما بينهم على مهمات الأمور، وتعبيره سبحانه عن الصلاة بالركوع ليبعدهم عن صلاتهم المألوفة الخالية من الركوع.

فهو سبحانه وتعالى بعدما أمرهم بالقيام بشكر نعمته العظيمة والوفاء بعهده اللذين هما أصل الإيمان، أمرهم بالأعمال الصالحة، مقتصراً على مهماتها من الصلاة التي هي من أعظم دعائم العقيدة وروافد الإيمان، والزكاة التي فيها تزكية للنفس ووقاية لها من شرور الشح، وفيها مظهر من مظاهر شكر الله على نعمه، وفيها نماء للمال، وفيها صلة عظيمة بين الناس بالبذل المحبب بين النفوس، فهي وشيجة اجتماعية عظيمة يحصل بها التكافل العام في هذه الحياة، فطلب الله منهم إيجاد هذه المقاصد الأربعة التي فيها جماع الخير ليتحولوا بتحققها عما هم عليه من سوء الطباع وخبث الطوية. ولهذا أخذ يقرعهم ويوبخهم بعد هذه الوصايا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٤).

وهذا الخطاب موجه إلى أحبار يهود وعلمائهم الكبار والصغار من كل

من يقرأون التوارة ويخالفونها، باعوجاج طريقتهم وفساد أعمالهم، وهم يأمرون غيرهم بالبر، إذ ينصحون بعض الناس بالإيمان بمحمد ﷺ، وهم لا يؤمنون به، بل يسعون ضده بكل مؤامرة ودسيسة.

وقال السدي: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله، وينهونهم عن معصيته، وهم يفعلون ما ينهون عنه، ونسيان النفس هو تركها مفلسة من الهداية، ويعبر عنه للمبالغة في عدم المبالاة فيما يجره الهوى عليهم من وبال وشرور، يعني إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر وبوعده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم فحرمتموها حظوظها العالية التي تنالها لو أتبعتم محمداً ﷺ ودعوتم إلى دينه؟ ولكنكم سلكتم مسلك الغش والتلبيس الذي يضر أنفسكم على حسب ما تقومون به ضد محمد ﷺ، وأنتم تزعمون الإيمان بالتوراة وتلاوتها والمحافظة عليها، ولكنكم ما كنتم تتلونها حق تلاوتها، لأن حق تلاوتها هو العمل بها، وقد جاء فيها الإخبار بنبوة محمد ﷺ وأوصافه في مواضع كثيرة من أسفارها، حتى جاء في سفر الاشتراع (١٩) ما معناه - إن الله ينتقم ممن لا يسمع لما يتكلم به محمد عليه الصلاة والسلام باسم الله - ولكن الأحبار والرهبان لا يذكرون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم، ويرفضون كل ما يتعارض مع شهواتهم، ومن هنا كانت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وقد جاءت هذه الآية بأسلوب التقريع والتأنيب الكافي بإخراسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني إن مما يزيد في إجرامكم كونكم علماء (تتلون الكتاب) مجرد قراءة خالية عن العمل والتطبيق، فلو جرى مثل عملكم من جهال أميين لكان أسهل ذنباً وأخف جريمة، فالفرق عظيم بين من يفعل على جهل، وبين من يفعل أشنع المنكر من الافتراء على الله عن علم وبصيرة، أو يترك المأمور على علم والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا يحبسكم عقلكم عن هذه الجرائم الوخيمة التي تستنزل سخط الله؟ فإن من عنده ذرة من العقل لا يدعي كمال العلم بالتوراة وينصب نفسه للهداية وهو مخالف لما يقول.

وهذا الخطاب وإن كان موجهاً لبني إسرائيل فهو عام لجميع الأمم، وعلى الأخص أمة القرآن، فينبغي للمسلمين أن لا يتشبهوا بأولئك من سائر الطبقات.

ففي الآية تحذير للحكام أن لا يلبسوا الحق بالباطل تبريراً لمقاصدهم.

وفيها تحذير للقضاة أن لا يفتنهم الطمع، فيلبسوا الحق بالباطل، ليغيروا وجه الحق أو يبطلوه بأخذ الرشوة.

وتحذير للعلماء والمفتين أن لا يلبسوا الحق بالباطل أو يسكتوا عن النطق بالحق أو يلزموه لطمع في مال أو رئاسة.

وأن لا يشتري الكل من أولئك بآيات الله ثمناً، ذلك أن كل عالم مادي أو متميع فإنه لا بد أن يلبس الحق بالباطل في فتواه أو في حكمه، لأن المادي لا تتم له أغراضه إلا بمخالفة الشرع ودفع الحق بأنواع الشبهات، ولذا تجد الاستعماريين حتى الشيوعيين يتزلف عندهم علماء المادة ويزلفونهم لخدمة أغراضهم فيصبحون كعلماء اليهود.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾

(سورة البقرة، الآيتان ٤٥-٤٦).

يوصيهم الله سبحانه أن يستعينوا بالصبر والصلاة على تحقيق الوفاء بعهده والقيام بأمره والتزام ما وصاهم به في التوراة من الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام والقيام بنصرته، لأن انتقالهم من موقفهم المشين إلى الموقف الذي يرضاه الله يحتاج إلى قوة وشجاعة، لأنه طغى عليهم حب المادة والرئاسة وتوسيل الشيطان، ووجدوا في ذلك مرتعاً خصيباً لما نسوا حظهم في الآخرة، فانتقالهم من تلك الأطماع والغرور صعب يحتاج إلى رفد عظيم. وليس هنا رفد أعظم من الصبر والصلاة، فالصبر هو احتمال المكروه بكامل الرضى والتسليم، وأركانه ثلاثة:

١ - حبس النفس على مكروهاتها تسليماً لأمر الله.

٢ - تحمل المشقة والأذى في سبيله إيثاراً لمراد الله ورضاه به.

٣ - انتظار الفرج ثقة بوعد الله واستمطاراً لمدده الروحي وتأييده على المثابرة، وبتكامل أركان الصبر المؤدية إلى المقصود ينجو بنو الإنسان من الخسران في كل شأن من شؤون حياتهم ويحفهم الخير في كل منها، كما قضى الله على ذلك في سورة (العصر).

ولا تتحقق الاستعانة بالصبر إلا برفض كل شيء وكل سبب يصرف عن صراط الله وشرعه، من اتباع الشهوات، والولوع بالأنانية والملذات، والبعد عن كل ما يزلف فيها، ثم بالقياس بينها وبين ما عند الله من نعيم دائم أو عذاب مقيم، فإن الصبر الحقيقي لا يكون إلا بتذكر وعد الله بالجزاء الحسن العظيم للصابرين عن الشهوات المحرمة والعاملين بالطاعات المرضية لله، وأن الاستعانة بالله تكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

وأما الاستعانة بالصلاة فلكونها أنفع الوسائل إلى حصول المأمول وإرجاع النفس إلى الله لما لها من التأثير المعنوي والروحي، لأن فيها معارج روحية للمصلين الصادقين الذين هم في صلاتهم خاشعون، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، لما يحصل فيها من مراقبة الله في السر والنجوى، وحسبك بعبادة يناجي صاحبها ربه في اليوم بضع مرات أو أضعافها نافلة، وقد روى الإمام أحمد في مسنده «أن النبي ﷺ كان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة»[١] وكان فيها راحة معنوية، ولذا كان يقول: يا بلال: «أرحنا

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٨٨/٥)، وابو داود برقم/١٣١٩/ في الصلاة. باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل. والقرطبي في التفسير (١٧٠/١) والطبري (٢٠٥/١) وابن كثير (١٢٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (٩٧/١) و (١٨٥/٥).

بالصلاة »[1]. ولم يقل - أرحنا من الصلاة - كما هو منطق المفلسين في روح الدين. وكان يقول: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[2].

ومن خواصها الصبر وطرد الهلع. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[3].

ومن خواصها الجود والسخاء والشجاعة وحسن مراقبة الله. ولذا تجد المصلي الحقيقي لا يترك الحق لشهوة نفس أو خوف من أحد. بل لا يبالي بما يلاقيه من المشاق والمتاعب. ذلك أن الصلاة فيها صلة عظيمة بالقوة الخفية. صلة بين العبد وربه، يستمد منها قلبه قوة معنوية. وتجد فيها نفسه زاداً أحسن وأغلى من جميع أغراض الدنيا. وتحس فيها روحه بطمأنينة ويقين. فهي ينبوع في متناول المؤمنين، يؤمن لهم زاد الطريق، ويسهل عليهم ظمأ الهواجر. وهي المدد الروحي حين ينقطع المدد المادي فيكون للمؤمنين خير عوض ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ (سورة النساء. آية ١٢٢). وقد تكرر الأمر في القرآن بالاستعانة بالصبر والصلاة، لأن الصبر زاد معنوي لا ينضب معينه. ولا يستغنى عنه لمواجهة الشدائد، خصوصاً ما يطلب من بني إسرائيل من النزول عن القيادة والسيادة والنفع والمكاسب المادية. انصياعاً للحق الذي كتبه الله على غير أيديهم. وإن كثيراً من الناس يعادي الحق. إذا أخذ على غير يديه. فكيف إذا كان يأخذ ما في يديه. ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ...﴾ (سورة

---

(١) أخرجه أبو داود برقم /٤٩٨٥، ٤٩٨٦/ في الأدب. باب في صلاة العتمة وإسناده صحيح. وأراد بقوله: (أرحنا بالصلاة) أي: آذنا بالصلاة لنستريح فإنه صلى الله عليه وسلم كان يعد غير الصلاة من الأعمال الدنيوية تعباً. وكان يستريح بالصلاة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائي (٦١/٧) في عشرة النساء، باب حب النساء. وإسناده حسن.

(٣) سورة المعارج. آية ١٩.

البقرة. آية ٤٥). وهل الضمير راجع إلى الجملة الأخيرة التي هي الاستعانة بالصبر والصلاة. أو راجع إلى الصلاة فقط. أو هي ضمير الشأن راجع إلى جميع الجمل المتعاقبة منذ ابتداء نداء الله لهم ومطالبتهم بوفاء العهد وشكر النعمة والإيمان بالقرآن. وغير ذلك مما يجمعه الاعتراف بالحق والعمل به. وقد جاء في قواعد التفسير مراعاة جميع الضمائر في القرآن. فعلى هذا تكون هذه الأوامر المطلوبة منهم كبيرة شاقة وصعبة إلا على الخاشعين الخاضعين المخبتين لله، الخائفين من أليم عذابه وشديد عقابه، لأنهم مترقبون ما ادخر الله لهم من ثواب، فتهون عليهم الصعاب، لأنهم يتوقعون لقاء الله يوم الحشر والحساب. وإن مرجعهم إلى الله لا مرجع لهم غيره. ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

وعبر الله بالظن للإشارة إلى أن من ظن لقاء الله، لا تصعب ولا تشق عليه التكاليف، وخصوصاً الصلاة، فما ظنك بمن يتيقن لقاء الله. ومن هنا كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ، كأن بني إسرائيل الذين يلبسون الحق بالباطل ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، لم يصل إيمانهم بالله وبكتابه وبلقائه إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالأحوط فيما يقول ويعمل، وإنما إيمانهم تقليدي موروث لا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد فسر الظن كثير من المفسرين هنا باليقين، لأن استعمال (ظن) ومشتقاته في معنى اليقين كثيرة في القرآن وفي لغة العرب، ولا شك أن اليقين بالرجعة إلى الله وحده هو الباعث على تحمل التكاليف والصبر عليها من فعل وترك، وهو مناط التقوى للإحساس العميق الذي يحصل به الوزن الصحيح لجميع القيم التي متى استقام ميزانها بدت جميع الدنيا بخزائنها ومعادنها وخيراتها وثرواتها وزينتها ثمناً قليلاً جداً بالنسبة إلى ما عند الله للمؤمنين في الدار الآخرة.

---

(١) سورة البقرة، آية ٤٦.

ومما جاء في القرآن من استعمال الظن بمعنى اليقين قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾(٢) أي أيقنت.

وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾(٣) أي أيقنوا. ومن كلام العرب قول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

فقوله: ظنوا - أي أيقنوا. وقول عمير بن طارق:

فإن يعبروا قومي وأقعد فيكموا وأجعل مني الظن عيباً مرجما

أي اجعل مني الظن عيباً، وعلى كل حال فلو لم يجعل الظن بمعنى اليقين في هذه الآية لكان له مساغ قوي لواقع بني اسرائيل خاصة لأنه مشعر بذلك ولا يرد عليها كون الظن لا يغني من الحق شيئاً لكونهم متلبسين بذلك.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٩.
(٢) سورة الحاقة، آية ٢٠.
(٣) سورة الكهف، آية ٥٣.

اليهود يكفرون ويتآمرون

وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

(سورة البقرة، الآيتان ٤٧-٤٨).

يعيد الله نداءه لليهود بنفس اللقب الذي يحبونه وبأسلوب آخر في التذكير، يهز مشاعرهم ويفتح قلوبهم لو كان عندهم وجدان، وذلك لخطورة موقفهم من الإسلام والمسلمين، وتنكرهم لنعمة الله ونقضهم لعهده، بل لعهوده جميعها بمناصبتهم العدواة للإسلام والمسلمين، وجنايتهم على التوراة بالتحريف والتلبيس، وقيامهم بالمؤامرات المتواصلة منذ فجر الإسلام وحتى الآن لم تقطع، ولم تفتر ولم تتغير إلا في الشكل دون الحقيقة، على رغم أنهم مطاردون في جميع بقاع الأرض لا يجدون الظل الظليل إلا في الإسلام وبين أهله لأنه مفتوح ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية التي لا تزال قائمة في غير المجتمع الإسلامي حتى هذا العصر المسمى بعصر النور والحرية إفكاً وزوراً.

واليهود هذا الزمان تفاقم شرهم بسبب ما أحدثوه من الخواء الروحي والإفلاس في الدين بواسطة الثقافة التي ركزها كل مستعمر من الغرب

والشرق بتعليم منهم وتصميم، حتى أقاموا في الشعوب التي فسروا لها معنى الحرية تفسيراً ملتوياً بذور الخلاف وتجسيمه باسم الأحزاب إلى مذاهب متطاحنة ومبادىء متنافرة أقامت فيما بينها أندية الإباحية والتعري والفوضى. لكي يحرفوا العالم عامة والعرب والإسلام خاصة، ليضمنوا لأنفسهم من هذا الاستصباح بلهيب تلك النار، بل استخدموا جميع الوسائل الدنيئة لشراء الضمائر وتأديب أمة بيد أمة أخرى، بل لتأديب الشعب الواحد ببعض أبنائه العاقين الحاقدين.

وما هذه الثورات والانقلابات التي ابتدأت في بريطانيا وفرنسا وضربت خيامها الآن في أفريقيا والشرق الأوسط إلا تنفيذاً لخططهم التي أوصت بها (حاخاماتهم) ومحافل ماسونيتهم.

ومن العجب أنهم يوحون لعملائهم، التفريق بين الصهيونية واليهودية فخدعوا الجهال المتعلمين وجعلوهم يرمون الصهيونية بكل نقيصة وجريمة، ويربطون أفواههم وأقلامهم، بسلسلة احترام اليهود حتى زعموا أن اليهود إخوانهم وأنهم لا يعادون إلا الصهيونية وهذا من فرط جهلهم بوحي الله الذي فضحهم بدون تفريق وكشف لنا حقيقة اليهود، إنها صهيونية منذ العهد القديم كما سيراه القارىء والمستمع، من توضيح مئات الآيات نصاً وشرحاً، وإن كل يهودي هو صهيوني مهما تقنع بشتم الصهيونية إفكاً وخداعاً، وإن كل صهيوني هو يهودي[1]، واسمع كلام رب العزة كيف يفضحهم زيادة على الآيات المتقدمة مبتدئاً الكلام معهم بما يفتح قلوبهم لو كان عندهم ضمير:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٧).

(١) راجع كتاب اليهودية والماسونية للمؤلف رحمه الله.

ففي هذه الآية **أولاً**: تأكيد لما تقدم، وتمهيد لما عطف عليه من التفضيل الذي هو من أجل النعم، فإن في هذا التذكير مطالب وتهديداً، منها أن هذه المكرمة وهذه النعمة التي أكرمهم وخصهم بها من تفضيلهم على أمم زمانهم. وإكرامهم بنعم لم تحصل لغيرهم ينبغي ذكرها وشكرها. فمن شكرها الإيمان بكل نبي يرسله الله. وعلى الأخص خاتم النبيين محمد ﷺ لهداية جميع البشر. ومن ينكر هذه النعمة. بل جعلها حجة للإعراض عنه والازدراء بما جاء به فقد كفر بهذه النعمة. كان مستحقاً لمزيد الخزي والنكال الذي كتبه الله عليهم لما حرفوا وبدلوا. خصوصاً لما زعموا أن فضل الله محصور فيهم وأن الله وقف عليهم.

و (**ثانياً**): إن الله الذي فضلكم على غيركم فيما فضل. له أن يفضل غيركم عليكم خصوصاً إذا تجاهلتهم سبب التفضيل، ولم تشكروا نعمة الله عليكم فيه. لأن العقل فضلاً عن الدين يقضي بأن يكون المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه، وإلا فما قيمة التفضيل؟ لا بد من انعكاس الأمر إذا لم يغلب هو المفضل عليه بكل فعل فضيلة.

و (**ثالثاً**): إن كان هذا الفضل بسبب كثرة الأنبياء، فلا مزاحم لهم فيه. لكنه فضل إجمالي بحيث لا تقتضي تلك الفضيلة أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم. بل ولا تمنع أن يفضلهم أخس الشعوب إذا انحرفوا عن هدي أنبيائهم واهتدى بهديهم غيرهم.

و (**رابعاً**): إن كان تفضيلهم بالقرب من الله باتباع شرائعه. فالفضل مقصور على المستقيمين منهم على ذلك. وأما المنحرف فله نصيب من المثل السيىء الذي ضربه الله لهم من التشبه بالكلب والحمار، ومن اللعنة على لسان داود وعيسى ابن مريم[1].

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿**فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث وأن تتركه يلهث**﴾ (سورة الأعراف. آية ١٧٦).

وقوله تعالى: ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾ (سورة الجمعة. آية ٥).
=

(**خامساً**): أنهم ليسوا بأفضل من أمة محمد ﷺ على الإطلاق لورود النصوص بفضل هذه الأمة وخيريتها[1] ما دامت مستقيمة على عناصر الفضل والخير.

وهكذا نداء الله لبني إسرائيل فإنه ناداهم باسم أبيهم الذي هو منشأ فخرهم وأصل عزهم، وأسند النعمة والفضل إليهم لشمولها إياهم، والتفضيل لم يأتهم لمجرد نسبهم، أو سواد عيونهم وإنما جاءهم لتمسكهم بالفضائل واجتنابهم الرذائل لما كانوا متمسكين بالتوراة، عارفين أن من كان مفضلاً شريفاً يترفع عن الدنايا والرذائل، فلما خلف منهم خلوف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وأساؤوا التصرف بالكتاب، فأخذوا يقولون على الله غير الحق، لأنهم أخذوا العرض الأدنى من المال أو الشهوة مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك حتى أهدروا كرامتهم بأطماعهم وأغراضهم، وانحطوا من جميع مراتب الفضل، والله سبحانه وتعالى يناديهم مذكراً لهم بمفخرتهم، وطالباً منهم تجديد شكرهم له، مؤكداً حجته عليهم، ومحذراً لهم من التمادي في الشرود عن اتباع محمد ﷺ، ثم قرن ذلك بالوعيد حيث قال: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٨) كأنه يقول: إن لم تطيعوني لأجل إنعاماتي القديمة فأطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل وخصوصاً في يوم يقع فيه من الأهوال ما لا طاقة بكم على دفعه، ولا منجاة لكم فيه إلا بتقوى الله في السر والعلانية، فاتقوني لهذا اليوم الذي تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب والأحباب وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع

= وقوله تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾ (سورة المائدة، آية ٧٨).

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿كنتم خيرأمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ (سورة آل عمران، آية ١١٠) وغيرها من النصوص الكثيرة في القرآن الكريم والسنة.

المكروه عن النفس بالفداء، أو بنصرة الأخلاء، أو بشفاعة الشفعاء، بل لا يقبل من أي نفس عدل، يعني لا يؤخذ عنها فداء مهما كثر، لو قدر استطاعتها على ذلك، ولا يقبل منها شفاعة مهما جاءت بشفيع، لأنه يوم لا تنفع فيه الشفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[1].

ولأنه يوم لا ينصر المجرمون فيه ولا يجدون أحداً يمنعهم من العذاب، فهو يوم تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص في المقاصد ومتابعة للمصطفى ﷺ في الأعمال، ودون ذلك لا ينجي شيئاً.

فقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٨) يعني لا تنوب نفس عن نفس ولا تتحمل عنها شيئاً مما أصابها.

وقوله سبحانه تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٨) فيه نفي كامل للتناصر، لأنه لا يكون إلا في الدنيا بالمخالطة والقرابة والمحالفة وملاحظة المصالح، وأما يوم القيامة فتنقطع النصرة، والخلة والشفاعة كما قال تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[2].

بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه[3] ولا يبقى شفاعة إلا لمحمد ﷺ فيما يأذن الله له، كما ورد في حديث الشفاعة[4]، وأولى الناس بشفاعته من أخلص التوحيد لله، متبرئاً من كل طاغوت وشيطان.

---

(١) سورة طه، آية ١٠٩.

(٢) سورة المؤمنون، آية ١٠١.

(٣) يشير بذلك إلى الآيات (٣٤-٣٧) من سورة عبس ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿**يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤيه، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه**﴾ الآيات ١١-١٤ من سورة المعارج.

(٤) انظر حديث الشفاعة الطويل وفيه أن الناس يأتون يوم القيامة إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة فيعتذرون وكل منهم يقول: لست لها... حتى يأتون إلى محمد ﷺ فيقول: **أنا لها، فينطلق فيستأذن على ربه فيؤذن**... الخ والحديث أخرجه البخاري (٣٥٩/١٣) في التوحيد. باب كلام الرب يقال يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم برقم/١٩٣/ في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

وفي هذه الآية أعظم تحذير من المعاصي، لأنها بريد الشرك وأقوى ترغيب في الإسراع بالتوبة. لأنه إذا تصور أن ليس بعد الموت استدراك ولا فداء ولا نصر ولا شفاعة، بادر في التوبة دون تسويف، والله المستعان.

تنجية بني اسرائيل واغراق آل فرعون

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٩).

امتن الله على اليهود المعاصرين لفجر الدعوة المحمدية بنعمة أنعمها على آبائهم. لأن الإنعام على أمة يكون شاملاً لجميع أفرادها مدى الدهر لما له من أثر المفخرة التي يرثها الخلف عن السلف، ولأن صنوف البلاء التي قاساها أسلافهم نتيجة لجرائم جرت من مجموعهم. فيذكرهم الله بما جرى من عقوبة أسلافهم. وبنعمة الله عليهم في إنقاذهم من جحيم فرعون وآل فرعون. ليشكروه شكراً عملياً بإطراح فسادهم. والإيمان الصحيح بمحمد ﷺ وما أنزل إليه، وكان الله سبحانه في الآية السابقة قطع دابر آمالهم وأوهامهم فيما يعتقدونه من التخلص يوم القيامة بشفاعة أنبيائهم ووجاهة أتقيائهم ومناداتهم بغيرهم، فنفى الله جميع ذلك نفياً قاطعاً، موضحاً أنه في ذلك اليوم: ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة البقرة ، آية ٤٨).

ثم عرج على تذكيرهم بهذه النعمة العظيمة وما بعدها من النعم العشر التي لم يحظ بها غيرهم والتي أولها تفريجهم من هذا البلاء العظيم، بلاء

فرعون الذي اقتضت سياسته الخرقاء تقتيل أبنائهم، والاستحياء يعني الامتناع عن نسائهم لأنهم لم يندمجوا مع المصريين وقتاً طويلاً، فقد كان أول دخولهم لمصر مع يوسف الصديق وإخوانه وأهاليهم، فتناسلوا تناسلاً عظيماً حتى بلغوا مئات الألوف، فتبسطوا في البلاد وزاحموا أهلها، وكانوا ذوي مهارة في الكسب والاستغلال مما أحنق المصريين عليهم حتى خططوا للتنكيل بهم وإيقافهم عند حدهم، والعجب أنهم منذ القدم لم يشابهوا غيرهم من الأقليات التي تندمج مع الكثرة، بل هم وبعض المبتدعة من هذه الأمة تجد لهم موقفاً خاصاً عن غيرهم مهما كانت الظروف.

والذي يبدو لنا من واقع الفراعنة أن فتنة اليهود في إفساد الأخلاق لم تنفع معهم، فإما أن يكونوا في ذلك على مستوى عالٍ من الحزم واليقظة وصلاح الأخلاق، وإما أن تكون بنو إسرائيل على صلاح وغيرة نفس من آثار نبوات أجدادهم، ولم يعرفوا المكر في إفساد الأمم إلا بعد حيلة «بلعم بن باعورا» الذي انسلخ من آيات الله، كما ستأتي قصته إن شاء الله.

ولقد تسلطت الفراعنة عليهم بأنواع البطش وقرروا العمل على انقراضهم بتقتيل كل ذكر مولود لهم حتى أنجاهم الله بما فصله في سورة (طه والقصص) حتى ذكر ستة أوصاف مجملة من معاملة فرعون لهم، وست خطط أنجاهم الله بها منهم، والله غالب على أمره.

والحاصل أن آل فرعون جنوا على أنفسهم وعلى جميع البشرية بمعاملتهم الحمقاء الخرقاء لبني إسرائيل، إذ يسومونهم سوء العذاب حتى أذكوا فيهم روح النقمة ومرارة العداوة لغيرهم، إلى أن بلغت غاية الضراوة بالدم الإنساني حتى دماء الأنبياء، ولو وفقوا لعملوا مخططاً آخر لتفتيت عقيدتهم وإزالتها حتى ينصهروا في محيطهم وتحصل سلامتهم وسلامة أهل الأرض جميعاً من شرهم.

وبهذه المناسبة أذكر معنى حكمة الفيلسوف الهندي (أكبر إله آبادي) لا أضبط نصها ولكن معناها: «أن فرعون مصر أخطأ ولم يصب الغرض

حيث سلك ببني إسرائيل مسلك الإرهاب والتنكيل فانتصروا عليه، وسجل التاريخ عليه لعنات ما اقترفه، ولكن لو أنشأ مدارس وجامعات يقلب فيها أفكارهم ويبلور فيها صدورهم ويقتل رومهم[1] قتلاً معنوياً يجعلهم ينحرفون عن هدفهم الأصيل فيعيشون عالة على غيرهم بلا هدف يتفانون في تحصيله، لو عمل هذا لاستراح وأراح غيره منهم وسجل له التاريخ مفخرة خدمة العلم بدلاً من لعنات البطش والإرهاب».

هذا معنى كلامه ومدلول قوله بإيضاح، و(أقول وأنا الأقل الحقير): إن الكفر في السابق كفر بسيط بجميع أنواعه واختلاف زمانه إلى زمن كفر قريش، ولذا نجد كفار قريش ساوموا نبينا محمداً ﷺ مساومة علمية على رسالته، فرفض بكل صراحة قائلاً: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لا أترك هذا الأمر حتى ينفذه الله أو أهلك دونه**»[2].

وتبعه على هذا المنهج الواضح كثير من الرعيل الأول، ولا زال يتبعه كثير من بعدهم، حتى استفحل مكر الكفر الجديد بما خططته الماسونية اليهودية من تعاليمها الجديدة وإغرائها المادي والشهواني، وتفتيتها للعقيدة، وإفسادها للضمائر بغزو فكري نقض العلم والمدنية والحرية والتطور وما إلى ذلك مما جعل المسلم وأولاد المسلم يبيعون دينهم ورسالتهم بدون مساومة عن شعور وعن غير شعور في الغالب، لقوة المكر في ذلك الغزو الفكري الذي أكتوينا الآن بنيران آثاره السيئة.

---

(١) رومهم: مرادهم وأحلامهم.

(٢) هذا الحديث أخرجه ابن اسحاق في المغازي (١/٢٨٤-٢٨٥) سيرة ابن هشام، وليس له سند ثابت. فسنده ضعيف معضل، ولكن للحديث طريقاً أخرى حسنة بلفظ: (ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تشعلوا لي منها شعلة، يعني الشمس رواه ابن عساكر (١٢/ ٣٦٣) واسناده حسن، أنظر السلسلة الصحيحة برقم /٩٢/ والضعيفة برقم /٩٠٩/ لمزيد من المعرفة حول الحديثين.

وكأن بني إسرائيل أخذوا درساً من حماقات الفراعنة، فعملوا على التخطيط الذي وضعه الفيلسوف الهندي، لأنه اقتبس كلامه من واقع أعمالهم بالشعوب. فهم الذين خططوا على أيدي ماسونيتهم ذلك الغزو الفكري المفسد للقلوب والمفتت للعقيدة، والذي يهدم الكيان الصحيح لكل شعب وأمة. ويمسخ شخصياتها ويحورها عن هدفها الأصيل. ويجعل كل شعب يتخبط في ظلمات المبادىء والمذاهب المستوردة الغريبة عنه كل الغرابة. وقد نفذ المستعمر أياً كان نوعه مخططات أولئك بحيث أصبحت كل بلاد تتحرر منه بكل أسلوب لا تعود إلى حمل رسالتها وتحكيم شريعة ربها. بل تظل سائرة على ما رسمته تلك الثقافة الماسونية التي ركزها الاستعمار. فيا له من مسخ معنوي وقتل روحي اهتدى إليه فرعون.

وقوله تعالى: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ المقصود بهم أتباعه السالكون طريقته، لأنه عقيم ليس له نسل. والآل في اللغة والشرع: هم الأتباع. ولهذا كان المتبعون لمحمد ﷺ هم آله. بعكس الكافرين كأبي جهل وأضرابه. قال الشاعر:

آل النبي هموا أتباع سنته ... بين البرية من عجم ومن عرب
لو لم يكن آله إلا قرابته ... صلى المصلي على الطاغي أبي لهب

و «فرعون» اسم لمن ملك مصر قبل البطالسة. وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يبالغون في ظلمكم و ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ صعبه وقبيحه، وقد كان يكلفهم الأعمال الشاقة والقذرة. ويقتل الأولاد الذكور الذين هم أحب حبيب، خصوصاً بعد آلام الحمل وصعوبة الوضع. وهذا إفناء للرجال وهتك لمستقبل النساء. فتخليص الله لهم من فرعون نعمة عظيمة تستحق الشكر العملي الصحيح. لو كان عندهم ذمة ووجدان.

وهذه النعمة وإن كانت ليست للمخاطبين فهي نعمة ومنة عليهم. إذ لولاها ما خلفوا وما حصل تناسلهم. ولأنهم إذا عرفوا هذه النعم دفعتهم إلى الإيمان وترك الجحود. إذ لا توجد نعمة أعظم من معاينتهم هلاك من حاول إهلاكهم وذل من بالغ في إذلالهم. وتعظيم النعمة يوجب الانقياد

والطاعة، ويقضي بنهاية قبح المخالفة والمعاندة، فلهذا السبب ذكرهم الله بهذه النعمة، مبالغة في إلزام الحجة عليهم، وقطعاً لعذرهم أولاً، ولكونهم يعرفون أن ذلّ الحق وعز المبطل لا يدوم ثانياً، بل ينقلب عز المبطل ذلاً وذل الحق عزاً. فكأن الله قال لهم: لا تنخدعوا بفقر رسولي محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه وقلة أنصارهم، فإن أجدادكم صاروا في أتعس حالة عرفها التاريخ، فالذي جعل العاقبة لهم سيجعلها لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام ثالثاً. ورابعاً إن في هذا تنبيهاً على أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

وقوله: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[1] أي محنة شديدة يجب أن لا تغرب عن بالكم، لتعرفوا نعمة الله فتقابلوها شكراً، ثم إن في إخبارهم بذلك على لسان محمد ﷺ، وهو الأمي الذي لا يعرف شيئاً عن ذلك ولا غيره، دليل على صدق نبوته، ففيه إقامة الحجة الدامغة عليهم، كما فيه تحذير لأمة محمد أن يصيبها على كفر النعم بإطراح الرسالة ما يسومها سوء العذاب، وقد حصل لها ذلك من التتار. فمن بعدهم إلى الآن مما لا يمكن أن ينجو منه إلا من عاد لحمل الرسالة ورعاها حق رعايتها.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2].

إن هاتين النعمتين من خوارق العادات، وفيها تنبيه لعظم الهول الذي فصله في غير هذه السورة وأجمله هنا، وهو من أعظم النعم التي لم تحصل لأحد قبلهم ولا بعدهم، ذلك أن الله لما أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً ليغادر بهم محل الظلم والهوان، فسرى بهم تحت رعاية الله. ومن الغد أوعد فرعون وأزبد وحشر قومه من كل بلد حتى تبعهم بانتفاخة غروره قائلاً ما قصه الله عنه في سورة الشعراء: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ

(١) سورة البقرة. آية ٤٩.
(٢) سورة البقرة. آية ٥٠.

﴿...حَٰشِرِينَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[1].

وقد قال مثل هذا المنطق أو يزيد عليه فراعنة القرن العشرين الميلادي في (حزيران ١٩٦٧ م)[2]، تشابهت قلوبهم فحاقت بهم الذلة لإصرارهم على عدم تحكيم الشريعة وطلب غير اعلاء كلمة الله في القتال، إلى أن قال: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

يصور الله لنا ما أجمله هنا من قصة إغراق فرعون وإهلاكه مع قومه عن آخرهم بمعجزة من أعظم المعجزات الخارقة للعادات، وإنهم بعد ما خرجوا للانتقام من موسى وبني إسرائيل وشاهدوهم وقد لحقوا، قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (سورة الشعراء، آية ٦١) فطأنهم موسى لثقته بوعد ربه قائلاً: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الشعراء، آية ٦٢).

وحينئذ أمره الله أن يضرب البحر بعصاه فضربه كما أمره الله، فانفلق حتى صار جانباه كالطود العظيم، فلما استكمل بنو إسرائيل العبور منه بطريق يابس أنجاهم الله فيه من إدراك عدوهم لهم، دخل فيه آل فرعون حتى استكملوا في وسطه، فانطبق عليهم وأغرقهم الله فيه بأجمعهم وموسى

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٥٣-٥٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ٥٧-٦٧.

وقومه ينظرون. فالإغراق بهذه المعجزة نعمة ونظرهم إلى هلاك عدوهم الذي يحاول إهلاكهم ومشاهدتهم من يذلهم قد أذله الله ذلاً أمامهم وأراه من حسرة الهلاك قبل الهلاك الفظيع نعمة أخرى، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٠) تشاهدون عدوكم قد أحاط الله به ونفذ أعظم مما يريد تنفيذه بكم، أوقعه في شراك هلكة لا يمكنه التخلص منها أبداً. فذاق الخزي الذي لا يريد أن ترونه به لو قدر على الخلاص منه بكل وسيلة.

فرؤية أجدادكم للخزي العظيم الذي حاق بعدوهم نعمة كبرى يعتز بها كل إسرائيلي إلى يوم القيامة اعتزازاً يجعله يشكر هذه النعمة بوفاء عهد الله من الإيمان بمحمد ﷺ لأن إهلاك الله لعدوكم وأنتم تنظرون فيه نعمة أخرى يحصل بها الاطمئنان الكامل على زواله، والسرور العظيم الذي ليس له مثيل. والذي يجب شكره إلى يوم الدين. ولكنها النفس اليهودية التي سيقص الله علينا من دفائن خبثها ما يوجب الابتعاد عن جميع هزاتها وخططها الملعونة وأن لا نلتقي معها في أي ميدان من ميادين الحياة.

وقد زعم بعض المنكرين للمعجزات وبعض المتأثرين بهم إلى أنهم عبروا البحر في وقت الجزر وأنهم تمكنوا من العبور أثناءه ولم يتمكن عدوهم كما تمكنوا. بل أدركه المد فأغرقه؛ وهذا القول باطل من وجوه عقلية ونقلية.

أما العقلية:

(فأولاً): أنه لا يكون الجزر من جميع الجوانب، بل من جانب واحد.

(ثانياً): لو حصل الجزر في بعض البحار من الجانبين فإن تأثيره في الضحضاح الذي يكون على السواحل بحيث لا يتجاوز في بعضها ميلاً واحداً. وأما وسط البحر فهو عميق بطبيعة الحال.

(ثالثاً): لو فرضنا أن بقعة ما في وسط البحر ضحضاح[١] يؤثر فيها

---

(١) ضحضاح: قليل الماء ويسيره.

الجزر فإن مدة الجزر ليست كافية لعبور مئات الألوف مشياً على الأقدام أو على الدواب. فضلاً عن عبور غيرهم وراءهم بعد استكمالهم خارجين. هذا شيء مخالف للواقع المعروف.

(رابعاً): أنه لو كان عبورهم ونجاتهم بسبب الجزر وكان هلاك عدوهم بسبب المد. لما كان فيها معجزة تقطع الدعاوى، بل يجوز لبني إسرائيل أمة البهت والجحود أن يقولوا: لقد مهر آباؤنا بفضل معرفتهم وحنكتهم في انتهاز وقت الجزر والإسراع قبل طغيان المد ونحو ذلك مما يقوله المتبجحون المعجبون بمهارتهم والزاعمون التفوق بعلمهم، فإن اليهود أطيش من غيرهم في ذلك. ومع هذا لم يزعموا ما قاله أولئك لأنها معجزة خارقة شوهدت في وقتها بالعيان.

(خامساً): نطالبهم أن يدلونا على موقع من البحر عرضه دقيق يمكن عبوره في وقت الجزر، ومن المحال لأن البحر من الشرق إلى الغرب عرضه بعيد خصوصاً بحر القلزم فإن عرضه لا تيسّره إلا وسائط النقل الحديثة.

وأما الأدلة النقلية فمن وحي الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[1] فإنه قال ما ذكرناه في سورة الشعراء: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ ﴾[2].

وهذا نص صريح في كونها معجزة لموسى ونعمة على بني إسرائيل فهي معجزة من جملة معجزات الأنبياء التي يظهرها الله على أيديهم إرشاداً للناس إلاّ أن السنن الكونية لا تحكم على واضعها ومدبرها. ولا تتعسر عليه جرياً على ما وضعها له. بل هو سبحانه الحاكم المتصرف فيها كما يريد، وأنها خاضعة لسلطانه، مدبرة بأمره، تجري على ما يريد، لا كما هي تريد، وأن ما يعمله من المعجزة الخارقة للعادة هي سنة أخرى في

---

(١) سورة النساء، آية ١٢٢.

(٢) سورة البقرة، آية ٦٣.

ملكه من الأكوان العلوية والسفلية، يخلقها متى يشاء على يد من يختاره من عباده، إظهاراً لحجته على خلقه، وانتصاراً لمن يشاء من عباده وأوليائه على أعدائه الذين اقتضت حكمته تنكيلهم.

والعجب من عالم مفسر في هذا العصر ينجرف لقولهم وهو مؤمن بالمعجزات ويؤول قوله تعالى: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٠) إنه المقصود حال الجزر قائلاً إنه لم يقل (فرقنا لكم) ثم يزعم أن قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ﴾ (سورة الشعراء، آية ٦٣) أنه للمبالغة، يا سبحان الله وهل يكون في الجزر شيء مما وصفه الله بأنه كالطود العظيم؟ ويذهب في تأويله إلى أنهم لاستعجالهم جعلوا الماء فرقين عظيمين ممتدين كالطود... فهل الطود يكون ممتداً كالحبل أو يكون شامخاً مرتفعاً كالجبل؟ ثم ما الذي ألجأه إلى هذا التصرف السيىء بنص القرآن ما دام يعترف بالمعجزات، إذ يقول: «ومثل هذا التأويل ليس بضائر إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات؟».

(أقول): أولاً - ما الحامل على المثبت للمعجزات أن يجني على النص القاطع بالتأويل سوى الإرضاء والتوافق مع من لا يؤمن بها من الملاحدة وأفراخ الإفرنج على حساب القرآن؟ وقد لا يشعر بذلك.

وثانياً - إن التأويل بعد البيان تحريف وتزييف لا يستساغ على الأقل، إذ المستساغ تأويل المجمل والمتشابه، خصوصاً وهذه الحادثة ثابتة بشواهد الأحوال التي حصل الإجماع على حصولها بسببها، وقد قال ابن القيم في الكافية الشافية:

فسياقة الألفاظ مثل شواهد الأ ... حوال أنها لنـــــــا صنوان
إحـــداهما بـــالعين مشهود بهـــا ... لكنّ ذاك بسمـــــع الإنسان
فإذا أتى التأويل بعد سياقه ... يبدي المراد أتى على استهجان
وإذا أتى الكتمان بعد شواهد الأ ... حوال كـــان كـــأقبـــح الكـــتمان

وإذا كان قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة الشعراء، آية ٦٣) وهو الدليل النقلي الثاني الذي لا يقبل تأويل المتهوكين[١] وأنهم مشوا في فلق البحر، وحافتاه عن أيمانهم وشمائلهم كالطود العظيم من الجبال، جبال ماء قد حبسها الله بقدرته، فالدليل الثالث قوله تعالى: ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾[٢] فهذا نص واضح على المعجزة الخارقة التي جعلتهم يمشون في مضرب عصا موسى بطريق يابس يمشون فيه مطمئنين لا يخافون أن يدركهم عدوهم ولا يخشون مما يمشون عليه حيث إنه طريق يابس بقدرة من أمره بين الكاف والنون، فالنصوص القرآنية تأبى جميع التأويلات لوضوحها والذي يمشي في الجزر يخالجه الخوف من اختلاف الأرض في الانخفاض الذي يكثر فيه الماء والارتفاع الذي يقل فيه.

وفي هذه الآية من تركيز التوحيد في قلب الإنسان شيء عظيم يجعل المسلم يستمطر مدد الله في كل أزمة بعدما يحقق الصدق والإخلاص له، وبالله التوفيق.

إن العليم الحكيم أجرى خوارق العادات ليس ليدلل على وجوده وعظيم قدرته فقط، ولا لتصديق أنبيائه فقط، وإنما هو فوق ذلك لتقوية معنوية عباده تقوية روحية جبارة يعظم فيها توكلهم واعتمادهم عليه وثقتهم بنصره، مستيقنين أنه سبحانه يجعل الحزن سهلاً والمستحيل واقعاً، وأنه لن يعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض، وأنه يخلق أعظم شيء من لا شيء، وأنه يخلق بلا سبب، وأن الأكوان العلوية والسفلية لا يتعسر عليه منها شيء أو يتحكم في قدرته منها شيء، بل هو الذي يجريها على خلاف سيرها وسننها العادية، ويتحكم فيها على ما يريده من نصرة أوليائه المخلصين له،

---

(١) المتهوكون: المتحيرون، أي اليهود والنصارى ومن شاكلهم.

(٢) سورة طه، آية ٧٧.

الصادقين معه، فيفلق البحر شطرين، يشق بينهما طريقاً يابساً، كأن الماء لم يمر عليه أبداً، كما فعل ذلك لموسى وقومه، ويشق القمر نصفين[1]، إرغاماً لقريش وتصديقاً لمحمد ﷺ. ويوقف سير الشمس ليوشع بن نون خليفة موسى، ويجمد نهر دجلة لجيش سعد بن أبي وقاص فيعبرونه لم تبتل أقدامهم، ويذلّل البحر لخيل أبي العلاء بن الحضرمي، ويسيل الماء لهم في رمال الدهناء لما عطشوا، ويهزم الكفار يوم بدر بقبضة تراب يلقيها عليهم الرسول ﷺ قائلاً: «**شاهت الوجوه**»، ويقول سبحانه له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].

وهو الذي يمد عباده المؤمنين بالملائكة وبالريح والرعب وغير ذلك مما يدحض أعداءهم، فالإيمان بالمعجزات ينفع المؤمنين، والكفر بها يدحض الكافرين، إذ يأتيهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ولقوة إيمان عباده سبحانه بمدده زلزلوا الحصون بالتكبير الصادق، وأي معجزة أعظم من تقطيع أفئدة الكافرين وزلزلة حصونهم بالتكبير الصحيح، ذلك التكبير الصادر من أدمغة لا تعرف اللهو واللغو، بل بقوة إيمانهم حاربوا أعظم دول العالم في وقتهم - فارس والروم - دون أن يستعينوا بدولة على حساب دولة، أو يتملقوا دولة ويهادنوها، ليتفرغوا للدولة الأخرى، بل حاربوهم في وقت واحد، حاصرين استعانتهم بالله الذي ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، واستمروا هم وأولادهم في الزحف المقدس حتى فتح الله عليهم أكثر المعمورة وطبقت لغتهم ما بين الخافقين.

أما الملاحدة الذين لا يؤمنون بالمعجزات على اختلاف طرائقهم فحياتهم على خطر كلما جدد الله الزحف المقدس على أيدي من شاء من عباده، والله غالب على أمره.

---

(١) معجزة انشقاق القمر رواها البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم إنشقاق القمر) البخاري (٨/٤٧٤) في تفسير سورة اقتربت الساعة. ومسلم برقم/٢٨٠٢/.

ثم إن هذه المعجزة من فلق البحر الذي نجى الله فيها موسى وقومه وأهلك آل فرعون، نعم عظيمة في الدنيا والدين.

أما نعم الدنيا في حق موسى وقومه فإنهم بعدما وقعوا في أحرج المضائق حيث كان عدوهم وراءهم يشاهدونه بالعيان، والبحر أمامهم قد سد عليهم كل طريق ومخرج، وأصبح هلاكهم عند عدوهم وعندهم مستيقناً، فمن لم يهلكه عدوه أهلكه البحر الذي يفر إليه شر هلكة، فلا خوف أعظم من خوفهم، بل ولا يأس أعظم من يأسهم، فلطف الله بهم في أحرج الشدائد، ونجاهم مما يخافون، وأبدل خوفهم أمناً، وحزنهم وكربتهم فرحاً وسروراً.

ومن جهة ثانية: طأنهم وأكمل أمنهم بإهلاك عدوهم وهم ينظرونه مشاهدة العين، إذ لو أخبروا بهلاكه ما صدقوا ولعب عليهم الشيطان بتخويفه. فأكمل الله عليهم نعمته بإشهادهم لهلاكه حتى لا يبقى فيهم شيء من الخوف أبداً. فيستيقنوا الخلاص من ورطته إذن باغراق الله لآل فرعون وهؤلاء ينظرون. إلى أن انحسمت مادة الخوف بتاتاً، وهذه أعظم نعمة.

ثم من جهة ثالثة: إن الله أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وكنوزهم ونعمتهم التي كانوا فيها فاكهين، كما قال تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[1].

وهذا من تمام النعمة وظهور الكرامة لو أنهم يقدرون الله حق قدره، ولكن الله سيقص علينا العجائب الغرائب من خبث سريرتهم وسوء طباعهم وقبح جهلهم.

وأما نعم الدين فإنهم لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة المنقطعة النظير زالت عنهم الشكوك وتذكروا جواب موسى لهم. إذ قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن

---

(١) سورة القصص، آية ٥.

﴿قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وزالت عنهم كل شبهة واستيقنوا بوجود الخلاق العظيم الذي هذه آثار بعض قدرته، وعرفوا صدق موسى بعلم ضروري لا يحتاج إلى نظر واستنباط.

ومنها أنهم لما عاينوا ذلك صار داعياً لهم إلى الثبات على تصديق موسى والانقياد له، كما صار داعياً لمن بقي من قوم فرعون إلى تكذيبه والكفر به والإيمان بموسى.

ومنها أنهم عرفوا أن الأمور بيد الله، حيث لا يوجد عز ولا تسلط أعظم مما عند فرعون، ولا ذلة ولا هوان أعظم مما أصاب بني إسرائيل. فقلب الله حالة فرعون إلى أشنع ذلة وهلاك، وحالة بني إسرائيل إلى عز وسعادة، وهذا يوجب انقطاع قلب المؤمن عن بهرج الحياة الدنيا وتعلقه بالله.

وأما النعم الحاصلة لأمة محمد ﷺ من هذه الحادثة فكثيرة، منها أنها كالحجة لمحمد ﷺ على أهل الكتاب لإخباره إياهم بها دون أن يكون له بها أدنى علم لولا وحي الله إليه، لأنه أمي لا يعرف الكتب ولأنه لم يخالط أهل الكتاب أبداً، فإخباره إياهم بها دليل على صدقه.

ومنها أننا إذا رأينا قدرة الله العظيمة في إهلاك هذا الطاغوت ذي القوة والبطش هلاكاً تصحبه الذلة والحسرة أخلصنا الضراعة إلى الله فيما يمسنا من نوائب الدهر وما تبرزه الماسونية اليهودية من أنواع الطواغيت، فنحسن علاقتنا بالله، ونضرع إليه ضراعة صادقة ينجينا بها من شر كل ملحد وطاغوت في مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٢٩.

ومنها أننا نحذر من مخالفة أوامر الله والاعتداء على حدوده حتى لا نكون محرومين من رحمته ونصره، بل نعاكس بني إسرائيل في معاملتهم لموسى ولا نؤذي محمداً ﷺ كما آذوا نبيهم، ونحقق الإيمان به باتباع طريقته وحصر التلقي عنه في ميادين الثقافة والتربية دون ما سواه ونقتدي به اقتداء صحيحاً كاملاً، خصوصاً في حمل رسالة الله وتوزيع هدايته، لنحيا حياة طيبة لا نضل فيها ولا نشقى ولا تحيق بنا اللعنة التي حلت ببني إسرائيل لما تمردوا على أنبيائهم فضربت عليها ذلة لا ينجون منها إلا بحبل من الله إن رجعوا إلى طاعته أو حبل من الناس بحيث يمدهم غيرهم حسب مصالحه معهم كما هو الآن حاصل فيهم وفيمن سلك مسالكهم بالشرود عن دين الله، لا يسلم من شرهم إلا بحبل آخر من ناس آخرين.

ثم إنه يعلم من سرد الآيات المقبلة فضيلة أصحاب محمد ﷺ على أصحاب موسى لصدق انقياد أصحاب محمد ﷺ وطاعتهم له بدون معجزات[1]، وكثرة تمرد أصحاب موسى مع تلك المعجزات، والنعم العظيمة والله يؤتي فضله من يشاء.

---

(١) لا يقصد المؤلف رحمه الله أنه لم يحصل لنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام معجزات البتة، وإنما أراد أن إيمان أصحابه رضوان الله عليهم لم يكن الحامل لهم على الإيمان به هو المعجزات» وإلا فلنبينا عليه الصلاة والسلام كثير من المعجزات وخوارق العادات، انظر إن شئت كتابي (صحيح معجزات النبي ﷺ) المحقق.

اتخاذهم العجل وتبديلهم القول

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(سورة البقرة، الآيتان ٥١-٥٢).

هذه النعمة الثالثة على بني إسرائيل، وهي إكرامهم وإكرام نبيهم بهذا الموعد الشريف لمناجاة ربه وتكليمه بالوحي بلا واسطة، بل قربه الله نجياً من وراء حجاب، وذلك أن موسى وعدهم بعد الخروج من مصر بكتاب من الله أو أنهم طلبوا منه ذلك بعد عبور البحر، فضرب الله لموسى موعداً أربعين ليلة «قيل إنها شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة».

فلما ذهب موسى لميقات ربه لعب عليهم دجال من شياطين الإنس الذين هم جنود إبليس، وفتنتهم أفظع من فتنته، فزعم أن موسى يستعمل طلاسم استطاع بواسطتها إخراجكم وعبوركم البحر، وأنه ظفر بشيء منها يستطيع أن يصنع لهم منها هيكل آلهتهم وإله موسى.

وهذا هو السامري الذي ذكره الله في سورة طه[1]، وأنه قبض قبضة

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنفذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾ (سورة طه، الآيتان ٩٥ - ٩٦.

من أثر فرس جبريل في البحر لما جاء يطمئن موسى أو يباشر إهلاك فرعون على بعض الأقوال. وكان عندهم حلي كثير مستعار من الأقباط فأمرهم هارون بإحراقه. واستعمل السامري تلك الفرصة فأخرج لهم منه عجلاً جسداً له خوار من التراب الذي أخذ من حافر فرس جبريل، أو أنه ركزه على القطب الشمالي. فأخذ الهواء يدخل من دبره ويخرج من فيه. فيسمع له صوت يشبه الخوار.

وكل هذا فتنة من الله يختبر بها ثبات إيمانهم وصدقهم في شكره، ولكنهم رسبوا في هذا الامتحان. لأنهم لا يرجون لله وقاراً. لا يعظمونه ولا يعاملونه معاملة من يوقرونه، لأن الذي يوقره لا يعدل به شيئاً من خلقه. وهؤلاء عدلوا به عجلاً صنعه دجال فلم يبق لله مكانة في قلوبهم، ولهذا كان تكفيرهم لهذا الشرك تكفيراً قاسياً جداًوهو قتل نفوسهم. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٥١).

الظلم في اللغة: النقص والانتقاص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[١] أي لم تنقص منه شيئاً. وكل من نقص من حق أحد كان ظالماً، وإذا أطلق الظلم في القرآن كان معناه الشرك، لأن المشرك ينتقص لله بنقصه أي حق من حقوق الله، وصرفه إلى غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة الكهف، آية ٣٣.
(٢) سورة لقمان، آية ١٣.
(٣) سورة الأنعام، آية ٨٢.

وفسر النبي ﷺ هذا الظلم بالشرك، وذلك في أحاديث صحيحة، مستشهداً بالآية التي ذكرنا قبلها من سورة لقمان.

فبنو إسرائيل انتقصوا الله انتقاصاً لا مثيل له بعبادتهم العجل خصوصاً بعد ما شاهدوا معجزات باهرات تدل على أُلوهية الله وتبطل ألوهية ما سواه بحيث لا يجوز حصول شبهة في قلب أي عاقل بعد وقوع تلك المعجزات القاهرة. فقد ظلموا باتخاذهم العجل ظلماً عظيماً، وحيث إن ضرر الكفر والشرك ونحوهما لا يضر الله، لأنه نزه عن الاستكمال بطاعة الطائعين. وعن الانتقاص بمعصية العاصين وكفر الكافرين، فإن ظلم أولئك يعود عليهم بالضرر. ولهذا قال الله لهم: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٥١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٢) وذلك بعد التطهير العظيم الخطير البليغ في القسوة والبطش، وذلك أن الله رتب عفوه على توبتهم من هذا الشرك الفظيع، وإن صدق توبتهم لا يكون إلا بقتلهم أنفسهم، يعني أن المطيع الذي لم يعبد العجل يقتل المشرك الذي عبد العجل. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وذلك تطهير للمشركين وغيرهم من العصاة المشركين، لأن الذي لم يعبد العجل لم ينكر على من عبده، فصارت عاقبة ترك الإنكار بالكلام والمقاطعة إعمال السيف فيما بينهم، ولذا قال لهم موسى مخاطبهم جميعاً:

---

(١) سورة البقرة، آية ٥٤.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[1] توبوا إلى الله الذي هو خالقكم وبارئكم من العدم، إذ لا يستحق العبادة سواه ولا الرجوع إلا إليه.

ومن تأمل حقيقة التوبة وغايتها لا يستنكر ما رتبه عليها من ذلك التكليف الشاق. خصوصاً للنفوس الحوارة المنهارة سريعة التنكر والإيغال في المنكر، ذلك أن محو أثر الذنب من خلايا القلب لا يحصل إلا بالتوبة النصوح والباعث على التوبة النصوح هو شعور التائب بعظمة من عصاه وقوة سلطانه واستيفائه بأن مصيره إليه في الآخرة، وإنه لا منزلة من عقوباته المتنوعة في الدنيا عاجلاً.

فلا جرم أن هذا الشعور يبعث في القلب الهيبة والخشية، ويحدث في روحه انفعالاً مما حصل وندماً على حصوله، وتذكراً لعقوبات الله العاجلة والآجلة. فهذه آثار تزعج التائب وتدفعه إلى القيام بأعمال مضادة لما أذنب وماحية له.

ومن هنا لما رجع موسى من الميقات ورآهم على هذه الحال، وطاش غضبه عليهم وعلى أخيه هارون، وألقى الألواح وأخذ برأس هارون يجره إليه. وحصل بينه وبينهم وبينه وبين أخيه ما قصه الله مجملاً في سورة (طه والأعراف) فأسقط في نفوس الإسرائيليين هذا الصنيع ورأوا حقيقة ضلالهم وساورهم الخوف والقلق، أخبرهم موسى بالطريقة التي يحصلها فيها قبول توبتهم من هذا الإشراك الفظيع الذي وقعوا به، وليس من طبيعتهم تقديس البقر ولا عبادتها، وإنما من طبيعة قدماء المصريين الوثنيين، ولهذا أحرقه موسى إحراقاً وذراه في البحر تربية لهم، ليعلموا أنه لا يدفع الضرر عن نفسه ولا يجلب لها نفعاً، فكيف يدفع الضرر عن غيره أو يجلب له نفعاً.

---

(١) سورة البقرة، آية ٥٤.

وطريقة توبتهم هو أن يقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو والد على ولده، ولا قريب على قريبه، وهذا من جملة الآصار التي حملها الله إياه ورفعها عن أمة محمد ﷺ عفواً منه وفضلاً، فإنه علم المحمديين[1] دعاء أو نادى بقبوله ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[2].

قال ابن عباس: إنهم قالوا لموسى: كيف يقتل الآباء الأبناء والإخوة الإخوة. فأنزل الله عليهم ظلمة لا يرى فيها بعضهم بعضاً، فقالوا: من آية توبتنا أن يقوم السلاح فلا يقتل وترفع الظلمة، فاقتتلوا حتى خاضوا في الدماء وصاح الصبيان: يا موسى العفو العفو فاستغفر موسى، فنزلت التوبة، وقام السلاح وارتفعت الظلمة.

قال مجاهد: بلغت القتلى سبعين ألفاً. قال قتادة: جعل القتل للقتيل شهادة وللحي توبة - وهذه العقوبة مناسبة لواقعهم من جهة ضخامة خطيئتهم وقبح شركهم برب أنجاهم ممن يسومهم سوء العذاب، وأقر عينهم برؤيتهم هلاكه، ثم تكون عاقبتهم معه أن يعبدوا عجلاً، زاعمين ألوهيته عليهم وعلى موسى، ثم ترك الأمر بالمعروف ممن لم يعبده، فترك الأمر بالمعروف استهانة شنيعة بجناب الله.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٤) التواب: هو دائم التوبة بخلاف المخلوق فإنه تاب عن المذنب مرة أو مرتين لا يواصل توبته عليه مراراً عديدة، أما الله سبحانه فإنه التواب للمنيب من عباده مهما تكرر ذنبه إذا عاود التوبة ولم يصر، لأنه الرحيم بالمؤمنين الذين لا يصرون على ذنوبهم.

---

(١) يقصد بذلك اتباع سيدنا محمد ﷺ أياً كانوا، ولا يصح أن نطلق على الرسالة الإسلامية بأنها محمدية، كالإبراهيمية والموسوية والبوذية، وغيرها، كما لا يصلح للمسلم أن يقول: أنا محمدي (هو الذي سماكم المسلمين).

(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٦.

ثم انظروا معشر المسلمين إلى دفائن أنفس اليهود الخبيثة. هل استمروا على هذ التوبة إلا بالثمن الغالي الفظيع القاسي الشنيع؟ ستريكم الآية (٥٥) سوء طباعكم وخبث سريرتهم. وقانا الله من ذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة. آية ٥٣).

تكرر في الآيات التي فيها تذكير بالنعم حرف (إذ) وهي اسم للوقت الماضي. كما أن (إذا) اسم للمستقبل. و(الكتاب) يُقصد بها التوراة. كما قال في سورة المائدة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾[١].

وأما (الفرقان) المذكور في هذه الآية فهو ما أمد الله به موسى من المعجزات التي فيها فرقان بين الحق والباطل. وقد غلط في الإعراب والمعنى من زعم أنه الفرقان المنزل على محمد ﷺ. لأنه من شروط العطف أن يكون المعطوف على الشيء مثله. وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه. هذا في اللغة من جهة الإعراب.

وأما المعنى فليس لمحمد ﷺ ذكر في السياق أولاً، ثم إن الله قال في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

فإما أن يكون الفرقان في كلا الآيتين هو المعجزات الفارقة.

وإما أن يكون المقصود به صفة للكتاب الذي هو التوراة وتأكيداً له. ولكن ظاهر السياق هنا وفي سورة الأنبياء أن الفرقان هو المعجزات

---

(١) سورة المائدة. آية ٤٤.
(٢) سورة الأنبياء. آية ٤٨.

الخارقة المؤيدة لموسى من الله. والعصا التي تنقلب ثعباناً وتلقف ما يأفكون. ومن انفلاق البحر ومن الحجر التي إذا ضربها بعصاه انفجرت اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل. فهذه المعجزات جعلها الله فرقاناً لموسى بين الحق والباطل.

وأما الكتاب في هذه الآية فهو التوراة وعبر عنه في سورة الأنبياء بأوصافه دون اسمه قائلاً: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي سورة المائدة قال عنها ما ذكرناه. فهذا ظاهر سياق القرآن.

وأما قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة. آية ٥٣) تقدم الكلام على معنى (لعل) وأنها لا تستعمل إلا فيما يرجى أسبابه. والأسباب هنا هي الهداية العامة. وقد وصفها في سورة المائدة بأن فيها ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾ (سورة المائدة. آية ٤٤) وقد أشبعنا الكلام في أوائل سورة البقرة على المحل القابل للهداية وهو القلب المنحشي بالإيمان بالغيب. وقد قال سبحانه عنها في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[1]

يعني خائفون لأن الإنسان لا يدري في أي لحظة يموت فتقوم ساعته الدنيا القريبة ولا يدري أيضاً عن قيام الساعة الكبرى التي لا تأتينا إلا بغتة. فالمحل القابل للهداية هو الذي يصحب إيمانه بالغيب خوفاً ووجلاً من قيام إحدى الساعتين. وقد ذكرت طرفاً من ذكر المحل القابل والسبب والشرط وعدم المانع في أواخر بحث المنافقين في هذه السورة أيضاً وأن المؤثر المقتضي هو وحي الله. والمحل القابل هو القلب الحي بالإيمان بالغيب والإشفاق من إحدى الساعتين وشهود القلب الذي يحصل به التأثر. وهذا

---

(١) سورة الفرقان. آية ٤٨.

هو الشرط وانتفاء الموانع في حصول التأثير وهي اشتغال القلب عن الله إلى غيره بأي شيء من المؤثرات المادية والشهوانية وأغراض النفس الأنانية، ووحي الله زاخر بما يعالج هذه الأمراض المانعة من الهداية.

والحاصل أن إنزال التوراة على موسى عليه السلام هي النعمة الرابعة على بني إسرائيل، لأن فيها أكبر نعمة من نعم الله، وهي الهداية التي من حصل عليها فقد نال السعادتين في الدنيا والآخرة، ومن حرمها بعدما جاءته تعرض للشقاوتين في الدنيا والآخرة. وكل من سلك مسالك الهداية من بني إسرائيل أو من أمة محمد ﷺ فالله يعينه على تحصيلها، أما من هرب منها وسد أذنيه منها وأشغلها بلهو الحديث المتنوع فلا يلومن إلا نفسه.

والنعمة الخامسة على بني إسرائيل هي نعمة العفو الأول عن شركهم بالله وعبادة بعضهم العجل وسكوت بعضهم الآخر عن الإنكار والواجب الرادع بحيث عمتهم العقوبة التي تقضي إفناءهم بأيديهم لولا عفو الله عنهم وتوبته عليهم. كما جاء في الآية الرابعة والخمسين التي قدمت تفسيرها على هذه الآية لقوة علاقتها بسابقتها التي هي الآية الثانية والخمسين.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٣) دليل من جملة الدلائل القرآنية على أنه يريد من الهداية جميع بني الإنسان إرادة شرعية وهي إرادة الأمر التي يعاقب على تركها كل من تركها خلافاً لكثير من المبتدعة الذين قولهم مضاد لمقصود الله من إرسال الرسل وإنزال الكتب، بل قولهم يتضمن الدفاع عن إبليس وعن جميع أعداء الأنبياء والمرسلين، والدفاع عن الرافضين لوحي الله. كما أوضحت هذا في القصيدة القدرية ولكن ما في التوراة من الهدى والنور لم يقنع بني إسرائيل ولم يلن قسوة قلوبهم لما عندهم من الغرور والزعنفة[1]. فهذه الآية (٥٥) يعلمنا الله

---

(١) (الزعنفة) هي: رديء الشيء ورذاله.

فيها عن سوء تمردهم وقبح زعنفتهم ويذكرهم أنفسهم بذلك قائلاً:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٤)، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (سورة البقرة ،آية ٥٥)، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٦).

وتذكير الله لهم بذلك فيه عدة فوائد:

(أحدها) تشبيههم أعني اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ في جحودهم معجزاته بأسلافهم في جحودهم نبوة موسى مع مشاهدتهم عظائم المعجزات الباهرة بحيث رفضوا الإيمان به حتى يروا الله جهرة.

و **(ثانيها)** أنه لا يظهر على محمد ﷺ مثل تلك المعجزات لعلمه بأنه لو أظهرها لجحدوها فاستحقوا من العذاب مثل ما حل بأسلافهم.

و **(ثالثها)** تحذير الله لمن كان في زمن محمد ﷺ عن سلوك مسلك هؤلاء مع موسى، لئلا تأخذهم مثل هذه الصاعقة المهلكة.

و **(رابعها)** فيه تسلية للنبي ﷺ عما كان يلاقيه منهم، وسيأتي توكيد مثل هذه التسلية في الآية(١٥٣)من سورة النساء: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾. ففي ذلك تثبيت من الله لقلب نبيه محمد ﷺ على الصبر كما صبر أخوه موسى من قبله.

و **(خامسها)** تذكير الله لهم بالإنعام السادس حيث أحياهم بعدما أهلكتهم الصاعقة وهم ينظرون بسبب تمردهم. وقولهم لن نؤمن لك وننقاد

حتى نرى الله عياناً ويكلمنا مثل ما كلمك، فليس لك ميزة علينا، ونحن قد أكرمنا الله بسبب ابراهيم وإسحق ويعقوب لا بسببك أنت.

و (**سادسها**) أن في إخبار محمد ﷺ لهم عن مخالفتهم لموسى وتحكمهم به دليل مفحم على صدقه ونبوته لأنه أمي.

وهذا التمرد منهم جرى بعد توبتهم من عبادتهم العجل وتقتيلهم لأنفسهم، فأمرهم عجيب لا تؤثر في نفوسهم الخبيثة توبة مشروط قبولها بتقتيل أنفسهم، بل إنهم بعد هذا ازداد تمردهم حتى قالوا ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ**﴾ لن نعترف بنبوتك ﴿**حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً**﴾ (سورة البقرة، آية ٥٥) عياناً لا لبس فيه. وهو الذي قال هذا مجموعهم أو سوادهم الأعظم أو قال نخبتهم.

قال السدي ما معناه: إن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً يذهب بهم إلى الطور للاعتذار مما حصل وأنهم لما أتوا الطور قالوا هذه الكلمة البشعة فأماتهم الله بالصاعقة، فقام موسى يبكي ويناشد ربه في قومه يقول بماذا أرجع لبني اسرائيل فإني أمرتهم بالاقتتال ثم اخترت من بقيتهم هؤلاء فكيف أرجع بدونهم؟ ومن يصدقني أنهم ماتوا؟ فلم يزل يتودد إلى الله بقوله: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ حتى أحياهم ونظر كل واحد منهم إلى الآخر.

(**أقول**): لعل هذه واقعة مستقلة كما ذكرها الله في الآية (١٥٦) من سورة الأعراف أراد الله تأديبهم إكراماً لموسى وتربية لنفوسهم، وليسوا هم المقصودين بالآية السابقة لأنها ليس لها صلة بمسألة عبادة العجل وهي معروفة عند اليهود ومنصوص عليها في كتابهم بأن طائفة منهم قالوا لماذا اختص موسى وهرون بكلام الله من دوننا، فانتشر هذا القول في الجميع فتجرأ طوائف منهم بعد موت هرون وهاجوا على موسى حتى قالوا ما قالوا فيهلكهم الله بالصاعقة وهم ينظرون ثم يتوب عليهم ويحييهم بعد موتهم لعلهم يشكرونه شكراً عملياً ولكنها النفس الإسرائيلية التي لا تتغير.

فالطبيعة السيئة لا يجدي فيها التأديب ولا التربية الحسنة، طبيعة

تعقدت في نفوسهم من آثار الإرهاب والبطش الفرعوني القالب سجايا الأحرار إلى سجايا العبيد، والذنب الأصيل ذنب فرعون عليهم وعلى جميع الناس الذين ابتلوا بشرهم.

وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

هذا هو الإنعام السابع والثامن على بني إسرائيل، ذكره الله هنا وفي سورة الأعراف. فالإنعام السابع نعمة الإظلال بالغمام، وذلك في أرض التيه سخر الله لهم السحاب يظلهم من الشمس حتى لا تلفح وجوههم وتؤلم أبدانهم. بل أكرمهم الله بهذا الظل الظليل الذي ذكرهم به للامتنان. وتعظم هذه المنة لأنها جاءتهم وهم متلبسون بمعصية الله في عدم دخول الأرض المقدسة وتحريمها عليهم أربعين سنة كتب الله عليهم أن يتيهوا في الأرض، ومع هذا لطف بهم فظلمهم بالغمام حتى لا ينالهم شيء من حر الظاهر أو حر الباطن، فألطاف الله بهذه الأمة ألطاف عظيمة باهرة. ومقابلتهم لها مقابلة كافرة.

أما النعمة الثامنة فهي إنزال المن والسلوى ليتنعموا بأكلها ويتفكهوا بلذائذها. و (المن) مادة فيها بعض الحلاوة واللزوجة القليلة تنزل كالندى أو كخفيف الجليد حتى تكون إذا تكاثفت تشبه الإسفنج الأبيض إذا كانت واقعة على مدد أو حجارة، أما إذا وقعت على أشجار أو ورود فإنها تتأثر بلون ما وقعت عليه منها. وبعضهم فسر المن بالترنجبين، وبعضهم جعله من صنوف المن، وللناس في استعماله الآن طرق عديدة، ولكن الله جعله في أصله لذيذ المأكل قليل الحلاوة حتى لا يمله الآكل، فتبارك الله أرحم الراحمين.

---

(١) سورة البقرة، آية ٥٧.

وأما السلوى فطائر معروف يسمى (السماني). فالتعبير بالإنزال لكل منها على حقيقته. وهذه النعمة زيادة على ما عندهم من لحوم المواشي.

وقد أباح الله لهم ما أنزله قائلاً: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٧) فقد أبحت لكم التنعم زيادة على ما وقيتكم من جحيم الشمس الهاجرة[1]، ولطفت لكم الجو فجعلته رخياً ندياً من السحاب. صحة لأجسامكم ونعيماً لبالكم، ومع هذا فالله يسجل خطيئة قابلوا بها هاتين النعمتين العظيمتين دون أن يفصلها، فيجوز أنها قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾[2] كما سيأتي، ويجوز أنها غيرها مما لا نتكلفه، بل نكتفي بقول الله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

وقد كرر الله هذا التعبير في بني إسرائيل وفي غيرهم من أنواع الكفر والفسق ليقرر قاعدة هامة في سنة الله الشرعية وهي أن جميع ما يطلبه الله من العبد فعلاً أو تركاً إيجاداً أو إعداماً فهو لمصلحة نفسه من جلب الخير والمنافع بامتثال الأوامر ودفع الأضرار والشرور باجتناب المنهيات، وأن الله لا تنفعه طاعة الطائعين جميعاً، ولا تضره معصية العاصين جميعاً مهما كثروا، وإنما يجلب العصاة الضرر على أنفسهم، فهم قد ظلموا أنفسهم ونقصوها حقوقها التي ترتفع بها وتزكو، ولم ينقصوا من الله شيئاً، فالظلم هنا بمعنى النقص.

وقد ورد عن النبي ﷺ في الحديث القدسي: «**يا عبادي لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي**

---

(١) (الهاجرة) تكون في نصف النهار عند اشتداد الحر. جمعها: هاجرات وهواجر.

(٢) سورة البقرة، آية ٦١.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٦٠.

شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد وسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط من البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١].

وهذا حديث قدسي شريف رواه أبو ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه، وهو حديث طويل مفيد، وقد بدأته من نصفه تقريباً اقتصاراً على مدلول الآية منه، وله شروح نافعة، وهو من أمهات العقيدة ومن جملة من أفرده بالشرح شيخ الإسلام ابن تيمية فليرجع إليه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (سورة البقرة، الآيتان ٥٨-٥٩).

هذا هو الإنعام التاسع على بني إسرائيل، فقد كتب الله لهم دخول هذه القرية وأن يأكلوا منها حيث شاؤوا رغداً، وذلك بعد تحريمها عليهم

---

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم برقم/٢٥٧٧/ في البر والصلة، باب تحريم الظلم، والإمام أحمد في المسند (٢٥٩/٣). والترمذي برقم/٢٤٩٧/ في صفة القيامة باب (٤٩) وهذا الحديث أصل عظيم من إصول الإسلام، قد اشتمل على قواعد عظيمة في أصول الدين. وهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقد شرحه العلماء وأفردوه بالتأليف. وكان أبو أدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه، وكان الإمام أحمد يقول: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

أربعين سنة، يتيهون في الأرض لقاء تمردهم عن أمر ربهم، وجبنهم عن قتال عدوهم ،وقولهم لموسى :﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾[1] ، كما سيأتي الكلام عليه في سورة المائدة.

و (القرية) اسم لمجتمع الناس من بلد صغير أو كبير، وشاع استعمالها في البلد الصغير، ولكن هنا يقصد بها المدينة، لأن القرية لا يتيسر فيها رغد العيش، وهي على الأصح بيت المقدس قلب فلسطين ذات العيش الرغد.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهذا الباب لم يذكر اسمه ولا جهته، وقد قال بعض المفسرين: إنه المسمى (باب الحطة) والظاهر أن الباب المقصود في الآية هو مدخل المدينة، وأما كونهم يدخلونه سجداً فالمراد به والله أعلم سجود الخضوع لله والخشوع وليس السجود المعروف الذي هو وضع الجباه على الأرض، لأن ظاهر الأمر يقتضي وجوب الدخول حالة السجود، وقيل هو الركوع انحناءً، ولكن الخضوع هو الأقرب، إظهاراً للتواضع الذي يحصل به طأطأة الرأس إعظاماً لله الذي مكنهم من دخوله، فأصبح دخولهم بحول الله وقوته، لا بسبب جهادهم وتفوقهم وإنكسار عدوهم أمام قوتهم، فإن لمثل هذا شأناً في الدخول غير شأنهم، فإن الظافر بدخول البلد ظفراً عسكرياً يدخل مرفوع الرأس بتعاظم وعنجهية[2]، أما هؤلاء على العكس، بل أمرهم الله مع هذا أن يعلنوا توبتهم أمام بعض وأمام الناس حيث قال لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ليقرنوا خضوع القلب بنطق اللسان، ملتمسين من الله حط الذنوب، وكلمة (حطة) فعلة من الحط وهي خبر مبتدأ محذوف، أي مسألتنا حطة.

---

(١) سورة المائدة، آية ٢٤.

(٢) (العنجهية) هي: الكبر والعظمة والجفاء.

هكذا يرشدهم الله سبحانه إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم من جلب مرضاته وعفوه، وأخبرهم أنه يغفر لهم خطاياهم إذا امتثلوا، ويزيد المحسنين الذين يراقبونه كما يريد مزيداً من الثواب والإحسان، ولذا قال: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأن المحسن الذي يراقب الله يسارع في المزيد من الأعمال الصالحة فيزيده الله بإحسانه إحساناً، ولكن الطبع اليهودي يستعصي على أحسن ضروب التربية، فقد عصى بعضهم أو أكثرهم. وكابر حتى اعتبرهم الله مبدلين للقول الذي قيل لهم، وذلك أن مخالفتهم لأوامر الله ليست عن جهل يستوعب مزيد تفصيل، ولا عن اشتباه يحتمل التأويل، ولكنه مجرد عناد ومشاقة، فكأنهم بهذه الحالة قيل لهم عكس ما قيل في الحقيقة، ولذا قال: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾. وفي سورة الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[(١)] وهذا يدل على أن المخالفة لم تصدر من الجميع.

قال أكثر المفسرين: إنهم لم يدخلوا الباب سجداً كما أمرهم الله، بل دخلوه زاحفين على إلياتهم قائلين (حبة في شعيرة) أو (حنطة) يقصدون بهذا أنهم يريدون الأكل، وهذا القول يؤيده أثر صحيح[(٢)]، وإلا فللمفسرين أقاويل أخرى مستمدة من الإسرائيليات التي ينبغي تطهير التفاسير منها، وقد أصاب الله الظالمين منهم بعذاب أبهم اسمه وحقيقته قائلاً: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ وفسره البعض بأنه

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٦٢.

(٢) الاثر الصحيح أخرجه البخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: (قيل لبني اسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم) فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة من شجرة) البخاري (٣١٢/٦) في التفسير، باب وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا) ومسلم برقم/٣٠١٥/ في التفسير.

الطاعون، والأولى أن نسكت ونقف حيث أوقفنا الله، بل نؤمن بأنه عاقبهم برجز ملائم لمعصيتهم وحالتهم.

وفي إقامته سبحانه للمظهر مقام المضمر في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَـلَمُوٓاْ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٦٢) تأكيد لما نص عليه في سورة الأعراف من التبعيض، وأن المخالفين ليسوا جميع القوم، بل منهم من لم يخالف، ومن خالف نال جزاءه على فسقه، أي خروجه من طاعة الله. والله أعلم.

استسقاء موسى لقومه وإعانتهم له

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(سورة البقرة آية ٦٠).

هذا هو الإنعام العاشر على بني إسرائيل، وهو من أعظم الإنعامات عليهم في دينهم ودنياهم.

أما الدين فلأن في هذا معجزة عظيمة مشاهدة على وجود الإله الخالق وعظيم قدرته وسرعة رحمته سبحانه وتعالى، حيث فجر لهم ماء كافياً لجميع أسباطهم من صخرة صماء يابسة، ولو كانت رطبة لما صح في الحسبان أن يعتصر منها قدر قارورة، فكيف وهي يابسة للغاية، ففي هذا أعظم دليل على قدرة الله الذي لا يشك في وجوده إلا الذي هو أضل من البهائم.

وأما كون هذا من أعظم نعم الله عليهم في الدنيا فلأن حياة كل شيء متوقفة على الماء خصوصاً البشر، بل على الخصوص بني إسرائيل الذين عطشوا في التيه، وساورهم الهلع والقلق وأخذوا يتذكرون مياه مصر المتدفقة، ويلومون موسى على إخراجهم، ويتمنون حالة الذلة والإرهاب،

لأنهم قد ألفوها. فهاتت منهم الشهامة والرجولة الصحيحة، وليس عندهم شيء أعز من الماء. ولا أفرح لهم بحصوله منه، فكانت هذه النعمة عظيمة جداً بالنسبة إلى حالتهم المذهلة المخيفة.

ومن تأمل جميع النعم العشر التي أكرم الله بها بني إسرائيل وجد فيها تربية روحية ومعنوية. شاء الله أن يرفع رؤوسهم من حضيض الذل والمهانة، وأن يطهر نفوسهم من رواسب الوثينة التي تأثروا بها في مصر، وأن يقتلع منها جذور الشرك المتأصلة فيها لطول إقامتهم، ولما جبل الضعيف عليه من تقليد القوي، فإنك تجد في أخبارهم مع موسى غرائب الأعاجيب مع ما يتخللهم الله من سوابغ نعمه المترادفة التي لم تتوافر لغيرهم.

فتجدهم لا يعملون حسنة إلا ويتبعونها بسيئة، مع أن هذا خلاف الواقع الإنساني المعروف، وتجدهم يتنكرون للنعمة أسرع ما كان، كما جرى منهم بعد إنعام الله عليهم بمجاوزتهم البحر وإهلاك عدوهم. وهم ينظرون يسألون موسى أن يجعل لهم إلهاً غير الله، كما سيأتي تفسيره في الآيات ١٣٨-١٣٩ فما بعدهما من سورة الأعراف، وأحياناً يعبدون عجلا مصنوعاً من حليهم، وأحياناً يقولون لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، وتارة يبدلون قولا غير الذي قيل لهم، وأحياناً يعتدون في السبت ويتحيلون على الله إلى غير ذلك من أنواع شرودهم عن الحق، وتهافتهم على الباطل.

ولذا تجد الله سبحانه وتعالى لم يراع الترتيب في سرد أحوالهم ومواقفهم وتنويع نعمه عليهم، لأنه لما كان يريد العظة والاعتبار جعل بيانه لنعمه عليهم متصلا بأسبابها، منفصلاً عن أوقاتها، وقد اعترض بعض أعداء القرآن عليه بعدم ترتيب ما فيه من القصص، كتأخير مثلاً لذكر الاستسقاء وضرب الحجر، مع أنه كان متقدماً على دخول القرية، فأجابهم علماؤنا بما تقدم وبأن القرآن لم يقصد التاريخ وسرد الوقائع بمواقيتها مرتبة، لأن هذا قد يخالف لوازم الهداية ومواقع العظة والاعتبار، والقرآن كتاب هداية لا

كتاب تاريخ وأقاصيص، فهو يعني بيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب منها وببيان النقم بعللها. ليحذر منها، فكانت طريقة القرآن أبلغ في التذكير والتأثير.

كان من عناية الله ببني اسرائيل في مهجرهم من مصر أنه لا يدع لليأس عندهم مجالاً، بل يبادرهم بإغاثته لهم، فإنهم لما عطشوا في التيه واستسقى لهم موسى أكرمهم الله سبحانه وأغاثهم بالماء. لكن بطريقة فيها زيادة تركيز للعقيدة وتثبيت للإيمان، فهو سبحانه قادر على إنباع الماء من الأرض وتشعيبه لهم اثنتي عشرة عيناً، ولكنه أغاثهم بطريقة فيها معجزة أبلغ بكثير من ذلك. قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ (سورة البقرة. آية ٦٠).

والعصا هي عصاه المعروفة التي يتوكأ عليها والتي لما شاء الله انقلبت ثعباناً مبيناً. فلا يجوز الالتفات إلى ما قيل في طولها ما دام القرآن نص على أنه يتوكأ عليها، لأن ما يتوكأ عليه الإنسان فهو أصغر من قامته، فعلى المفسر الوقوف عند حدود العقل والنقل. وأن لا يظلم التعبير القرآني خضوعاً لأخبار إسرائيلية تصادم النقل ولا يهضمها العقل. وكذلك الحجر المضروب لم يعينه القرآن، فلا يجوز لنا أن نعتمد على روايات إسرائيلية في وصفها أو بتعدادها أو منشئها المزعوم من الجنة، وإنما يلاحظ من نظم القرآن الكريم أن اللام في الحجر إما للعهد أو للإشارة إلى شيء معلوم يعرفه موسى، وليس لدينا ما يدلنا على معرفته.

ولكن بما أنه يجوز أن تكون اللام هنا للجنس فالتفسير بها أولى لأنه أبين في الحجة وأظهر لقدرة الله فكأنه سبحانه وتعالى قال لموسى: أضرب بعصاك الحجر، أي حجر تراه. ذلك أن موسى لو خصص حجراً معيناً لاعتقدوا أن له مزية وتأثيراً، لأنهم حديثو عهد بجاهلية شنيعة. وكل ما كان أبلغ في الإعجاز، وأبعد عن سوء الاعتقاد في التأثير، فهو أولى بالتفسير، لأن المقام مقام تركيز إيمان وعقيدة، ومقام تجريد كامل للتوحيد،

وقوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ متعلقة بمحذوف ،أي فضربه فانفجرت ،ولا يمتنع على قدرة الله أن ينفجر الماء من الحجر بدون ضرب، ولكن الله اختار لموسى أن يضربه زيادة كرامة له بين قومه.

واعلم أنه لاتناقض بين قوله سبحانه هنا ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ وفي سورة الأعراف ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ (آية ١٦٠) لأنه من اختلاف العام والخاص الذي لا يوجب التناقض خصوصاً وفي كلا الآيتين ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٦٠) مع الاتفاق على نبع اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطهم عين خاصة يشرب منها دون موازاة السبط الآخر.

والحكمة في تقسيم هذا الماء عليهم، لكل سبط عين خاصة، هي أنهم كثيرون، ومن عادة الكثير في الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه أن يقع بينهم زحام يوجب التشاجر والتناحر المفضي إلى التطاحن في القتال، فأكمل الله نعمته بهذا التقسيم الذي جعل لكل بطن من بطونهم عيناً خاصة لا يختلط معه غيره، وبهذا لا يحصل من أثر الزحام فتنة، بل قد لا تحصل بينهم ما يعتبر زحاماً.

فالله الذي يعلم ما بينهم من التشاحن وقاهم بهذا التقسيم للماء شر فتنة مستطيرة، فضلاً منه ورحمة، ومع هذا فالقوم هم القوم.

واعلم أن هذه الحادثة ليست معجزة واحدة، بل هي خمس معجزات، إحداها أن نفس ظهور الماء معجزة، وكون خروجه من حجر صغير معجزة ثانية. وكون خروج الماء على قدر حاجتهم معجزة ثالثة، وكون خروجه عند ضرب الحجر بالعصا معجزة رابعة، ثم انقطاع الماء عند الاستغناء عنه معجزة خامسة، فهذه معجزات حصلت بقدرة الله التامة ومشيئته النافذة في الكائنات وحكمته العالية على الأزمان والدهور، ومع هذا فان معجزة نبينا ﷺ في نبوع الماء من بين أصابعه أقوى، لأن نبع الماء من الحجر معهود في الجملة، أما نبعه من بين الأصابع فغير معتاد ولا معهود، وقد ضاق الماء بأصحابه في بعض الغزوات فوضع يده الشريفة في متوضئه

ففار الماء من بين أصابعه حتى توضأوا جميعاً[1]، فلا شك أن معجزته ﷺ أكبر.

فإن قال قائل: كيف يعقل خروج الماء الكثير من حجر صغير أو إنباعه من بين أصابع الإنسان؟ قلنا أولاً: هل تسلم بوجود الرب الفاعل المختار القادر على كل شيء والذي لا يستعصي عليه أي شيء؟ فإن اعترف بوجوده وبعظيم قدرته فقد زال ما عنده من الإشكال، وإن لم يعترف فلا فائدة في جدال كافر استحب العماية عن رؤية الحق، وإلا فلو أرجع بصره وأعمل تفكيره في الكائنات لاهتدى إلى خالقها وموجدها الذي لا يصعب عليه شيء.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (سورة البقرة. آية ٦٠) فهذا بتعيين من الله تعالى على يد موسى لكل سبط عيناً من العيون الاثنتي عشرة يختص بها دون ما سواه حتى لا تقع المزاحمة المفضية إلى التشاحن والفتنة وهذه من بعض رحمات الله ولطفه بهم كما أسلفناه.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة، آية ٦٠) امتنان عليهم وإباحة لهم أن يأكلوا من المن والسلوى، ويشربون من هذا النبع المتشعب بعدد أسباطهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف. آية ٧٤) والعثى: شدة الفساد. فكأنه قال: لا تتمادوا في الفساد. وفي نهيه سبحانه لهم عن الإفساد تخللت كلمة (فلا تعثوا) لأن ما يجري منهم من الفساد ليس عن اجتهاد وحسن نية، بل هو فساد مقصود عن رغبة وتصميم.

---

(١) راجع إن شئت روايات نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ في البخاري (٢٢٦/١) في الوضوء، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة. وفي الأنبياء، باب علامات النبوة في الإسلام. وفي الأشربة، باب شرب البركة والماء المبارك. ومسلم برقم /٢٢٧٩/ في الفضائل باب معجزات النبي ﷺ. وجميع روايات نبع الماء قد ذكرتها في كتابي /صحيح معجزات النبي ﷺ/. المحقق.

والعبرة من تذكير الله لهم هذه النعم العشر العظيمة وسردها، هي أن يبين الله لهم ولأحفادهم طبيعة أنفسهم الهابطة وخستها في مقابلة النعم. وكون الحرية التي وهبهم الله ليس لها عندهم وزن. والرسالة التي أكرمهم الله بها ليس لها قيمة. لأنهم أنفوا تكاليف العزة. وبخلوا بدفع ثمن الحرية والكرامة. ولم تشمخ رؤوسهم بحمل رسالة الله. بل لم يستطيعوا ترك مألوفاتهم البهيمية. كما يقص علينا خبرهم في الآية المقبلة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1].

هذه الآية تصور لنا جرماً آخر من جرائمهم تدل على كفرانهم بنعم الله. وأنهم دأبوا على إعنات موسى بكل وسيلة. بطلب ما يستطاع وما لا يستطاع. وأنهم قد تسلفوا بأنفسهم إلى أحط المستويات. إلى مستوى لا يليق بأمة رعاها الله بعنايته العظيمة. ولكن كما قال الشاعر:

وتأبى الطباع على الناقل

ولعل طلبهم هذا لقصد إحناق موسى وتأييسه حتى يرجع بهم إلى مصر التي ألفوها. ولم ييتئسوا بما حصل لهم فيها من الذلة والإرهاب.

وإن العليم الخبير سبحانه وتعالى قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ (سورة البقرة، آية ٦١) لأن مجرى سؤالهم لا يوجب شيئاً من عصيانهم الشديد المفضي إلى ضرب الذلة والغضب. ولكن هناك ملابسات أخرى أبهمها القرآن.

(١) سورة البقرة، آية ٦١.

ولا شك أن تحكمهم المتكرر على موسى مخالف لما يحبه الله، ومعاكس لمقابلة نعم الله المتوالية بالشكر العملي الصحيح، خصوصاً وقد وعدوا بالتمكين من دخول الأرض المقدسة، أن يرفع عنهم الخسف الذي وقعوا به بسبب عصيانهم في التيه، وعدم تأثرهم بما شاهدوه من الآيات الواضحة الباهرة، والنعم العظيمة التي لا مثيل لها في جميع أدوار التاريخ.

فهذا التلون منهم مع موسى دليل على أنهم يريدون إفهامه بأن لا بقاء لهم معه على هذه الحال، وأي حال أحسن من حالتهم - قبحهم الله - وهم يأكلون المن والسلوى - العسل والطيور - ويشربون من اثنتي عشرة عيناً، بدون كلفة ولا زحام من صخرة سخرها الله؟

ولذا قال لهم موسى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ؟﴾[1].

وأصل معنى الأدنى في اللغة - الأقرب - ثم استعمل للأخس الدون.

فجعل طلبهم للبقول والقثاء والبصل والثوم بدلاً من المن والسلوى استبدالاً للطيب الأعلى لذة وعاقبة بالأخس الأدنى لذة وعاقبة.

وقولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ (سورة البقرة، آية ٦١) توكيد منهم لنفي صبرهم في المستقبل.

و (البقل) هو النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام من سائر البقول - كالخس، والرجلة، والهندباء، وغيرها.

و (القثاء) يشمل جميع أنواع البطيخ، والطروح، والخيار، وقد يختص باسمه الطروح الملتوية.

و (الثوم) هو الثوم كما في قراءة ابن عباس وابن مسعود. وتفسيره به أولى من تفسيره بالحنطة، لأن الحنطة من أطايب الطعام، لا من أدناه.

---

(١) سورة البقرة، آية ٦١.

فهذه الآية تذكر بني إسرائيل ببطر أسلافهم، وإعناتهم لنبيهم، وتفضيلهم الأدنى على الأعلى، أشراً وبطراً، وسوء مقابلة للنعم العظيمة.

وقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ (سورة الزخرف، آية ٤٩) ولم يقولوا (ادع لنا ربنا) يعبر عن سوء أدبهم مع الله وتعاظمهم على موسى، وكأن الله رب له من دونهم. أو كأنه محسن إليه لا محسن إليهم، فخطيئتهم هذه مركبة من عدة أمور يسخط الله عليهم بها، لأنه يعلم خبايا نفوسهم.

ولو أن طعامهم غير هذا الطعام، ومنطقهم غير هذا المنطق لكان لهم عذر وشأن غير هذا الشأن، ولكن طعامهم من أشهى الأطعمة وألذها وأحلاها وأحسنها عاقبة - (المن) الذي تحبه كل الطباع السليمة، و(السلوى) التي هي من أحسن الطيور، وفيها غذاء كامل ولذة خارقة لا يحصل عشر معشارها فيما طلبوه من البقول والقثاء.

وكذلك منطقهم مع موسى، ذلك المنطق القاسي المتعالي، والذي لا يشعر بأدنى وقار لله، بل إن منطقهم يشابه منطق آل فرعون، إذ قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾(١).

بل إن قوم فرعون يسوغ لهم هذا التعبير حيث لم يؤمنوا بالله رب موسى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ (سورة البقرة، آية ٦١) يعني فرضت ووضعت عليهم الذلة وألزموها إلزاماً حسياً بالطبع، وإلزاماً شرعياً بالحكم، كما أوجب الله علينا قتالهم وعدم إقرارهم على دينهم الذي لم يلتزموه حقاً إلا بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون، فلا يجوز لنا قبول الدية منهم إرسالاً ولا مناولة بواسطة، لانتفاء الصغار الموجب للذلة المفروضة عليهم شرعاً كما هي سجية لهم طبعاً، حتى أن من أبى منهم

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٣٤.

الصغار بعد عقد أمانة انتقض عقده ووجب قتله. كما قرر الفقهاء ذلك استناداً على الآية (٢٩) من سورة التوبة. ووقوفاً عند الغاية التي حدها الله. فأصبحت الذلة مفروضة عليهم شرعاً. ومحيطة بهم ومشتملة عليهم طبعاً. كمن هو داخل قبة مبنية عليه ومسور بها من جميع الجوانب.

وأما المسكنة فهي الفاقة والحاجة وتشديد المحنة. وليس المراد بها فقر المال وفاقته، وإنما هو فقر العزة والاستقلال الشخصي، فاليهود عندهم ثروة العالم ويتحكمون في أسواقه و (بورصته) بالمصطلح العصري. ولكن لا يرفعون رؤوسهم أو يمدون أعينهم بدون مسند ومؤازر من ضلال النصارى أو منافقي المسلمين أو المحسوبين على الإسلام وهم أبعد الناس عنه كالدروز والنصيرية والقرامطة ونحوهم مهما اختلفت أسماؤهم وألقابهم وشعاراتهم.

والذل يهون على صاحبه قبول الضيم أياً كان نوعه في سبيل استبقاء الحياة، والمسكنة تلزم صاحبها الاستكانة والخضوع الكامل في القول والعمل، ولكن قد يظهر الذليل المسكين مظهر العزيز الجبار المفاخر بتاريخه وبما لديه إذا خلا له الجو وصار في مأمن من أسود الشرى، كحالتهم اليوم حيث هيأوا ظروفاً من مكر جمعياتهم الماسونية وتربيتهم الإلحادية التي تولى كبرها الاستعمار بجميع أنواعه حتى قفّزوا إلى محل الصدارة من يثقون منه ويطمئنون إليه باطناً وإن شتموه ظاهراً للخداع والتضليل. قال الشاعر:

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

وقال الآخر:

وكذا الديار إذا خلت من قائد ... فالفأر في عرصاتها يستأسد

ولكن في الوقت الذي ينبري لهم المؤمنون الصادقون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون، المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم

وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. المؤمنون الذين يتمسكون بالكتاب لا المعرضون عن الكتاب. المؤمنون الصادقون الذين يقاتلونهم وأذيالهم معهم بقصد إعلاء كلمة الله وإقامة شريعته في الأرض، لا إقامة حكم علماني من وضع اليهود يبيح ما حرّم الله ويحمي المفترى عليه. أقول إذا قابلهم المؤمنون الذين على هذه الصفات والمقاصد فإن اليهود لا يثبتون أمامهم ولا تنفعهم أيضاً جميع الفئات المناصرة لهم من دون الشرق والغرب أبداً، كما قال سبحانه في الآية (١٩) من سورة الأنفال: ﴿ **وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

لا ينخدع أحد بما حصل اليهود عليه من تكوين دولة أو جولة، لأنهم:

أولاً: لم يحصلوا على ذلك إلا بحبل من الناس، وبعض الدول الشرقية تمدهم بالرجال العسكريين والفنيين المهرة بكثرة بلغت مئات الألوف، وبعض الدول الغربية تمدهم بالأسلحة الفتاكة، وهذا شيء نص الله عليه: أنه لا تقوم لهم قائمة إلا بحبل من الله - إن عادوا إلى طاعته - أو حبل من الناس، كما في الآية (١٢٢) من سورة النساء ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا** ﴾؟.

وثانياً: إنه لم يقف في وجوههم أحد ممن يحمل بضاعة السماء ويستمطر مدد السماء فتحفه حصانة السماء، وقد أوضحت هذا في مواضيع خاصة بهم خارج ذلك التفسير المبارك، ولكن اضطررت اضطراراً استطرادياً هنا إلى قليل من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿ **وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ** ﴾ (سورة آل عمران، آية ١١٢) يعني انصرفوا ورجعوا متحملين غضب الله، وقد استحقوه فلا بد أن يصيبهم من صنوف البلايا والرزايا في الدنيا والآخرة ما يذوقون به وبال أمرهم، فقد أخبر الله سبحانه أنه يبدلهم بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضى عنهم غضباً، جزاء مواقفهم السيئة، والتنكر لما هيأهم الله له.

فقد حل بهم الغضب، ونزل بهم السخط، لأن من استحق الغضب من

الله فقد أصابه، وفي تنكير الغضب دلالة على أنه نوع فظيع من غضبه سبحانه وتعالى، وقد ظهرت آثاره عليهم في جميع أدوار حياتهم، لأن الغضب ملازم لهم لا ينفك عنهم.

ولكن ينبغي أن يعلم أن جميع ما كتبه الله عليهم من الذل والمسكنة والغضب الشديد ولوازمه يحيق بهم، كما كتبه الله عليهم وعلى من تشبه بهم أو سلك مسالكهم من هذه الأمة، أو تلقى عنهم أو عن أفراخهم من تلاميذ الماسونية شيئاً في ميدان التربية والتعليم أو سائر نواحي الحياة الأخرى، فإنه لا بد أن يناله ما كتبه الله على من قلدهم من اليهود وتلاميذهم.

وما هذه الفتن التي يتبجح بإثارتها المغرضون الحاقدون والمقلدون المنصبغون إلا من بعض العقوبات، لأن فيها إرهاباً وتنكيلاً يفضي إلى الذلة والمسكنة، وفيها تقتيل لكهول وشباب بارعين في العلوم العسكرية والفنية، تخسرهم الأوطان والمجتمعات لقاء تشفي عصبة أو فرد، فإن في ذلك إعلاماً بغضب الله.

فعلى المسلمين عموماً أن يعتبروا بما قص الله علينا من أخبار يهود وما قضى بسوء حالهم ومآلهم، بالابتعاد عن أعمالهم، ومحاربة جميع تقاليدهم، ورفض كل ما يرد من طريقهم في أي ميدان من ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وأن لا يعولوا في علم النفس أو الاجتماع أو الطبيعة أو غير ذلك على أحد منهم، كما هي الحال الآن.

ثم ذكر الله أسباب شقائهم وبلائهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية ١١٢) لأنهم دلوا بأفعالهم القبيحة من إعناتهم لموسى في المطالب مع ما يحوطهم الله بالنعم العظيمة التي أغلبها معجزات باهرة على أن لا أثر لها في قلوبهم، وأنها لم تزدهم إلا قسوة ونفوراً؛ فكانوا بها من الكافرين، وقد زاد طغيانهم إلى طغيان آخر وهو أنهم ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (سورة آل عمران، آية٢١) وقتل غير النبيين جريمة كبيرة فكيف بالنبيين، وقوله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تنبيه

على أن فعلهم ليس عن سوء فهم أو فساد تأويل وإنما هو خبث قصد وتصميم.

فأعمالهم تدل على لؤم طباعهم وقسوة قلوبهم ولذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (سورةالبقرة،آية٦١)أي أن ما فرضناه عليهم من الذلة والخسف المعنوي، والغضب المحتم لعصيانهم الأوامر في الأحكام، واعتدائهم حدود الله التي حددها لهم في شريعته، ونهاهم عن تجاوزها وتخطيها فاعتدوا بتجاوزها، وقد كانت هي الوسيلة لإعزازهم ورفع سلطانهم وحفظ كيانهم، فلما أهملوا انعكست أحوالهم، لأن الله اعتبرهم بتركها كافرين.

وهنا عودة أخرى للكلام على ما نالوه في هذا العصر من نصر مؤقت وكيان، خشية الاستهانة بكلام الله، فأقول وبالله التوفيق: إن النصر على الأعداء في الحرب أياً كانوا يحتاج إلى أخذ قوتين: المادية والروحية، والجمع بينهما هو المأمور به لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[١]، ونحن أضعنا القوة الروحية بالكلية وتبجحنا بقوة مادية مكشوفة غير مكتومة، فتفوق العدو علينا بها، وأصبحنا محرومين من القوة الروحية، بل إنه أحدث بمكره الماسوني انقلابات في محيطنا، قلبت مجتمعنا إلى مجتمع كراهية وشقاق.

وهذا شيء خططته الماسونية في محافلها منذ نصف قرن فأكثر، ونحن سادرون، كما خططت أيضاً أحداث الخواء الروحي في مجتمعاتنا، فمن أين ننتصر؟ إن الله قضى سنته الكونية التي لا تتغير ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢] أنه إذا استوى الفريقان المتحاربان في طاعة الهوى والشيطان فإن النصر يكون بالقوة المادية أو بالمكر الحربي ويرتفع مدد الله.

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٦٢.

أما إذا كان أحد المتحاربين مطيعاً لله ومخلصاً مقاصده لإعلاء كلمته فقط فإنه ينصر، بالرعب وبالريح وبالملائكة، وينصره أيضاً بشل حركة عدوه أو إفساد بعضها لصنعته ومكره كما جرى جميع ذلك لعباده المخلصين، أو ينصره أيضاً بإشغال عدوه وتسليط عدو آخر عليه، كما نصت الآية ٢٥١ من سورة البقرة، فليعرف الإنسان هذا ولا يلوي لسانه بالشغب الباطل.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

هذه الآية لها ارتباط قوي بالآية قبلها من ناحيتين:

(**إحداهما**): أن الآية السابقة قضى الله فيها بالذلة والمسكنة والغضب منه على اليهود، وحكم بكفرهم بآياته، وذكر أحفادهم بجرائمهم البغيضة التي منها قتل الأنبياء، فاستثنى بهذه الآية من حقق الإيمان المطلوب، وقام بالأعمال الصالحة المرضية ليبين أن حكمه ليس شاملاً للجميع بلا تفريق.

و(**ثانيهما**): أنهم مع ما جرى منهم من التعنت والمخالفات المغضبة لرب العالمين فإن لهم دعاوى عجيبة غريبة، فهم دائماً يزعمون أنهم المهتدون، وأنهم شعب الله المختار، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لا تمسهم إلا قليلاً، إلى غير ذلك مما أبطل الله كلاً منها في موضعه، فجاءت هذه الآية مكذبة لجميع مزاعمهم، ومبينة وحدة العقيدة لجميع الطوائف على اختلاف أسمائهم، باللباب الصحيح لا بقشور الدعاوى الزائفة، وإن كل ملة من الملل إذا وصل بها إيمانها إلى اسلام الوجه لله، والتصديق بجميع رسله وكتبه، والوفاء بعهده

(١) سورة البقرة، آية ٦٢.

الفطري، من استعمال كل الجوارح والأحاسيس في طاعة الله ومرضاته، ثم الوفاء بعهده الديني الشرعي من الإيمان بمحمد ﷺ، ونصرته حياً بالجهاد معه والسير في طاعته، ونصرته ميتاً باتباع سنته وتحقيق جميع أنواع الفداء في حمل رسالته، والإيقان باليوم الآخر بالاستعداد الصحيح له.

فإن ألقابهم حينئذ لا تبعدهم عن الله بل تصبح كالقشور، وإن فضل الله وعفوه ليس محجوراً على جنس من الناس دون جنس أو لون دون لون، وإنما هو للذين آمنوا وعملوا الصالحات جميعاً في كل زمان ومكان، وقد أشكل معنى هذه الآية على بعض المفسرين حتى زعم أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾[1]. وليس فيها إشكال ولا نسخ، بل معناها لمن عرف الوحدة الدينية لجميع الأنبياء والمرسلين، وأنهم جاؤوا من الله بدين الإسلام، وأن كل يهودي لا يدين بالإسلام، ولا يؤمن برسول الإسلام ﷺ، فهو مكذب لموسى وكافر بالجميع، وكل نصراني لا يؤمن بمحمد ﷺ، ولا يدين بدين الإسلام، فهو كافر بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام، فكل من أدرك هذا زال عنده الإشكال.

ولهذا لما أخبر الله باللائمة على اليهود في الآيات السابقة جاء بهذه الآية مخصصة للمؤمنين من كل صنف اهتدى بهدي نبي سابق وانتسب إلى شريعته، مؤمناً بالله واليوم الآخر، لاستلزام الإيمان لما قلناه، فقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (سورة البقرة، آية ٢١٨) يعني بهم المسلمين ﴿ **وَالَّذِينَ هَادُوا** ﴾ (سورة البقرة، آية٦٢) اليهود،إما بمعنى نسبتهم إلى يهوذا، وإما بنسبتهم إلى التوبة والعودة إلى الله بقولهم: ﴿ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** ﴾ وهو أصح، لأن اليهود ليس جميعهم منسوباً إلى (يهوذا) وإنما المنسوب إلى (يهوذا) سبط واحد من اثني عشر سبطاً، وقوله سبحانه:﴿**وَالنَّصَارَىٰ**﴾ هم أتباع عيسى نسبة إلى قولهم: ﴿ **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** ﴾ (سورة الصف، آية ١٤) أو إلى قرية تدعى (الناصرة).

---

(١) سورة آل عمران. آية ٨٥.

وقوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ هم على الأصح طائفة من المشركين قبل البعثة ساورهم الشك في تلك الجاهلية، فبحثوا عن عقيدة يطمئنون إليها، فاهتدوا إلى ملة إبراهيم، واعتزلوا ما كان عليه قومهم دون أن تكون لهم دعوة. وإنما اهتدوا إليها لأنه كان في العرب من يدين بها، ولأنها هي الملة الأصلية في العرب سدنة البيت الحرام وسكان مكة ومن حولها مما لا يعلم مداه إلا الله، فإن الإسلام فيهم أصيل والوثنية دخيلة عليهم جاءت في عهد (خزاعة) بمكر من اليهود، سيأتي تفصيله.

فالعرب مسلمون قبل أن يكونوا عرباً، على الرغم مما يزعمه المضللون المنخدعون بأقوال النصارى دعاة القومية العلمانية الوثنية، والعرب تسمي المنتقل من دين إلى دين غيره صابئاً، حتى إنهم في عهد قريش يسمون المسلمون (صابئين).

وفي الصابئين أقوال أخرى، منها أنهم لا دين لهم، ومنها أنهم بين اليهود والمجوس، ومنها أنهم فرقة موحدة، ولكنها تعتقد التأثير بالنجوم، ولكل من الأقوال وجه، والصحيح الأول.

ولكن يوجد فرقة انفصلت من اليهود بعد قتلهم يحيى، وانتحلوا أشياء من بعض الأديان، وفيهم رواسب من اليهودية، وشعارهم لبس (الشماغ) الأحمر تذكاراً لدم يحيى ولا يأخذون شيئاً من شعورهم أبداً حزناً على مأساته، وهم سريعو الاقتناع للدخول في الإسلام لو كان هناك دعوة قائمة إليه، وأكثر مساكنهم في العراق.

والمقصود من هذه الآية الكريمة، أن العبرة بصحة العقيدة وحسن المعاملة لله سبحانه بالصدق والإخلاص لا بالأسماء والدعاوى، فإن الذين آمنوا من هذه الأمة وثبتوا على إيمانهم ولم يتغيروا ولم يبدلوا أبداً، وإن كلاً من اليهود والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر - والإيمان بالله يستلزم بالضرورة الإيمان بجميع كتبه ورسله وخاتمهم محمد ﷺ - والقرآن، وصدّق دعوى إيمانه بالأعمال الصالحة الدالة على ما في ضميره من الإخلاص والصدق.

فإن الجميع منهم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني ثابت متيقن الحصول ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة. آية ٢٦٢) لدوام أجرهم بدون انقطاع هذا في الدنيا. فلا خوف عليهم مما فرض الله على اليهود من الذلة والمسكنة وصنوف العقوبات الحاصلة لهم بسبب غضب الله. فإن المؤمن الصحيح منهم ومن غيرهم لا خوف عليه من ذلك. لتحصنه بالإيمان الصادق المدعم بالأعمال الصالحات. لأن مدار الفلاح هو الإيمان الصحيح الذي له سلطان على النفوس يردعها عن المساوىء. ويدفعها إلى العمل الطيب المرضي لله. والذي تتم به السعادة في الدنيا والآخرة.

فإن الله سبحانه وتعالى أراد تبيين حال هذه الملة الإسلامية الصحيحة وحال من قبلها من الملل المنحرفة عنم حقيقة. دين الله الأصيل. وإنه يرجع إلى شيء واحد هو صحة الإيمان منهم بالله واليوم الآخر. وقيامهم بالأعمال الصالحة المنبئة عن صدق إيمانهم ومراقبتهم لله. بحيث انحصرت أعمالهم في الصالحات المرضية له سبحانه وتعالى. وإن من قام بهذه فله الأجر الكامل والأمن مما فرضه الله على كفرة بني إسرائيل. ومن فاته ذلك فاته الخير والأجر وكان له نصيب مما لبني إسرائيل المحرفين من الذلة والغضب الدائمين.

وهذه الآية تقطع دعاوى الإسرائيليين العريضة. وتوضح أن ثواب الله على الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة، لا يختص بأمة، وأنه حتى من ثبت على التوراة والإنجيل ونحوهما بدون تحريف بحيث لو أدرك محمداً ﷺ، لآمن به وقام بنصرته .فإن هذا النوع ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٦٢).

وأيضاً ففي هذه الآية تكذيب لليهود الذين يقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾[١] ويعتقدون أنهم مأمورون بقتل من عداهم.

(١) سورة آل عمران، آية ٧٥.

فهذه الآية تكذبهم وتوضح أن المدار في عصمة الدم والمال في الدنيا والفوز في الآخرة. إنما هو على الإيمان الصحيح ليس على الانتساب والدعاوى. فمناسبة ذكر هذه الآية في سورة البقرة والمائدة متخللة قصص بني إسرائيل مناسبة واضحة لتكذبهم.

(تنبيهات):

أحدها: إن للعلماء بحثاً طويلاً في الصابئة يتضح منه أنهم أصناف. فليرجع من يريد المزيد إلى كتاب الشهرستاني في الملل والنحل. وإلى أقوال الشيخ ابن تيمية في الرد على المنطقيين وغيره. لذا أكتفي بالإحالة عن الإطالة. مقتصراً على ما قارب المعنى والله أعلم.

ثانيها: هذه الآية محكمة غير منسوخة ومعناها واضح غير متشابه. كما يفهم من الكلام السابق. والذين قالوا بالنسخ اشتبه عليهم ما يرونه من حال أهل هذه الأديان التي مخالفتهم للإسلام ظاهرة. وفاتهم أن حالة هؤلاء سببها التحريف الطارىء الذي من سار عليه فليس من أتباع نبيه حقيقة. ولهم عذر آخر وهو أنه اشتبه عليهم كون هذه الشريعة نسخت ما قبلها بجميع ما نصت عليه. وليس الأمر كذلك، لأن ما جاء به محمد ﷺ موافق لما جاء به موسى وعيسى وغيرهم في الأصول: «أصول التوحيد ليس فيها خلاف إذا سلمت من التحريف».

وأما النسخ الكامل فهو فيما نصت عليه من الفروع، ولما لم تنص عليه فهو شرع لنا، كما تقرر في علم الأصول أنّ شَرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه، وجميع الكتب السماوية التي عند أولئك تنص على الإيمان بمحمد ﷺ وفيها ذكر أوصافه الشريفة إذا سلمت من التحريف ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «**نحن معشر الأنبياء إخوة علات وديننا واحد**»[1].

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري (٤/١٣٨) في الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها، ومسلم (٧/٩٦) في الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام. =

وإخوة علات: هم الذين من أمهات عديدات وأبوهم واحد، وهذا من بعض تمثيلاته صلى الله عليه وسلم للناس بما كانوا يعرفونه تقريباً لأذهانهم، فالعامل من أمم الأنبياء بما أنزل إليهم من غير تحريف هو مؤمن بالله وجميع رسله وبمحمد عليه الصلاة والسلام. ولذا كان حظه الأجر ورفع الخوف والحزن. وأما السالك على ما حصل فيها من التحريف فليس بمؤمن ولا تشمله هذه الآية الكريمة المحكمة. والله أعلم.

= هذا والحديث يشير إلى أن أصل دين الأنبياء واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة. كما أن أولاد العلات أبوهم واحد وإن كانت أمهاتهم شتى.

أخذ الميثاق ومسخ المعتدين قردة

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

بعدما ذكر الله اليهود المعاصرين لنزول القرآن بعدة جرائم أعنتوا فيها موسى حتى حصل لهم التقريع والتوبيخ. يعني أسلافهم. وإن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة. وجعل عاقبتهم انصباب غضبه عليهم. ثم أوضح لهم في الآية (٦٢) أنه لا أثر لأنساب الشعوب ولا ألقاب مذاهبهم في رضاء الله وغضبه. وإنما الأثر في حصول الرضوان والفوز بسعادة الدنيا والآخرة هو صدق الإيمان بالله واليوم الآخر. ذلك الإيمان المنير للصدور الجياش في القلوب. جيشاناً يدفعها بحقيقة الوجدان إلى العمل بمرضاه الله واجتناب مساخطه. إيماناً يحرك الجوارح. ويفجر الطاقات للعمل المتواصل في سبيل الله. إيماناً يجعل صاحبه كلما رفع رأسه إلى السماء أطرق هيبة ممن في السماء فطأطأ رأسه إلى أرض العبودية. إيماناً يجعل صاحبه وقافاً عند حدود الله في كل شأن من شؤون حياته. لا إيماناً مزدوجاً بالأنانيات الإسرائيلية.

بعد هذا أخذ الله يذكر أولئك اليهود المعاصرين للنبوة بجريمة أخرى من جرائم أسلافهم قائلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

---

(١) سورة البقرة. آية ٦٣.

وهذا العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم هو ما سيأتي تفصيله في الآية (٨٣) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

هذا الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل لأجل الانقياد والطاعة. وقد روى أبو مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وروى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن زيد. قال: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه: إن هذه الألواح فيها كتاب الله. فقالوا: لن نأخذ بقولك حتى نرى الله جهرة. فيقول: هذا كتابي فخذوه. فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت؟ فأخذتهم الصاعقة فماتوا. فأحياهم. ثم قال لهم بعد ذلك: خذوا كتاب الله. فأبوا. فرفع فوقهم الطور. وقيل لهم: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم. فأخذوه بالميثاق[1].

واقرأ قوله تعالى في الآيات (٨٣-٨٥) من هذه السورة. فرفع الطور آية عظيمة عجيبة تبهر العقول. وترد المكذب إلى التصديق. والشاك إلى اليقين. فلما رأوا ذلك. وعرفوا أنه من الله. وأنه زيادة في معجزات موسى السابقة. أقروا له بالصدق فيما جاء به. وأظهروا التوبة. وأعطوا العهد والميثاق أن لا يعودوا إلى ما كان منهم من أنواع التمرد.

قال سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

---

(١) انظر الرواية عند ابن جرير الطبري في التفسير. وكذلك عند ابن كثير في التفسير وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾.

(٢) سورة الأعراف. آية ١٧١.

يعني خذوا ما آتيناكم بجد كامل وعزيمة صادقة وعدول عن التغافل والتكاسل. فإنما رفعنا فوقكم الطور وسلطناه للانقضاض عليكم إذا توانيتم في الأمر لعلكم تتقون شر التواني، فإن أمر العقيدة أمر عظيم لا رخاوة فيه ولا تساهل ولا تميع. ولا يقبل الحلول ولا أنصاف الحلول. ولا الهزل ولا التراخي ولا التردد أو التشكيك، إنه أمر أعظم من كل الوجود. فلا بد من أن يسخر الله الكائنات لتنفيذه إذا لم تقبل النفوس على تنفيذه، عن طواعية وإيمان.

فالنفوس اللئيمة المتمردة يقتلع الله عليها هذا الجبل العظيم وينتقه حتى يرفعه عليها كظلة لتخضع للحق وتنقاد خشية وقوعه «هذا في زمن موسى» على أسلافكم أيها اليهود.

وأما زمن محمد ﷺ. فيسلط الله السيوف على الرقاب اللئيمة من طوائفكم. كما أجرى ذلك على بني قينقاع والنضير وبني قريظة، إنه ميثاق الإيمان والرسالة. لا هوادة ولا رخاوة، وكل من تهاون فيه أو طرحه أسقطه الله من الاعتبار وصار من شر الدواب الواجب قتلها وإزالتها من الوجود وفرض الله عليه السيف بلا استثناء أو السيف حتى يخضع للذلة والصغار. هذا حكم الله فيمن تنكر لنعمة الخلافة في الأرض.

انظروا حكم الله وقضاءه في بني إسرائيل الذين فضلهم على عالمي زمانهم. وتولى رعايتهم في إنقاذهم من مخطط الفراعنة الرهيب، واصطفاهم لحمل رسالته. وتولاهم بإسباغ نعم لم تتوفر لغيرهم، ورباهم بالمعجزات الباهرة، كيف يصب عليهم العقوبات الفظيعة كلما توقفوا عن الأخذ بالعقيدة، فتارة يربط قبول توبتهم بقتل بعضهم بعضاً، وتارة تأخذهم الرجفة. وتارة تأخذهم الصاعقة وهم ينظرون، وأخيراً وليس آخراً يرفع الطور عليهم كأنه ظلة. ويهددهم بإيقاعه عليهم إن لم يأخذوا التوراة بقوة العمل والتنفيذ. لأن العقيدة لا هوادة فيها ولا رخاوة، ولا تتفق مع أهواء النفوس وأنانيتها أبداً. ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم

﴿بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي تذكروه جيداً بالمواظبة على دراسته وتدبر معانيه والعمل به، فإن العلم به دون عمل لا يجدي، بل يكون مدعاة لنسيانه والكفر به.

فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً مستقراً في النفس، وذلك أن العلم يستحضره صاحبه في النفس مجملاً غير سالم من غموض أو إبهام، فإذا أبرزه بالعمل للوجود صار تفصيلياً جلياً واضحاً، وبكثرة التكرار للتلاوة ومداومة العمل يكون النظري منه بديهياً ضرورياً، فيثبت وحي الله بالقلب فلا ينسى، وأما مع هجران العمل به فإن صاحبه يصل به النسيان إلى حالة يساوي فيها من لا يعرفه بتاتاً والعيـاذ بالله. ويروى عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه قال: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

وهذا أمر محقق، ولهذا شدد الله سبحانه في أمر العمل، حتى جعل تارك العمل كافراً به، بل جعل العامل ببعض دون بعض كافراً بالجميع، كما سيأتي توضيحه في تفسير الآية (٨٣).

وفي هذه الآية التي نحن بصددها الآن حجة قاطعة على الذين يقرأون القرآن وليس لهم حظ منه إلا التغني بألفاظه وهز رؤوسهم وأبدانهم دون أفئدتهم، فإن قلوبهم خالية منه، ولذا كانت أعمالهم لا تنطبق عليه، فهم أشر ممن لم يقرأوا القرآن، وقد أخبر النبي ﷺ بحدوثهم آخر الزمان، وأنهم يجعلون القرآن مزامير، وأنهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وأنهم يتعجلونه ولا يتأجلونه، يعني يأخذون الأجرة العاجلة عليه في الدنيا، لأنهم لا يريدون به وجه الله في الدار الآخرة.

وقد بلغ بهم الأمر في أكبر الأقطار العربية أن المقرئين للقراء يعلمونهم تلحين القرآن على أوتار العود ذي الاثني عشر وتراً، وان طالب التجويد لا يمكن أن يحصل على شهادة إلا بهذه الطريقة والعياذ بالله، وهذا أمر محقق لا يمكن إنكاره، وهو من علامات نبوته ﷺ، حيث أخبر به قبل أن يقع بثلاثة عشر قرناً ونصف القرن تقريباً، وما القصد من إنزال الكتب

الإلهية إلا العمل بها؟ فتعطيل العمل بكتاب الله تعطيل لألوهيته في الأرض، وهذا شرك تعطيل أفظع من شرك التحريف، كما سنوضحه في مناسبات عديدة إن شاء الله.

والمقصود هنا أن الله أمر بني إسرائيل بذكر ما في الكتاب ليصدقوه بالعمل، ووصل الذكر بالتذكير بفائدته التي هي إعداد النفس للتقوى حيث قال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، لأن المواظبة على العمل به تطبع في النفس ملكة مراقبة الله وخشيته، فتكون بذلك طاهرة تقية، فإن الصدق في العمل يورث الخشوع لله الموجب لرقة القلب وصفائه، والدافع إلى المزيد من حبه وتعظيمه، وعلى العكس ترك العمل ولو مع القراءة فإنه تكون به القلوب قاسية حتى يطبع عليها والعياذ بالله، فلا بد لصحة التلاوة من التدبر والعمل المتواصلين، فالتالي لكتاب الله بصدق يذكر ما فيه من الأوامر والنواهي، وما فيه من الوعد العظيم والوعيد الشديد والترغيب والترهيب، وبهذا لا يبقى على ضلال، ولا يصر على معصية، بل يسلك مسالك الطاعة ويكون من المتقين، وذلك إذا استقر وحي الله في القلب تصوراً وشعوراً، وفي الحياة وضعاً ونظاماً، وفي السلوك عملاً وتطبيقاً، فإن التقوى تكون غايته لقوة رقابة الله وخشيته، فلينتبه أهل القرآن لذلك.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(١).

يخبر سبحانه عن سوء طباع بني إسرائيل وخبث سريرتهم ونزقة أخلاقهم، وأن الله أخافهم وأرجف بهم حيث نتق الجبل الذي يسمى بالسريانية (الطور) ورفعه فوقهم كأنه ظلة، وهددهم بسقوطه عليهم حتى أذعنوا وانقادوا، ولكنه انقياد مؤقت قضت عليه الطباع اللئيمة، فتولوا عن أوامر الله في التوراة، ولهذا يقول: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني

(١) سورة البقرة، آية ٦٤.

بعـــــــد الانقيـــــــاد ﴿تَوَلَّيۡتُم﴾ التولي: الإعراض وإدارة الظهر عن الأمر أو المقابل، بل تقول العرب - ولي دبره - إذا استدبر وتركه خلف ظهره، ويستعمل هذا اللفظ في كل تارك طاعة أمر بها، يقال: قد تولى فلان عن طاعة فلان، وفي القرآن من أمثال هذه الاستعارة كثير، ومن الشواهد على هذا في كلام العرب قول خراش في مرثيته لصديقه زهير ابن العجوة لما قتله جميل بن معمر:

وإنـك لو واجهتـه إذ لقيتـه ... فنـازلتـه أو كنـت ممن ينـازل
لظـل جميـل أسوأ القوم تلـة ... ولكن قرن الظهر للمرء شاغـل
فليس كعهد الـدار يا أم مالـك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى الحق شيئاً واستراح العواذل

فقوله: «**أحاطت بالرقاب السلاسل**» استعارة عن الإسلام إنه صار في منعهم عما يفعلونه في الجاهلية بمثابة السلاسل المحيطة برقابهم، وهذه الأبيات ذكرتها لنفاستها، وإلا فلست أعني بالشواهد اللغوية في هذا التفسير المبارك، لأن غيري قد كفاني إياها، ولأني منشغل بالمهات الروحية ومقتصر عليها.

فقولـه تعـالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني أنـكم تركتم العمل بما أخذنا عليه مواثيقكم وعهودكم أن تعملوه بجد واجتهاد بعد إعطائكم العهود والمواثيق على العمل به كما نريد، توليتم عنه ونبذتموه وراء ظهوركم، ومع هذا فقد شملهم لطف الله وعفوه عن ذنبهم العظيم أو كفرهم الجسيم الذي يستحقونه به أفدح العقوبات، حكمة منه سبحانه، وعلماً بأن سيخرج من أصلابهم من يكون صالحاً لحمل أعباء الرسالة والقيام بالجهاد المطلوب الذي ينتزعون به بيت المقدس وغيره من الجبابرة.

أما هؤلاء فقد أفسدتهم التربية المصرية[١] الطويلة المدى التي أكسبتهم

---

(١) أي أيام الفراعنة.

ذلاً وخنوعاً وتسفلاً لا يقبلون معه الارتفاع، كما أسبتهم نزاقة الأخلاق وسوء الطباع، ولكن العليم الحكيم الذي يعلم ما كان وما سيكون يقول لهم: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] أي الخاسرين أنفسكم وأهليكم في الدنيا، إما بالهلاك أو بالحرمان من الفوز والفلاح، وكنتم خاسرين في الآخرة منازلكم من الجنة ومتحولين منها إلى النار، فالخسران هو نقص النفس حظها من الفوز والسعادة.

ثم هل هذا الخطاب هو للسامعين من اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ، أو هو إخبار لهم عن فعل أسلافهم؟ مدلول السياق واضح في أن هذه الآيات موجهة إلى المخاطبين بها ممن عاصروا محمداً ﷺ، وإنما أضاف الله فعل أسلافهم إليهم بالذات، لأنهم متولون لهم وسائرون على مناهجهم، فصيرهم الله منهم لأجل ولايتهم لهم دون التبرؤ مما صنعوا، فأصبحوا شركاء لهم في كل جريمة، لتقديسهم إياهم، وازدرائهم ما أنزل على محمد ﷺ.

فليحذر الذين يؤاخون النصارى ونحوهم باسم الوطن أو العروبة، ويضربون بملة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام عرض الحائط، أن يحملهم الله كفرهم لموالاتهم إياهم، خصوصاً إذا اعتبروا أن ما هم عليه دين الله، والله بريء منه. ليحذر المنخدعون بالأفكار الماسونية في كل من لا يتبرأ من الكفر وأهله، بل يوالونهم ويؤاخونهم أن يحملهم الله كفر كل يهودي، وكل نصراني، وكل درزي، وكل نصيري وملحد جعلوه أخاً لهم في العروبة أو الوطنية. إن هذه الآية صريحة في تحميل اللاحق أوزار السابق إذا تولاه لرابطة دينية، فكيف إذا كان لغير رابطة دينية؟ حقاً إن جريمته تكون أكبر.

فما أعظم جريمة المسلم المؤاخي أو الموالي لغير أهل الإسلام من سائر الفرق التي لا ترتبط بالدين الإسلامي، بل يعتقدون ما يناقضه ويعاديه. ما

---

(١) سورة البقرة، آية ٦٤.

اعظمها من جريمة ركزتها الماسونية في قلوب الناشئة لتجلب عليهم غضب الله وتحرمهم مدده الذي لا يغلبه غالب.

يقول الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١).

والنصوص في وحي الله كثيرة مستفيضة، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾(٢).

ولكل قوم وارث، فانظروا يا معشر المسلمين مصير الذين قالوا للكفرة: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وقارنوهم بمن أطاعوا الكفرة في كل الأمر، بل في جميع الأمور، فهدموا ملة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام بمؤاخاتهم وموالاتهم، وطرحوا رسالة الله، وتركوا الدعوة إليه، زاعمين أن الدين طائفية، وأن الدعوة إلى الإسلام مغضبة لإخوانهم النصارى، ورفضوا ألوهية الله برفضهم الحكم بشريعته وتعطيل حدوده، إرضاءً للأقليات الكافرة على زعمهم.

وهم في تنفيذهم لما يريدونه من المذاهب المادية المستوردة لم يبالوا بتلك الأقليات، بل نفذوها عليهم بادى ذي بدء بكل قوة، مما برهنوا به

---

(١) سورة المجادلة، الآيتان ١٤ - ١٥.

(٢) سورة محمد، آية ٢٥.

على أن موالاتهم للكفار من دون المسلمين عن سوء عقيدة وعدم اقتناع لصلاحية الإسلام للحياة، كما يصرحون به جهاراً من فصل الدين عن الدولة، بل عن جميع واقعيات الحياة، مما أصبحوا وقد بدلوه قولاً غير الذي قيل لهم. فما أعظم جريمة وأوزار الذين عادوا إلى الرجعيات الكافرة من العصبيات القومية والنعرات الوطنية والمسالك المادية، ورفضوا الدين الإسلامي المجدد لحياتهم.

ويسأل القارىء: كيف حمّل الله اليهود المعاصرين لنزول القرآن جرائم أسلافهم وكفرهم؟ والجواب: لأنهم ساروا على سؤالهم ولم ينقادوا للوحي المحمدي.

يسأل القارىء الكريم: كيف ساوى الله بينهم في أصول الكفر؟ والجواب: لموالاة اللاحق للسابق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾[1] مخاطباً للمعاصرين خطاباً مباشراً، لارتباطهم بهم واجتنابهم الوحي المحمدي.. ولم يحملهم جريمة أصحاب السبت الفرعية لعدم ارتباطهم بمجرميها، بل قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[2].

ليلاحظ القارىء الكريم هذاالتحميل في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾، وعدم التحميل في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾. فما أجمل الفقه في نصوص القرآن ومعانيه لتقويم العقيدة والأخلاق، ومن لم يتدبر المعاني المقصودة من سرد الله لقصص الماضين في القرآن، ومقارعة شبهات المبطلين من كل ملة ونحلة جاهلية، فإنه لا بد له من أن ينزلق في مزالقهم، ولهذا قال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يوشك أن تنتقض عرى الإسلام عروة عروة. قيل: كيف ذلك؟ قال: إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

---

(١) و (٢) سورة البقرة، الآيتان ٦٤ - ٦٥.

وليس مراده من لا يعرف الجاهلية ممن لم يشاهدها، بل مراده من لم يعرف أحوالها من القرآن الكريم. وفي قصص بني اسرائيل عبرة لمن اعتبر، وأعطى القرآن كل قلبه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

يذكر الله اليهود بجريمة عظيمة من جرائم بعض أسلافهم دون أن يحمّلهم إياها كما حمّلهم جريمة التولي عن التوراة، كتاب الله، وهذا أيضاً من جملة إعلام نبوته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم، حيث أخبرهم بما لم يعلمه هو ولا قومه قبل نزول القرآن، ولا يعلمه سوى اليهود علماً سرّياً يتكلمونه فيما بينهم، لما فيه من الخزي العظيم، فيقول: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ ولم يقل: (ولقد اعتديتم في السبت)، لأنهم لم يكونوا متولين أصحاب السبت، ولكن لما كانوا متولين الذين نقضوا الميثاق يوم رفع الطور أسند الله الفعل إليهم، ووجه اللوم عليهم حيث قال في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ تحذيراً لعباده أن يتولوا قوماً غضب الله عليهم من أي ملة أو نحلة، خصوصاً من زعم أن لله ولداً أو افترى على الله بأي شيء يخالف دينه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ والاعتداء: هو مجاوزة حد الله أو حدود الله وأوامره التي حددها في شريعته من حرام وحلال ومكروه، فكل من تجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوزه إليه من سواه. قال تعالى: ﴿تِلْكَ

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ٦٥ - ٦٦.

﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

وهـذا من بعـض تحذير الله لبني إسرائيـل المعـاصرين لمحمـد ﷺ، والمصرّين على تجاهل رسالته، وكفرهم بما أنزل إليه، أن يحيق بهم ما حاق بأسلافهم من أنواع العقوبات التي عددها الله فيما مضى، من قتل النفوس والإهلاك بالصاعقة والرجفة وغير ذلك، حتى ذكرهم بأصحاب السبت، وتسميه السبت مأخوذة من القطع، يعني أن الأشياء سبتت وتمت خلقتها، وقيل هو مأخوذ من السبوت الذي هو الراحة والدعة.

والسبت: هو أول أيام الأسبوع: تعظمه اليهود، زاعمة أن الله استراح فيه بعد خلقه السموات والأرض، فكذبهم الله بقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[2] أي تعب، وألزمهم الله عقوبة لهم، كما وردت آثار كثيرة نقتصر منها على بعض ما نقله ابن جرير، قال حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة بن الفضل، قال حدثنا محمد بن إسحاق عن داؤد بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس، قال: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عهدكم يوم الجمعة، فخالفوا إلى السبت، فعظموه وتركوا ما أمروا به، فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله به، فحرّم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين إيلة والطور، يقال لها (مدين) فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها.

وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت عليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبت، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً، فكانوا كذلك حتى إذا طال الأمد وقرموا إلى الحيتان - يعني اشتدت شهوتهم - عهد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فحزمه بخيط، ثم

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٢٩.

(٢) سورة ق، آية ٣٨.

أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل، فأوثقه ثم تركه حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أي أني لم آخذه في السبت، ثم انطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان وعثروا على صنيع ذلك الرجل، ففعلوا كما فعل، وأكلوا سراً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم بعقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق.

وقالت طائفة منهم من أهل البقية - يعني أهل التمييز والفهم يبقون على أنفسهم بطاعة الله والتمسك بدينه -: ويحكم اتقوا الله، ونهوهم عما كانوا يصنعون، وقالت طائفة أخرى: لم نأكل الحيتان ولم ننه القوم عما صنعوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ولسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم، فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً فانظروا ما هو؟ فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوا ليلاً، فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد.

وقال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله بأنه أنجى الذين ينهون عن السوء لقلنا أهلك الجميع منهم، قالوا: وهي القرية التي قال الله لمحمد ﷺ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾[2].

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ قال: حرمت عليهم الحيتان يوم السبت فكانت

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٦٢.

تشرع إليهم فيــه فقــط بــلاء من الله ليظهر علمـــه فيمن يطيعــه ممن يعصيه. فصار القوم ثلاثة أصناف: صنف أمسك وانتهى عن المعصية، وصنف أمسك عن حرمة الله. وصنف انتهكها ومرد على المعصية، فلما أبوا إلاَّ الاعتداء إلى ما نهوا عنه قال الله لهم: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ فصاروا قردة لها أذناب بعد أن كانوا رجالاً ونساءً انتهى بتصرف.

وقوله تعالى: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ يعني فقلنا لهم صيروا قردة صاغرين مبعدين عن مجتمعكم ذليلين بتنكيس خلقتكم. فالخسء: هو الإبعاد والطرد، كقول الراجز: «كالكلب إن قلت له إخسأ انخسأ» يعني إن طردته طرد ذليلاً صاغراً.

وهذه العقوبة الفظيعة الشنيعة مناسبة لخبث نفوسهم، وسوء طريقتهم الملتوية، واستخفافهم بحساب الله سبحانه، وإلحادهم في أسمائه تعالى، فإن معصيتهم تضخمت جداً، لكونها مشوبة بالحيلة على الله، كأن الله غمر جاهل تنطلي عليه الحيل والتلبيسات ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(١) ﴿ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٢).

إن معصيتهم وإن كانت في الفروع فإن لها أعظم المساس في الأصول بادىء بدء لارتكازها على الحيلة (هذا من جهة) ومن جهة أخرى إصرارهم عليها وعدم انصياعهم لنصح الآمرين بالمعروف، اعتماداً على الاحتيال على الله استخفافاً بجنابه، وإلحاداً في بعض أسمائه، من العليم والخبير، والمحيط والبصير والرقيب والحفيظ، فكأنهم قالوا بلسان الحال أو المقال: إننا أمهر من الله وأحكم، إنه لا يعلم بحيلتنا وليس خبيراً بغايتنا

---

(١) سورة التوبة. آية ٧٨.
(٢) سورة النمل. آية ٧٤.

ولا محيطاً بكل ما نعمل، وليس يبصر ما نفعله بالسمك من اصطياده واحتباسه يوم السبت، وعدم إمساكه إلا في يوم الأحد وما بعده، وليس رقيباً أو حفيظاً يلاحظنا في كل شيء.

لقد جمعوا في خطيئتهم النكول عن عهد الله، والنكوص عن مقام الإنسانية، والنزول بشرفها إلى مستوى البهائم التي لا ترتفع عن حاجة البطون وشهوات النفوس.

ثم الانتقاص لله بالحاد في أسمائه حيث جرى ارتكابهم للخطيئة بوسيلة الحيلة التي فيها هدم للعقيدة والضمير، فلما وصلت بهم طبيعتهم اليهودية إلى هذا الحد استحقوا من الله تلك العقوبة الشنيعة، هم ومن سكت عن أمرهم بالمعروف، وعن نهيهم عن المنكر، لأن سكوته صادر عن إلحاد في أسماء الله، وتبديل للقول الذي قيل لهم.

فإن السكوت لا يصدر إلا عن عدم شعور بالمسؤولية أو افتراء على الله بأن يزعم الساكت أنه ليس مسؤولاً عن خطيئة غيره، كما يزعمه العصريون المعطلون لهذه الشعيرة، كغيرها من شعائر الإسلام، وكما يزعمه كثير من المسلمين المغفلين أو المتهربين عن واجبهم، والسالكين مسلك الانعزالية، فإنهم يضيفون إلى خطيئة تركهم الأمر والنهي افتراء على الله لا يشعر به أحدهم، إذ يقول (أنا في عاقبة)، ومن اعطاك صك العافية؟ إن الله لم يقل والعصر إن الإنسان لفي عافية، بل قال قوله العظيم الذي لا يتركه إلا خاطىء أو ملحد، وههنا مسائل:

(المسألة الأولى): هؤلاء الممسوخون قردة، هل يبقى لهم فهم وعقل يبصرون به ما حل عليهم من العذاب أم لا؟، والجواب على كل حال: أنه من مقتضيات العقوبة ولوازمها إبقاء أفهامهم ليعرفوا ما نزل بهم من العذاب، وينظر بعضهم إلى بعض بنظر التعارف الكامل، فيحسوا بشؤم المعصية وسوء عاقبة الفعل الذميم المركب من الخطيئة والحيلة، وإلا لما بقي للعقوبة فائدة.

(المسألة الثانية): هل يكونون متألمين بهذا المسخ، أو يكونون بمجرد المسخ غير متألمين، كالقرود الأصلية، لا تحس بألم ولا ترى بصورتها من بأس؟ والجواب: إن حالتهم ليست كحال القرود الأصلية، فإن الأصلية لا تتألم حال سلامتها، أما هؤلاء فإنه لا بد من تألمهم في تغير خلقتهم تألماً حسياً وتألماً معنوياً، عقوبة من الله، فهم لما تغيرت خلقتهم وصورتهم أنالهم الله آلاماً حين تغيرها، ثم أعقب هذه الآلام الحسية بآلام معنوية فيما يشهده كل واحد منهم بنفسه وبرفقائه وأقاربه وذويه، فتتقطع نفوسهم حسرات على سوء مصيرهم وما شاهدوه من ثمار خطيئتهم، إلا أنهم لا يقدرون على النطق والأفعال الإنسانية.

فهم في حالة ذعر وخجل وحسرة، يتذوقون منها صنوف الآلام التي ربما جعلها الله سبباً في كون الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، ولا يجوز أبداً أن يقاس عدم تألم القرود الأصلية على أولئك، فهذا قياس فاسد، لأن القرد الأصلي لا يذكر له صورة غير صورته أو خلقة غير خلقته، أما هؤلاء فمن مقتضيات الحال ولوازمها أن يكونوا على حالة تبقى جميع أحاسيسهم الإنسانية ليبصروا صنيع الله بهم، ويتذوقوا صنوف العذاب الحسي والمعنوي، وإلا فما الفائدة في مسخهم إذا كانوا لا يميزون ولا يتعارفون ولا يتألمون؟.

(المسألة الثالثة): قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ليس هذا أمراً لهم؛ لأنهم ما كانوا أبداً قادرين على أن يقلبوا أنفسهم قردة، فتتغير بها صورتهم الإنسانية إلى صورة قردية، وإنما المراد من ذلك سرعة التكوين منه سبحانه وتعالى كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

---

(١) سورة النحل، آية ٤٠.

والمعنى أنه سبحانه وتعالى لن يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بهؤلاء، بل لما قال لهم كونوا قردة صاروا كما أراد الله بهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾[1].

ولا يمتنع أن يخاطبهم الله بذلك، وأن يصيروا قردة كما أراد ذلك. لكن المؤثر في هذا التكوين الجديد هو قدرة الله وإرادته.

(المسألة الرابعة): روي عن مجاهد رحمه الله أن المسخ لقلوبهم بالطبع والختم وليس لصورهم. وهذا القول مخالف لما عليه الجمهور بالإجماع. كما أنه مخالف لمنصوص القرآن مما سنوضحه، وقد تشبث بقوله بعض المفسرين في هذا القرن ممن حاولوا إخضاع نصوص القرآن لعقول الغربيين ومفاهيمهم الفاسدة. وقد استدل (مجاهد) على امتناع المسخ الحسي بشبهة:

إن المسخ يكون فيه إيجاد وإعدام، أي إعدام لهيكل الإنسان. وإيجاد لهيكل قردي مكانه، وهذه الشبهة مردودة بعدة أمور:

أولاً: إن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل. لأنه قد يكون سميناً أو هزيلاً. سميناً بعد هزاله، أو هزيلاً بعد سمنه، فالأجزاء حينئذ مستبدلة.

ثانياً: إن الإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس على ما قدره النظار، وعلى كل حال فلا مانع من تطرق التغير إلى هيكله.

ثالثاً: إن المسخ لا يكون إعداماً بالكلية للجسم الأصلي، وإيجاداً بالكلية للجسم الممسوخ الثاني، وإنما هو تغيير في الصورة وانكماش ببعض الجوارح. وعلى كل حال حتى لو نزلنا إلى ما يقوله فلا يمتنع من قدرة الله ولا على حكمته أن يغير بعض الصورة أو جميعها، أو يغير الهيكل بتمامه، ويوجد هيكلاً آخر مكانه.

---

(١) سورة النساء. آية ٤٧.

فالمسخ الحسي جائز على كل تقدير، بل ينبغي اعتقاده. ولا يجوز العدول عنه بضروب التأويل، لأن هذا من الظلم بتعبير القرآن، وضرب بعضه ببعض. ولا يجوز قطعاً تأويل مسخهم بالطبع والختم على القلوب، كما قاله مجاهد رحمه الله. لأن الطبع والختم عام شامل لجميع الكفار من أقدم العصور إلى أحدثها. كما قال تعالى في شأن الكفار أجمعين: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[1].

وكما قال في بني إسرائيل: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2].

رابعاً: قوله - إن جوزنا ذلك لما أمِنّا في كل ما نراه قرداً أنه كان إنساناً عاقلاً - فنقول: يحصل الأمان بإجماع الأمة استناداً على الأحاديث الصحيحة. أن الممسوخ لا يعيش، فضلاً عن أن يتناسل.

خامساً: إن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فمهما حاول المتأول تأويل جملة منه نازعته الجملة الأخرى ووقفت دون ما يريد، كأنها تقول للمتأول: «لا تظلم سابقتي بتأويل لا يريده الله».

فمن نظر إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[3] جزم غاية الجزم أن المسخ حسي لا معنوي، لأن المسخ المعنوي لا يكون فيه عبرة ولا نكال ولا موعظة، حيث إنه لا يبصره كل واحد. ولا يحس به أكثر المبصرين، وذلك أن عقوبة القلوب عامة في جميع الكفار والمنافقين وبعض الفاسقين وأكثر المبتدعة من أهل القبلة. لكن لا يحس بهذا المسخ إلا النادر. فلا يكون فيه موعظة ولا نكال

---

(١) سورة البقرة. آية ٧.
(٢) سورة النساء. آية ١٥٥.
(٣) سورة البقرة. آية ٦٦.

أبداً لعدم إبصار الأكثرين له، بخلاف المسخ الحسي الذي حل بأصحاب السبت، فإنه شيء شاهده قومهم ومجاوروهم، وأجمعت كتبهم على نقله، وانتشرت أخباره من الأقدمين إلى الآخرين، فلهذا قال الله سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ ممن حضرها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن لم يحضرها، ولكن تواترت أخبارها عنده ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتعظون به، فلا يعملون مثل عملهم خوفاً من أن يصيبهم ما أصابهم من هذا المسخ الحسي الشنيع، وتخصيص المتقين بالاتعاظ، لقوة إيمانهم بالغيب، وخشيتهم من الله، فهم يتعظون بالحوادث، ويعظ بعضهم بعضاً.

فهذه الآية تدل بكل جلاء ووضوح على أن هذا المسخ حسي لا معنوي، وأن ما قاله (مجاهد) رحمه الله يعتبر هفوة كبيرة منه على قدر كبره، تغمده الله بعفوه وفضله.

فقوله سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ يعني جعلنا هذه الأمة الممسوخة زجراً وقيوداً ولجاماً ينكل، يعني يمنع غيرهم من ارتكاب خطيئتهم، يمنع (ما بين يديها ممن) حضرها وشاهدها، ويمنع (ما خلفها) من الأمم اللاحقين ممن سمعوا بخبرهم الشنيع وعقوبتهم الفظيعة.

(المسألة الخامسة) أشكل على بعض الناس ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: « **فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت ولا أراها إلا الفأر** »[1].

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٥١) في بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع به شغف الجبال، ومسلم برقم /٢٩٩٧/ في الزهد باب في الفأر أنه مسخ، وكلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وتمام الحديث... ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت؟).

وإنه امتنع عن أكل الضب خائفاً كونه مما مسخ، وما رواه البخاري في تاريخه[1] لا في صحيحه عن عمر بن ميمون أنه رأى في الجاهلية قردة قد زنت فرجمتها القردة فرجمتها معهم، مما استشهد ابن العربي في الأحكام على تناسل الممسوخين.

وقد محص العلماء الأعلام هذه الأخبار، فقالوا عن تخوفه صلى الله عليه وسلم من الفأر والضب أن هذا كان بادىء الأمر قبل أن ينزل عليه الوحي، بأن الله لم يجعل للمسيخ نسلاً، فهذا حدس منه قبل نزول الوحي، أما بعده فقد أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير - هي مما مسخ؟ فقال: «**إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك**»[2].

وهذا نص صريح صحيح أخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر عن عبد الله بن مسعود. وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر.

وأما خبر القردة المرجومة من القرود فلا يصح، وكلها تدور على عباد ابن العوام عن حصين وعلى عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حطان، وكلاهما لا يحتج بهما، فيعتبر الخبر ساقطاً من أساسه[3]، ولو صح على سبيل الفرض والجدل لكانت تلك القرود من الجن المتشكلة، لأن الحيوان لا تكليف عليه.

---

(١) قلت: أخطأ الشيخ رحمه الله وغفر له، فإن البخاري قد رواه في صحيحه (١٢١/٧) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب أيام الجاهلية، أما الرواية التي في تاريخ البخاري الكبير فليس فيها زيادة (قد زنت) وقد أطنب الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢٢/٧) في الرد على من تكلم في الحديث فليراجع ففيه خير كثير.

(٢) رواه مسلم برقم /٢٦٦٣/ في القدر، باب بيان أن الآجال والارزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر.

(٣) أقول لقد وقع الشيخ الفاضل في خطأ أخر بإسقاطه الرواية الثابتة في صحيح البخاري رحمه الله، وأؤكد على الرجوع إلى ما ذكره الحافظ في الفتح من الرد المطول الذي ينفي كل الشكوك حول الحديث.

(المسألة السادسة) هناك دليل من القرآن في سورة المائدة على أن مسخ أصحاب السبت مسخ حسي لا معنوي، وهو قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾(١).

قال المفسرون: مسخت شيوخهم خنازير وشبابهم قردة؛ فلما شاهدهم الذين يناصحونهم أخذوا يكلمونهم ويذكرونهم بالنصيحة فلا يستطيعون جواباً إلا البكاء، وهذا مما يرد قول مجاهد. قال ابن جرير: (قول مجاهد خلاف قول جميع الحجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعاً عليه، وكفى دليلاً على فساد قوله إجماعها على تخطئته).

(المسألة السابعة): في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ تحذير لبني إسرائيل المعاصرين لدعوة محمد ﷺ من تماديهم في الجحود والعناد، أو تحايلهم على النصوص، أن يصيبهم مثل ما أصاب أصحاب السبت من المسخ، الذين يذوقون به الخزي في الحياة الدنيا، خصوصاً، وهذه الواقعة معلومة عندهم ومشهورة، لا يجادل فيها اثنان، ويعلمون أن مسخهم كان حسياً فظيعاً شنيعاً.

(المسألة الثامنة): في ابتلاء الله لهم وإمهاله حتى تمادوا في المعصية وجاهروا بها، قال تعالى في سورة الأعراف آية (١٦٣): ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ قال بعض الجدليين -هذا منه إثارة للفتنة وإرادة للإضلال - والجواب: ليس كذلك وإنما الابتلاء هو الامتحان والاختبار فابتلاهم الله بجعل السمك يتوارد عليهم يوم السبت ويذهب عنهم بالكلية في غيره، ليمتحنهم في الثبات على الإيمان، والتمسك بأداء حق الله، والوقوف عند حدوده، وليميز بين خبيثهم وطيبهم، ومؤمنهم وفاسقهم، وليظهر على الخفي فيما بينهم، فيصرف الطيب منهم للخبيث ويزجره حتى ينفصل عنه، فيسلم من العقوبة.

---

(١) سورة المائدة، آية ٦٠.

وليس في هذا إثارة للفتنة، ولا إرادة للإضلال، كما يزعمه أهل الجدل والمشاغبات من ذوي المذاهب الضالة، بل في هذا تحقيق للجهاد النفسي الذي هو لباب الدين والإيمان، فالذين جاهدوا أنفسهم لله صبروا على هذه المحنة التي لا يأتيهم فيها السمك المحبوب إلا في اليوم المحرم عليهم صيده، فصبروا أنفسهم على طاعة الله، وأوقفوها عند حدود الله، فسلموا من تلك العقوبة، وأقاموا حجة الله على قومهم الذين انهزموا هزيمة نفسية، سقطوا بها في ذلك الامتحان.

فهذا فيه تمحيص للقلوب وتقوية للإرادة النفسية، وهو من أسباب الرشد والهداية لا الإضلال كما زعموا، ثم إنه كيف تحصل ثمرات التكليف إلا بمثل ذلك لو كانوا يعقلون.

(المسألة التاسعة): هذه القصة التي أجملها الله هنا وفصلها في سورة الأعراف في احتيال أصحاب السبت على الله في صيد السمك وإجراء العقوبة الصارمة الشنيعة عليهم، فيها وعيد وتحذير لهذه الأمة المحمدية من سلوك شيء من مسالك الحيل، يتخذونه ذريعة إلى ارتكاب الحرام أو فعل الحرام، خصوصاً وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** ﴾[1] يعني تنكــــل من ورائهم فــــلا يعملون بعدهم مثل هذا الذنب المزوج بالحيلة ﴿ **وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾. الموعظة: هي ما يرقق القلب ويلينه، والمتقون: الخائفون عذاب الله، المبتعدون عن مساخطه، الطالبون لأنفسهم وقاية من عقوباته بحسن مراقبته، والتزام أوامره، وحفظ حدوده، دون تجاوز لها.

فجميع الحيل محرمة في دين الله تحريماً شديداً قاطعاً، وقد عقد الشيخ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي في كتابه (المغني) باباً طويلاً مفيداً شافياً في تحريم جميع الحيل والتمثيل لها، سواء في النكاح أو الطلاق

---

(١) سورة البقرة، آية ٦٦.

أو أكل الربا أو في سائر المعاملات، وذكر عقوبة الله لأصحاب السبت من الفاعلين. وممن لم ينكر عليهم من قومهم، وسلامة من لم يفعل وأنكر واعتزل. فليراجعه كل راغب في العلم والخير فإنه لا يستغني عنه.

والآن كثر المتحايلون على الله في مسائل النكاح والطلاق وأكل الربا. فتجدهم في النكاح يعمدون إلى الشغار[1] بحيلة دفع الصداق مع وجود الغرض النفسي المجحف بالمولية مما لا يصح معه نكاح، ويتحيلون في الطلاق بالتيس المستعار[2] وغيره، وعلى التخلص من الأيمان، ويتحيلون على أكل الربا بما يجمعون به بين العينة والربا، يأتي أحدهم إلى الآخر يريد دراهم، فيتفق معه على مرابحة عشرية معلومة، ثم يقول له - اشتري لك سكراً أو أرزاً، فيقبل ويشتري له ما لم يكن في حوزته، ثم يقول له اقبض، ويوقفه على باب مخزن أو مستودع، فيلمس ما يقدر على لمسه من المال، ويعدونه قابضاً، ثم يقول له: إنك ستبيعه فراجعني عليه، فيراجعه بالمساومة حتى يبيعه عليه ويستلم الثمن ببيع صوري لم يربح منه حامل ولا وازن ولا

---

(١) (الشغار): قال الخطابي: أصل الشغار في اللغة الرفع. يقال شغر الكلب برجله إذا رفعها عند البول. وسمى هذا النكاح شغاراً، لأن المتناكحين رفعا المهر بينهما) أ.هـ.

وقد ورد معنى الشغار شرعاً كما في الحديث المتفق عليه عند البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار. وهو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته لرجل على أن يزوجه ابنته أو أخته وليس بينهما صداق) انظر البخاري (١٣٩/٩) في النكاح. باب الشغار، ومسلم برقم/١٤١٥/ في النكاح، باب تحريم نكاح الشغار.

(٢) (التيس المستعار): وهو أن يتزوج الرجل المطلقة ثلاثاً، لا رغبة في زواجها وإنما ليحلها إلى مطلقها الأول عن اتفاق بينهما. وكان هذا يعد سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، وفي الحديث عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم **بالتيس المستعار**؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: **هو المحلل، لعن الله المحلل، والمحلل له**). والحديث أخرجه ابن ماجة برقم/١٩٣٦/ والحاكم (١٩٨/٢) والبيهقي (٢٠٨/٧). وقال الحاكم صحيح الاسناد ووافقه الذهبي. قلت: والمتقرر عند أهل الحديث أن إسناده حسن.

خازن. وليت شعري لو زاد سعر السلعة المبيعة على المستدين قبل أن تتم حكاية بيعها على الدائن، ماذا يكون الحال؟

لقد وقع فعلاً. فأبى البائع الدائن تسليم المبيع للمشتري المستدين المسكين. مدعياً أنه باع ما ليس عنده، ووجد له بعض المشايخ خلاصاً، بل في بعض البلاد الصغيرة التي يتعاطى أهلها تلك المعاملة، يتبايعون الآلاف من أكياس السكر، وليس في بلدهم كلها إلا الربع أو الخمس مما يتبايعونه.

هذه نماذج يسيرة من الحيل التي ورث أربابها أصحاب السبت، وقد ذكر ابن القيم عدداً كبيراً من الحيل في كتابه (أعلام الموقعين) جرت في زمنه، وأغلبها مستعمل في زماننا، ولكل قوم وارث، ولا يتحمل هذا الموقع أكثر من تلك الإشارة، فليتقوا الله، ويبتعدوا عن موجبات سخطه من عقوباته الهائلة المتنوعة التي لا تحيط بها العقول.

بقرة بني اسرائيل

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

هذا هو النوع الثاني مما وجه الله إليهم من التشديدات، لأن الأول هو ما حصل على أصحاب السبت، والثاني ما حصل على أصحاب البقرة. والأمر بالذبح جاء مقدماً على سببه الذي هو قتل النفس وعلى الخلاص منها، فإنه سبحانه قدم ذكر وسيلة الخلاص التي هي ذبح البقرة.

والقرآن الكريم لا يراعي الترتيب والتنسيق كالمؤرخين، إنما يراعي التأثير بالسامعين، لأنه كتاب هداية، وأسلوبه هذا أدعى لتشويق السامع، وبعث همته على البحث عن معرفة السبب في الذبح، ومفاجأته بحكاية ما دار بين موسى وقومه من الجدل، فإن الحكمة في أمر الله بذبح بقرة إذا خفيت يحرص السامع على طلبها، فطريقة الله في وحيه المبارك تأخذ بمجامع القلوب، وتحرك الفكر تحريكاً إلى تدقيق النظر، وتهز النفس هزاً قوياً إلى الاعتبار، وهذه القصة من جملة القصص التي اقتضت حكمة الله

---

(١) سورة البقرة، آية ٦٧.

أن يقصها علينا للاعتبار بها والابتعاد عن مشابهتهم، وفيها من المواعظ والعبر عدة أمور:

(أحدها): ان التنطع في الدين وكثرة الأسئلة مضرة فعلاً، محرمة شرعاً، لكونها تقضي إلى تشديد قد يؤول أمره إلى التعطيل فيكفر صاحبه، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾[1] وقال صلى الله عليه وسلم: «**ذروني ماتركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[2]. وقال ما معناه: «إن أشد الناس جرماً[3] على هذه الأمة من سأل عن شيء فحرم عليهم من أجل مسألته»[4].

(ثانيها): ان الله أمرهم بذبح بقرة دون غيرها من سائر الحيوان ليقتلع من نفوسهم كل تقديس للبقر، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، فينقلب التقديس إلى إهانة واحتقار بدلاً من الحب والتعظم، وبهذا امتحان كبير لنفوسهم، فبعد أن أحرق موسى العجل الذهبي وذراه في البحر جاءهم هذا الأمر الذي يقضي على ما تبقى في نفوسهم من تقديسه قضاء مبرماً.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان، ١٠١ - ١٠٢.

(٢) رواه البخاري (٢١٩/١٣) في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ ومسلم برقم/١٣٣٧/ في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، وكلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وتمام الحديث:... فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم).

(٣) (جُرماً) الجُرم: الذنب.

(٤) رواه البخاري (٢٢٦/١٣) في الاعتصام. باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ومسلم برقم/٢٣٥٨/ في الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، وهو من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. ولفظ الحديث: (إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسألته).

(ثالثها): استهزاؤهم بأوامر نبيهم وصمتهم له بخلقهم الشنيع حيث ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ وهذا من قلب الحقائق ورمي البريء، بما الرامي به ألصق، كقول المثل: (رمتني بدائها وانسلت).

(رابعها): إظهار عجائب قدرة الله سبحانه في اختراع الأشياء من أضدادها، حيث أحيا الله القتيل بمجرد ضربه بجزء منها، كما سيأتي بيانه.

(خامسها): زيادة الإعلام من الله لهذه الأمة بما جرى من بني إسرائيل من أنواع اللجاجة والتلكؤ في الاستجابة، وانتحال المعاذير للتخلص من التنفيذ، مما يدلنا على جوانب جديدة من طبيعتهم الذميمة وسلاطة ألسنتهم، وقلة إيمانهم بالغيب، مما ستكشفه الآيات القادمة.

وهو أنهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾(١).

عادوا مرة ثالثة يسألون عن الماهية، ماهية البقرة المأمورين بذبحها، متعللين بأن وجوه البقر تتشابه عليهم، وحينئذ كلفهم الله بقيود صعبة المنال، فأجابهم موسى عن ربه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾(٢).

فشددوا، فشدد الله عليهم بأنهم كلما زادوا موسى عليه السلام أذى وتعنتاً، زادهم الله عقوبة وتشديداً في الأوصاف والقيود قائلاً: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يعني صعبة لم تذلل بالعمل لإثارة الأرض بأظلافها ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ لا يسنى عليها لإخراج الماء للحرث ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ من كل عيب وأذى فهي سليمة من العيوب كافة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ يعني ليس فيها

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٠.
(٢) سورة البقرة، آية ٧١.

لون آخر يخالف لون جلدها أبداً، وأصل الوشي: تحسين عيوب الثوب بضروب مختلفة من الألوان ثم استعير للواشي يأخذ إلى السلطان، لأنه عند سعيه بإضراره يعمل على تحسين قوله بالأباطيل «وأقوال الشعراء في الوشاة كثيرة».

ثم قال الله عن بنى إسرائيل في شأن البقرة: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

وفي قوله سبحانه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ شروح وتفاريع للمفسرين، أعدلهم من قال يعنون ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ بينت لنا الحق فاتضح وعرفنا أي بقرة عنيت، وبعضهم قال: إن قولهم يوجب الردة عن الدين لاقتضائه أن موسى لم يأتهم بالحق قبل ذلك، ولكن إذعانهم وانقيادهم للتنفيذ يبطل هذا القول ولا يكون كفراً إلا إذا اعتقدوا أن ما تقدم من الأوامر ما كانت حقاً.

أما والحالة هذه فقولهم يحتمل أنه الآن ظهرت لهم حقيقة ما أمروا به بذلك التمييز في الأوصاف،

وقال بعض المفسرين: إن قول بني إسرائيل ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ هراء من القول وخطأ وجهل من الأمر، لأن نبي الله موسى كان مبيناً لهم في كل مسألة سألوها في أمر البقرة، وإنما يقال ذلك لمن لم يكن مبيناً قبل ذلك، فأما من كان جميع قوله فيما بلغه عن الله حقاً وبياناً، فغير جائز أن يقال له في بعضه دون بعض ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذلك. وعلى كل حال فقولهم هذا جهالة من بعض جهالتهم، وهفوة من بعض هفواتهم، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ يعني ذبح قوم موسى تلك البقرة التي وصفناها لهم وما كادوا يذبحونها. لقد قاربوا من ترك ذبحها المفروض عليهم.

---

(١) سورة البقرة. آية ٧١.

قال بعض المفسرين: إنه لغلاء ثمنها، لأنهم لم يجدوا بقرة على هذه الأوصاف إلا عند رجل واحد، فأبى أن يبيعها، إما طمعاً أو إرضاء لوالديه، كما في بعض الروايات إنه أبى أن يبيعها إلا بملء جلدها ذهباً، وقيل إنهم لم يكادوا يفعلون لخوف الفضيحة أن بين الله قاتل القتيل الذي اختصموا فيه إلى موسى، والأولى أن يكون السبب في كونهم لم يكادوا يفعلون هو جميع الأمرين. غلاء الثمن والفضيحة.

ولا ريب أن مجتمعهم قد فشا فيه الشغب والدجل من عصبة القاتل في جميع ملابسات شأن البقرة وحوارهم مع موسى في صفاتها. لأن للدعاية تأثيراً كبيراً في اللف والدوران، وقد روى بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ يقول كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، قال ابن جرير رحمه الله: (وكل شيء في القرآن - كاد - أو كادوا - أو لو - فإنه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾).

أقول: ومن تتبع سيرة القوم الملتوية وطباعهم الخسيسة جزم من حرف (كاد) الذي اختاره الله أنهم كادوا لا يفعلون، لأن الشروط قد تضاعفت بتضاعف تلكؤهم، والأمر قد تعقد عليهم وضاق مجال الاختيار حيث ضيقوا على أنفسهم. ولولا حاجتهم الملحة الشديدة لكشف الغمة التي حلت بهم من القتيل الذي سيجري بسببه مجزرة عظيمة. فلولا خوف التفاني ما ذبحوها لصعوبتها عليهم. ولهذا قال العليم الخبير: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾(١).

هذه الآية مما وبخ الله أحفاد بني إسرائيل بسوء أعمال أجدادهم. والسبب في هذا الأمر أنه كان فيهم رجل غني عقيم ولا ولد له. فقام

---

(١) سورة البقرة. آية ٦٧.

قريب له يريد إرثه، فقتله واحتمله حتى وضعه في حي سبط غير سبطه، ولما أصبح أخذ يسأل عنه ويصيح بالويل والثبور، فلما وجده أخذ يطالب أهل ذلك الحي بقوده أو ديته، فلم يقبلوا، وطال نزاعهم حتى كادوا يقتتلون. فقال أولو الرأي والنهي منهم: كيف تقتتلون. وفيكم رسول الله، وكان كل فريق منهم يدفع التهمة عن نفسه ويلقيها على غيره.

فــذلــك قولــه سبحـــانــه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[1] فلما شكوا الأمر إلى موسى، واستلهم وحي الله في هــذه الحــادثــة، أوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة، وذلك لما قدمنا من الأسباب، وحينئذ قالوا أتتخذنا هزواً، فظنوا به أنه هازىء لاعب، ولا يجوز لهم أن يظنوا ذلك بنبي الله وهو يخبرهم أن الله أمرهم بذبح البقرة. ولكنها النفس اليهودية الخبيثة التي عجزت أنبياء الله عن تربيتها. فضلاً عن تصفيتها.

و (الهزء): هو السخرية واللعب، وحيث إنه لا ينبغي لنبي من أنبياء الله الهزء واللعب فيما يخبر به عن الله، فإن هذا من الجهل المخالف لمقام الأفاضل، فكيف بمقام الأنبياء، لهذا برأ موسى نفسه من ذلك أعظم تبرئة، حيث لاذ بالله والتجأ إليه من هذه الوصمة الشنيعة، قائلاً: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2] يعني من السفهاء الذين يروون عن الله الكذب والباطل.

ثم هل اكتفت بنو إسرائيل بهذا، فنفذوا بدون تلكؤ ولا مماطلة..! لا. إنهم لم يكتفوا، ولو اكتفوا وذبحوا أي بقرة لأجزتهم وقضى الله بها أمره فيما بينهم، ولكن على العكس عادوا إلى طباعهم اللئيمة.

ولله در موسى. كيف أجابهم بكل أدب ولطافة، نافياً عن نفسه ما اتهموه به على أبلغ وجه وأوكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٢.

(٢) سورة البقرة، آية ٦٧.

بالاستعاذة منه، استعظاماً له واستفظاعاً لما شافهوه به وما قابلوه من الفظاظة وسوء الأدب، ولو كان عندهم مسحة من ضمير ما قابلوه بهذا، وهم يعلمون أنه زعيمهم، بل نبيهم الذي أنقذهم الله به من العذاب المهين، وأجرى عليهم من النعم ما لم يحصل لغيرهم من العالمين.

ثم هل خالجهم الحياء ودب إليهم شيء من الوجدان ففعلوا ما يؤمرون؟ كلا بل هي طبيعتهم الملتوية جعلتهم يعودون إلى السؤال عن ماهية البقرة وهي بقرة، وسؤال بطريقة بشعة ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ولم يقولوا (ادع الله - أو ادع ربنا) ولكن تشابهت قلوبهم مع الفراعنة.

ثم إن تكرار السؤال ينبىء عن موقف الإنكار والاستهزاء، لا عن موقف الإيمان والتسليم، ولكن موسى يقابلهم بكل لطف لما قالوا: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾[1] يعني أنها ليست كبيرة عجوزاً وليست بكراً صغيرة لم ينز عليها الفحل، ولكن هي عوان بين ذلك، متوسطة في السن.

وفي هذا الجواب الرقيق البليغ كفاية لمن يريد الهداية، ولكن تأبى عليهم نفوسهم إلا الشغب والإلحاح في السؤال: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ﴾ وأي حاجة لكم في لونها؟ لقد أرشدكم الله إلى ماهيتها وأنها بقرة متوسطة السن، ومتوسط السن من الخيار، فهلا يكفيكم ذلك؟ إنه لا يكفيهم ذلك بل تأبى عليهم طباعهم.

وهناك يشدد الله عليهم قائلاً لهم على لسان موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، آية ٦٨.

(٢) سورة البقرة، آية ٦٩.

والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض. فلونها فاقع الصفرة ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ يعني تعجب الناظرين في خلقها ومنظرها وهيئتها، وقد قيدها الله بهذا اللون النادر الوجود لعدم استجابتهم لأمره، حيث قال في بيان هيئتها الأولى: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ افعلوا ما أمرتكم به وتدركوا حاجتكم ومطلبكم. وتحصلوا بطاعتي على العلم بقاتل قتيلكم ولكنهم أبوا فجاءهم تشديد جديد.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1].

ذكرنا فيما مضى أن السبب في أمر الله لهم بذبح البقرة هو حادثة القتل التي اتهم بعضهم فيها البعض الآخر، وكل فريق منهم يدفع التهمة عن نفسه ويلصقها بغيره لشدة ما بينهم من الإحن والعداوات، حتى كادوا أن يقتتلوا جميعاً، ولما سألوا موسى الكشف عن الحقيقة قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ وجرى منهم من التعنت على موسى واتهامه وكثرة الإلحاح معه في السؤال عن صفات البقرة مما جلب عليهم التشديد وتعقيد الأمور المناسب لنفوسهم المعقدة.

وقد ورد أثر موقوف على ابن جريج وابن عباس أنهم لو ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم، ولكنه شددوا، فشدد الله عليهم، وزعم بعضهم رفعه إلى الرسول ﷺ، ولكنه مرسل على التحقيق[2].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ٧٢ - ٧٣.

(٢) الأثر رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (١/٣٣٩)، وكذا ابن كثير في تفسيره (١/٩٨). والموقوف صحيح الإسناد، أما المرفوع فهو ضعيف للإرسال كما ذكره المؤلف رحمه الله.

وقد روى ابن جرير عن بشر قال حدثنا يزيد، قال حدثنا سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «**إنما أمر القوم بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم، والذي نفس محمد بيده لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الآبد**» يعني لو لم يقولوا: ﴿**وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ**﴾[1].

وقد أضاف الله الجريمة إلى الجميع بقوله: ﴿**وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ**﴾، لأنهم مسؤولون عنها جميعاً حتى يجتهدوا بنصح وإخلاص خال من الحمية والعصبية في كشف المجرم ليلقى جزاءه، فالأمة كالجسد الواحد، وقد سبق القول في معنى ﴿**فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ**﴾ يعني تدافعتم وتخاصمتم في شأنها، كل سبط يدرأ الجريمة عن حزبه ويتهم بها الآخرين، قال رؤبة بن الحجاج:

أدركتها قدام كل مدره ... بالدفع عني درء كل عنجه

ولقد انكشفت حكمة الله لبني إسرائيل من ذبح البقرة، وأخرج الله ما كانوا يكتمونه من أمر القتيل الذي بسببه كادت تعمهم الفتنة والنقمة، فصار ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، ليخبرهم بنفسه عمن قتله، لقد جعلها الله وسيلة، وهو سبحانه قادر على إحيائه بغير وسيلة، ولكن اقتضت حكمته أن لا يحيا إلا بعد جهد وامتهان وثمن باهظ كادوا بسببه أن لا يفعلوا.

هذا التكليف الذي كلفهم الله به دون أن يعرفوا غايته، فيه امتحان لذي الانقياد والتسليم، وقد علمت ما قابلوا به موسى من التعنت والأمر المريب، وما ألجأهم في النهاية إلى التنفيذ ﴿ **فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ** ﴾ وهنا يوبخهم الله ﴿ **وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ** ﴾ من أمر القتيل حمية على القاتل، وعدم رحمة بالمقتول، ومن يبكيه ومن يحزن عليه، وعدم مبالاة

---

(١) أنظر ابن جرير الطبري في جامع البيان (٣٤٨/١) في تفسير سورة البقرة الآية /٧٠/.

بتهمة الأبرياء الذين تضطرهم الحالة إلى الدفاع عن أنفسهم ورفض عار الجريمة وشناعتها، ثم عدم المبالاة بفتنة لا يعلم أيان مرساها إلا الله.

ما أقسى هذه القلوب التي تريد لها معجزة فاضحة. تدفع أربابها على رؤوسهم وتخسئهم بين باقي الأسباط. وتبين للجميع مدى قدرة الله وعظيم حكمته ورحمته. ولذا قال لهم بعدما ذبحوا البقرة ﴿ اَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ بجزء منها غير معين، بل اختاروا أنتم قطعة منها واضربوه بها، وجعلهم يتولون أمر الضرب هم بأنفسهم ويباشرونه دون موسى عليه السلام، لأن الله يعرف دفائن أنفسهم الخبيثة، وأنه لو ضربه موسى ببعضها من دونهم لرموه بالسحر والشعوذة، أو زعموا أن هذا من خصائصه، كاليد والعصا والصخرة ولكن جاء قدر الله وأمره بوسيلة هم يباشرونها بأنفسهم لينقطعوا أمام حجة الله البالغة وآياته التي هي فوق مستوى أي بشر، ولذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١).

هنالك شاهدوا من قدرة الله وتأثيره في الكائنات مدهشاً لا يعرفون كنهه. وليس لديهم أمامه إلا الاعتراف والتسليم. قطعة لحم من حيوان مذبوح يضرب بها مَيْتٌ قد صار جيفة فينهض حياً ناطقاً، يخاطبهم ويخبرهم بالذي قتله. هكذا القدرة الإلهية. لا يستعصي عليها شيء.

إن هذه الحادثة العظيمة والمعجزة الباهرة المخضعة للرقاب طوعاً أو كرهاً قد شاهدها القوم مشاهدة عيان لا يمكن إنكارها. وهي أيضاً من معجزات محمد ﷺ. حيث أخبر بها أمته. وذكر بها أحفاد بني إسرائيل. ولم يجرؤ أحد منهم على إنكارها. مع أنهم أمة البهت والفجور. وقد أرى الله بها بني إسرائيل سراً من أسرار ألوهيته. وأعجوبة عظيمة من عجائب

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٣.

قدرته. لا سبيل إليها في عالم الماديين، بل ولا في طاقة العقول البشرية جميعاً، كيف باغت الله بهذه الحادثة خصوماً لؤماء ألداء كتموا الجريمة لحاجات وأهواء في صدورهم، لتكون النكاية بغيرهم من دونهم، ففضحهم الله بانتفاضة المقتول لما ضربوه ببعض لحم البقرة أو أجزائها، فقام حياً يكلمهم ويهتك أستار المجرمين،وصدقهم الله قوله بإنجاز هذه القدرة ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ لقد دفع الله الباطل وأظهر الحق وهلهل استار التلبيس وبرهن لهم على قدرته في إحياء الموتى إحياءً حسياً وإحياءً معنوياً.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أراهم الله بالعيان نوعي الإحياء الحسي والمعنوي، فالحسي إحياء القتيل وقيامه من بينهم وهم ينظرون، وأما الإحياء الثاني فهو إنجاؤه للفريقين المتخاصمين، بل لعدة فرق وأسباط، أو لكل الأسباط الذين تجرهم الفتنة إلى قتال يفنون فيه، فالله أنقذهم من الموت المحقق الشنيع الذي سيجري عليهم بالتقاتل، وذلك بإحياء القتيل وإخباره إياهم بالذي قتله. وهنالك خمدت الفتنة وحيت نفوسهم جميعاً، فيا لها من آيات باهرة نزلت عليهم فيها رحمة الله.

ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تفهمون مدى قدرة الله التي لا تقف عند حد ولا تحيط بها العقول، وتفهمون أسرار شريعته في أمره ونهيه، وتدركون فائدة الخضوع لها، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها وتكبحونها عن جماحها، وتؤمنون بجميع آيات الله التي جاء بها موسى، والتي جاء بها محمد عليهما الصلاة والسلام، ولا تجحدون شيئاً منها لأغراض في نفوسكم. فإنه لا يستقيم لكم الإيمان بموسى حتى تؤمنوا بكل نبي ورسول بعده، وعلى الأخص خاتمهم محمد ﷺ. فإن لم تحققوا هذا فإنكم لم تفعلوا آيات الله ولم ترعوها حق رعايتها، فهذا الخطاب منه سبحانه وتعالى عام في جميع بني إسرائيل الأقدمين والآخرين.

إن من لم يستفد من هذه القصة بمشهدها الأخير، زيادة عقل وتفكر، وقوة إيمان، ولين قلب، وصفاء نفس، فبأي شيء يستفيد؟ إن بني إسرائيل بهذا المشهد الهائل العجيب يجب أن تنحشي قلوبهم بالتقوى والخشية والمراقبة لله، وأن تجيش بجميع أنواع الحساسية، فتخشع وتلين لما شاهدت من الحق، ولكن الله سبحانه يخبرنا عن انعكاس أحوالهم في الآية (٧٤) من قسوة القلوب التي ليس لها نظير، ثم إن ههنا فوائد.

(الأولى): في قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ تدل على إحاطة عمله بجميع المعلومات العلنية والسرية والفعلية واللفظية والنفسية، فهو عالم بجميع ذلك، وقادر على إظهار المكتوم منه.

(الثانية): تدل هذه الآية على أن ما يسره العبد ويكنه من خير أو شر فإن الله سيظهره. قال صلى الله عليه وسلم: «**لو إن عبداً أطاع الله من وراء سبعين حجاباً لأظهر الله ذلك على ألسنة الناس**»[1] وكذلك المعصية.

(الثالثة): هذه الآية من العام المراد به الخصوص، لأن قوله: ﴿**مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ عام في كل مكتوم، ولكن الله يريد إظهار ما كتموه في هذه الواقعة فقط.

(الرابعة والخامسة): الأمر المطلق يقتضي الوجوب ويقتضي الفورية، لأن الله ذمَّ المتثاقلين في تنفيذه، مع اشتغالهم بطلب مقتضاه والسؤال عن ماهيته، كما ذمهم على التراخي في الفعل عند ورود الأمر المجرد من هاتين القاعدتين من قواعد الأصول.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. وإنما وجدته بلفظ: (لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب لها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وعند الجميع من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
وأخرج البيهقي عن ثابت قال: (كان يقال لو أن ابن آدم عمل بالخير في سبعين بيتاً لكساه الله تعالى رداء عمله حتى يعرف به).

(**السادسة**): قال الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لو لم يقولوا إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبداً**»[1]، فهذه اللفظة المباركة مستحبة في كل عمل يراد تحصيله، وقد قال الله سبحانه لنبيه عليه الصلاةوالسلام: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2]، لأن في هذه الكلمةاستعانة بالله، وتفويض الأمر إليه، وتجديد الاعتراف بقدرته، ونفاذ مشيئته.

(**السابعة**): تساءلوا عن تخصيص الأمر بذبح بقرة دون غيرها من الأنعام، وأجابوا بعدة أشياء، منها: أن الكلام في غيرها لو أمروا به لا ينقطع كالكلام فيها، ومنها أنها مما جرت العادة بجعلها قرباناً إلى الله، ومنها عكس ذلك، وهو أن الله يريد أن يمسح تقديس البقر من قلوبهم، لأنه شيء طارىء عليهم من تقليدهم لعادات المصريين، ومنها أن الله يريد منهم تحمل الكلفة في تحصيلها، ودفع الثمن الباهظ فيها، لينتفع صاحبها البار بوالديه، وليثبت منهم من حسنت نيته، ومنها أنه تعلق بذبحها مصلحة لا تحصل إلا بذبحها، والله أعلم بمراده وأسرار حكمته.

(**الثامنة**): تساءلوا عن الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة، مع أن الله سبحانه قادر على أن يحييه ابتداء، بل يحييه بدونها؟ والجواب: أن الفائدة فيه لتأكيد الحجة على الناظرين وقطع دابر تهمة الحيلة على المتهوكين والملحدين، ذلك أنه يحصل بإحياء القتيل دون ذلك مجال لأولئك، فيقولوا هذا ضرب من السحر، ولذلك لم يباشر هذا الفعل موسى خشية من القيل والقال، بل وجه الله الأمر إليهم لتكون حياته بفعل فعلوه، والله أجرى حياته على أيديهم بما باشروه من الضرب، ليدلل على أن

---

(١) وأخرج البيهقي عن عثمان يرفعه إلى رسول الله ﷺ (من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به) قال البيهقي الموقوف أصح، أنظر الروايات في الدر المنثور (١٩٢/١).

(٢) سورة الكهف، آية ٢٣.

المعجزات لا تكون إلا من الله، دون أي تمويه من الناس، وأن الأنبياء كغيرهم لا تأثير لهم فيها.

(التاسعة): وردت حكايات إسرائيلية في اسم البقرة وصاحبها، واسم الجزء الذي ضرب فيه القتيل، أعرضت عن ذكرها، لأني أرى وجوب تنزيه تفسير كلام الله عن هذه النقول التي لا تقوم بها حجة، لعدم صدورها عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

(العاشرة): في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تدليل حسي واضح على الأمر الغيبي الذي تتطرق الشكوك إليه، ليدلل للمستيقنين على أن الإعادة في قدرته سبحانه أهون عليه من الابتداء في صنعته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1].

فيزيد الله في هذه الحادثة من إيمان المؤمنين بالبعث، فتطمئن قلوبهم، كما فعل بإبراهيم عليه السلام، ويقيم الحجة على الكافرين، لأن هذه القصة قد شوهدت بالعيان وتواترت أخبارها، فهي من بعض حجج الله الكبيرة.

(الحادية عشرة): قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ قد يقول بعض الجهلة والمشاغبين: هي آية واحدة، إحياء القتيل بجزء من مذبوح، الحق أن هذه المعجزة يتفرع منها آيات كثيرة، منها: الدلالة على وجود الخالق القادر على كل شيء، والعالم بكل شيء والمختار ما يشاء في إيجاده وإعدامه، ومنها الدلالة على صدق موسى، والدلالة على حقيقة المجرم، وتبرئة ساحة الأبرياء ومنها: الدلالة العظيمة على إحياء الموتى بشيء واضح حسي لا يقبل الجدل. حقاً إنها آيات كبيرة يرينا الله إياها.

(الثانية عشرة): جواز الاجتهاد حتى في عصر النبوة، لأن الله أمرهم بذبح بقرة وسط بين الكبير والصغير، دون تعيين سنها، وقال لهم:

---

(١) سورة الروم، آية ٢٧.

﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ وهو أمر منه سبحانه لهم أن يجتهدوا فيما بين ذلك.

(الثالثة عشرة): حصلت تساؤلات كثيرة على تقديم ذكر الأمر بذبح البقرة قبل ذكر السبب الذي هو قتلهم للنفس، ومن أحسن ما أجيب: أنهما قصتان، كل واحدة منها مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا في الحقيقة متصلتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة للامتثال. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وإخفاء الجريمة، ولو قدم ذكر القتل على ذكر البقرة لكانت قصة واحدة وذهب الغرض في تثنية التقريع، وقال الحراني: قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر ندائهم في القتيل ابتداء بأشرف القصتين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة.

(الرابعة عشرة): من لم يؤمن بهذه القصة أو يهضمها فهو ملحد لا يؤمن بالبعث والنشور، ومن لا يؤمن بالبعث لا يؤمن بالله وقدرته الغالية وحكمته الغالية.

(الخامسة عشرة): قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ أصلها تدارأتم، ولكن لقرب مخرج التاء من مخرج الدال أدغمت التاء في الدال فجعلت دالاً مشددة، كما في قول الشاعر:

تولى الضجيع إذا ما استافها خصراً عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٤.

القسوة: هي شدة الصلابة والغلظة، وهي منبئة عن ذهاب اللين والرحمة والخشوع، وهو قوله سبحانه: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني من بعد هذه الآيات، سواء إحياء القتيل وما نجم عنه، أو جمع الآيات التي مر ذكرها، من تظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير اثنتي عشرة عيناً من صخرة صغيرة، ورفع الطور فوقهم. ومسخهم قردة وخنازير، يعني مسخ بعضهم، ورحمة الله بهم في أمر القتيل بإحيائه في تلك الأعجوبة، بعد جميع هذه الآيات صارت النتيجة قسوة القلوب.

وهذه آيات تلين القلوب، وتصقل النفوس، وتهز العواطف والشعور وتكسب اليقين، وتؤنب الضمائر، ولكن قلوب هؤلاء بلغت من القساوة ما يزيد عن قساوة الجماد، وقد قال بعض المفسرين: إن المقصود بهم سبط القاتل ومن على شاكلته، وبعضهم قال: المقصود به جميعهم حيث تمادوا في التمرد على موسى، وبعضهم قال: إن ذلك حصل في خلف لهم بعد موسى، واستدل بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ على أن العطف بها يفيد أن أولهم قد خشع وأن القسوة حصلت فيمن بعدهم، والصحيح أيضاً العطف بـ(ثم) يقصد به الترتيب، يعني ثم من بعد ما رأوا تلك الآيات الملينة للقلوب والمحركة للشعور، قست قلوبهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

فقوله: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني من بعد ذلك الآيات، لا من بعد ذلك الخشوع، لأنه ليس للخشوع ذكر في السياق، ولا له دليل أبداً، والصحيح الذي تدل عليه الآيات التي في غير هذه السورة أن قسوة القلوب من صفات بني إسرائيل جميعاً وسماتهم، حتى المخاطبين في عصر النبوّة فإنهم برهنوا لنا بجحودهم وعنادهم واشتداد عداوتهم للحق، على قسوة قلوبهم التي وصفها الله في هذه الآية الكريمة. ذلك أن قوارع القرآن تنزل على محمد ﷺ بأخبارهم ويتلوها عليهم، وفيها من التقريع والتوبيخ وسرد الآيات والنعم والعقوبات والنذر ما فيه عظات ومزدجر، بل الأسلوب القرآني يخاطب قلوبهم بالمثلات التي لا يبقى معها أي تريث عن الإيمان لو

كانت عندهم قلوب حيوانية[1]، ولكن قلوبهم أصبحت جمادية لا تتأثر بالعبر والعظات، ولم تستطع تلك النذر والمثلات أن تشقها وتنفذ إلى أعماق الوجدان فيها، وصارت لا تهزها الآيات الكونية الرهيبة التي ذكرهم بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لتكون أعظم معجزة على صدقه.

لقد قرأ صلى الله عليه وسلم أوائل سورة (فصلت) على أحد صناديد قريش، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[2] صرح قائلاً: ناشدتك الله والرحم أن تمسك، هكذا القلوب الحيوانية تتأثر من الآيات، مع أن تلك الآيات في تلك لا تساوي واحداً من الألف مما تلاه رسول الله ﷺ على بني إسرائيل، ولكن قلوبهم جمادية والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ يعني بل أشد قسوة، فحذف (أو) هنا ليس للشك والتردد وإنما هو بمعنى الواو أو بمعنى (بل) فالواو لقوله تعالى: ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾[3] وقوله: ﴿ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[4]. وبمعنى بل، كقول الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
وصورتها أو أنت في العين أملح

وكقول الآخر:

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة أو علياً

وتشبيه الله قلوبهم بالحجارة دون الحديد والصفر ونحوها مما هو أقسى لأمرين:

---

(١) حيوانية: فيها حياة.
(٢) سورة فصلت، آية ١٣.
(٣) سورة المرسلات، آية ٦.
(٤) سورة الانسان، آية ٢٤

(الأول): أن الحديد ونحوه يذوب إذا أحمي بالنار، ولهيب المواعظ للقلوب أعظم من النار.

و (الثاني): لأنهم شاهدوا الحجارة تتفجر منها الأنهار، وشاهدوا الجبل يندك من خشية الله، ويخر موسى صعقاً، فلهذا أجري التشبيه لهم، مبيناً لهم أن قلوبهم لا تنبض بخشية ولا تقوى، ومذكراً لهم بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾ وقد شاهدتم يا بني إسرائيل نوعاً من ذلك، حجارة صغيرة بأمر الله، ومن خشية الله، تتفجر عيوناً لكم حيث شاء الله ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ كما شاهدتموه حين مواعدة موسى لربه، شاهده بعضكم وأخبر البعض الآخر، فأمثلة القرآن حسية تورث اليقين للقلوب الحية، والله أعلم.

روى الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**»[1].

وما قسوة قلوب بني إسرائيل بسبب عدم ذكر الله الذكر الصحيح، ذكر المحب لحبيبه، ذكر المربوب للرب، ذكر المتأله الصادق للمألوه الحق، ذلك الذاكر الدائم الذي يورث المراقبة والخشوع فيسلم صاحبه من جحود النعمة والإعراض عن الآيات، والتنكر للمنعم المحبوب سبحانه وتعالى، فإن هذه هي أمراض قلوب الإسرائيليين التي أورثتها القسوة الموصوفة في القرآن بأنها أشد من قسوة الحجارة، لأنهم كانوا على ما وصفهم الله به من التكذيب برسله، والجحود لآياته بعد ما أراهم من الآيات والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج، مع ما أعطاهم من الأرواح والعقول التي لم يعطها الحجر ونحوه من الجماد.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم /٢٤١٣/ في الزهد، باب رقم /٦٢/ وإسناده حسن. وقال: الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ومع هذا فالجماد يتأثر وقلوبهم لا تتأثر خصوصاً ما أتاهم من آيات وعظات تهز الوجدان وتنفذ إلى أعماق الجنان، وقد ثبت أن الجذع الذي كان يستند إليه المصطفى ﷺ، إذا خطب، حن إليه بعدما تحول عنه[1].

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم علي**»[2].

وروي أن النبيّ ﷺ قال: «**قال لي ثبير[3]: اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله**، فناداه (حراء): (إلي يا رسول الله).

هكذا شأن الجماد. فأين قلوب بني إسرائيل التي جاءها من النعم والآيات والنقم ما فيه مزدجر، ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ يعني: معشر اليهود المكذبين بآيات الله، والمؤذين لأنبيائهم، والجاحدين نبوة محمد ﷺ، والناقلين عليه الأباطيل، ما الله بغافل ولا ساهٍ عن أعمالكم بل هو لكم بالمرصاد، سيواصل عليكم أنواع عقوباته، وفي هذه الآية تهديد شديد لهم.

---

(١) حديث حنين الجذع رواه البخاري (٢/٣٢٢) في الجمعة، باب الخطبة على المنبر، والنسائي (٣/١٠٢) في الجمعة، باب مقام الإمام في الخطبة.

(٢) رواه مسلم برقم /٢٢٧٧/ في الفضائل، باب فضائل نسب النبيّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، والترمذي برقم /٣٦٢٨/ في المناقب باب رقم (٩).

(٣) (ثبير) جبل في مكة المكرمة. والخبر ذكره القرطبي في تفسيره (١/٤٦٦).

اليهود لن يؤمنوا

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

لما بيَّن الله سبحانه قساوة قلوبهم المنبئة عن بعدهم من الإيمان التفت إلى المؤمنين يؤيسهم من إيمان هؤلاء وفلاحهم، وتسلية منه سبحانه للنبي عليه السلام، عندما كان يشتد حرصه عليهم من طلب إيمانهم في معرض التنكيت عليهم والتبكيت لهم، منكراً طمع النبي ﷺ وأصحابه في إيمانهم قائلاً: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي يؤمن بنو إسرائيل لكم بعدما علمتم من تفاصيل أحوال أسلافهم المؤيسة عنهم، وهم متماثلون في طبعائهم الذميمة، وأخلاقهم الفاسدة، وقلوبهم القاسية، لا يصدر منهم إلا مثل ما صدر من أسلافهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ سماعاً واضحاً ليس فيه التباس.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يحرفونه من بعدما ضبطوه وفهموه، ولم تشتبه عليهم صحته، بل تحريفهم لكلام الله عن عمد وسوء قصد مما لا يصح أن يكون لهم فيه عذر من سوء الفهم ونحوه، ولذا

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٥.

قال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني يعلمون المعنى المقصود تماماً بلا إشكال ولا نسيان ولا ذهول، وإنما لمقاصد نفسية وأغراض مادية نفعية، وهذا فسوق عميق لا يرجى معه إيمان، وهذا إخبار من الله عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة للأنبياء، وأن بقاياهم في العصر المحمدي لا يزالون على مثل ما كان عليه أسلافهم.

وقد كان أصحاب محمد ﷺ يطمعون في إيمان اليهود أكثر مما يطمعون في إسلام المشركين، وذلك لما عندهم من أصل التوحيد، ولما ورثوه من الكتاب الذي فيه ذكر نبي الإسلام وأوصافه، والذي جاءهم بكتاب مصدق لما معهم في الجملة، وفيه تجلية للشبهات وحلول للمشكلات، وفيه إباحة لبعض ما حرم عليهم من الطيبات، فكان طمع أسلافنا في إيمان اليهود مبنياً على وجه نظري معقول، لكن الله العليم بالسرائر يعلم أن لا وجه لهذا الطمع وليس فيه جدوى، لأنهم انحرفوا بحقيقة الدين الذي هو رابطة روحية قوية بين الأمم، وهداية للقلوب الفطرية، فجعلوه رابطة جنسية عصبية يريدون به الانفصال عن غيرهم والاستعلاء عليهم، ويتصرفون بالنصوص على حسب أهوائهم ومصالحهم الشخصية، ويريدون أن يجعلوا من دينهم أداة تسلط على الأمم والشعوب في النواحي السياسية والاقتصادية بضروب من أنواع الافتراء على الله ؛ كما سنبين طرفاً منه عند الكلام على الآية (٧٩) قريباً.

فالله سبحانه وتعالى لم يؤيس أمة محمد ﷺ من هداية هؤلاء إلاّ بعد أن قص عليهم نماذج منتنة من قبائح أفعالهم، وسوء أخلاقهم، وخبث دفائن أنفسهم، واستعصاء تربيتهم، والعجب العجاب أن القرد الأصلي فيه قابلية للتربية والتعليم، وهذه الأمة الخبيثة ليس فيها قابلية لذلك. أمة اللعنة والغضب خصص الله من وحيه المبارك مائتين وستاً وستين آية لكشف أستارها، وبيان مخازيها، وخبث قلوبها، وفساد مقاصدها وأعمالها، وخيبة جميع وسائل التربية فيها – آيات كثيرات عظيمات بينت لنا كيف اجتبى الله هذه الأمة وتولاها بعظيم ألطافه ورعايته، وبوأها مبوأ صدق.

ونجاها ممن عمل على إفنائها ورزقها من صنوف الخيرات، وأولاها من نعمه وآلائه، ما لم يحظ به غيرها، وآتاها بينات من الأمر، وفضلها على عالمي زمانها، ورباها بسياط المواعظ وقوارع العقوبات، من تقتيل النفوس، وإنزال الصاعقة، وأخذ الرجفة، ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة، ومسخ بعضهم قردة وخنازير، إلى غير ذلك مما في مقابلته معجزات باهرة وإنعامات فاخرة، كتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وتفجير العيون من صخرة صغيرة لا يمكن في المحسوس أن يخرج منها أصغر قارورة، إلى غير ذلك من صنوف التربية والإكرام مما لم يكن لها تأثير كبير.

(أقول): بعد سرد الله على نبيه محمد ﷺ وأمته لأحوال هؤلاء وسوء مقابلتهم للنعم، يقول لنا سبحانه: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ** ﴾ حقاً إن هذا مستحيل، إنهم على عرق راسخ في العناد والجحود، إنهم من أشد الناس استكباراً عن الإسلام، وإيذاءً لمحمد ﷺ وأمته إلى يوم القيامة، إن الطمع في هدايتهم طمع في غير مطمع، ولذا نرى الله سبحانه يملي على رسوله والمؤمنين، ويقنعهم بأن لا يطمعوا في هداية هؤلاء.

وقد جمع الله بين رسوله والمؤمنين في استنكاره الطمع في هدايتهم لمشاركة المؤمنين رسول الله ﷺ في آماله، وآلامه، وأوضح لهم بطريقة واضحة استحالة الإيمان، مخبراً لهم عن حقيقة واضحة جارية منهم، وهي أن موسى عليه السلام بعدما اختار سبعين رجلاً ممن يتوسم فيه الخير والصلاح، أو ممن لم يعبدوا العجل، واقترب من الطور، وأوحى الله إليه التوراة، قالوا: ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ ويكلمنا كما كلمك، إذ ليس لك ميزة علينا، وما قيمتك إلا بنا، ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** ﴾.

ثم إن موسى ضرع إلى الله قائلاً: كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ﴿ **رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ** ﴾[1] إلى آخر

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٥٥.

القصة. ثم بعدما أنجاهم الله وتاب عليهم وقبل توبتهم. حيث قال موسى ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]. ورجعوا مع موسى عليه السلام. وقد سمعوا كلام الله من موسى. وعقلوه غاية الفهم. وصدقوا به أنه وحي الله. ثم أخذوا في تحريفه بأن حرفوه عن وجه الحق إلى ما يريدون مما يوافق أغراضهم الشخصية (وهم يعلمون) لم يلتبس عليهم شيء يوجب التأويل والتحريف. ولكنها المقاصد السيئة في نفوس خبيثة لا ترضخ للحق أبداً.

وكما أن هدايتهم مستعصية ولا مطمع فيها، فإن هداية أصحاب المبادىء العنصرية والمذاهب المادية من الشيوعية والبعثية وذيولها، مستصعب جداً. لأنها كلها من التعاليم اليهودية المعقدة والمركز فيها حرب المادة والأشخاص. وفيها تعاليم حزبية سياسية هادفة إلى الاستعلاء على الناس. وافتراسهم. ونهب أموالهم. وأهلاك الحرث والنسل. تعاليم يهودية ذاقت شعوب الأرض منها الأمرين. أمة الفساد تتفكه على قول أفراخها بهم.

(تنبيه): قد يتوهم متوهم من قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أنهم سمعوه مشافهة، وقد أوضحت أنهم سمعوه من موسى، لأن موسى عليه السلام هو الذي اختصه الله بالتكليم، وأما ما رواه ابن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنهم سمعوه، سمعوا صوتاً كصوت الشبور يعني البرق. فهذا حديث باطل لا يصح من جهة سنده، لأن فيه مناكير، ولا من جهة متنه. لأنه مخالف للقرآن من اختصاص بالتكليم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف. آية ١٥٦.

(٢) سورة البقرة. الآيتان ٧٦ - ٧٧.

ويخبر الله سبحانه عن فريق منهم ينافقون أصحاب محمد ﷺ من الأنصار، لما بينهم وبين اليهود من المخالفة، وأنهم إذا التقوا بهؤلاء المؤمنين قالوا لهم: آمنا بنبيكم أنه الحق وأنه المذكور عندنا في التوراة، ولكنهم إذا خلا بعضهم إلى بعض أخذوا يتلاومون، ويناقش بعضهم بعضاً، ويقول للفريق المتكلم: كيف تحدثونهم بما بين الله في التوراة وفتح عليكم من العلم، ألا تخشون أنهم يقيمون عليكم الحجة بالإيمان بينهم ما دمتم قد اعترفتم لهم أنه حق مذكور في كتابكم.

والعجب من قولهم: ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعني تكون الحجة لهم عليكم عند ربكم في الدار الآخرة، غير مبالين بتلاعبهم في الحياة الدنيا، وإنما تلاومهم ومناقشتهم فيما بينهم أنهم كيف يعترفون للمؤمن بما يقيمون به عليهم الحجة يوم القيامة، لأنهم اعترفوا لهم بأن نبيهم هو الحق المذكور في التوراة، ثم لم يؤمنوا به، وقد أخذ عليهم العهد في التوراة أن يؤمنوا به.

ولذا قال الله متسائلاً ومفنداً خطتهم: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. هل يجهلون علم الله بحالهم؟وهل يجهلون أن الله مقيم عليهم الحجة في الدنيا والآخرة، لأنه أوضح لهم نعوت النبي ﷺ وأوصافه في التوراة؟ وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وأن الحجة عليهم قائمة بدون هذا الحوار.

نعم الحجة قائمة عليهم لو لم يتفوهوا مع المؤمنين بأي كلمة، الحجة قائمة عليهم من الله سبحانه، قائمة عليهم وعلى النصارى أيضاً، لأن الله أخبرهم بصفاته وأخذ عليهم بالميثاق بالإيمان به، فهم مطالبون بذلك جميعاً. والحجة قائمة عليهم لو كانوا يعقلون، ولكن أين لهم العقل الفطري الصحيح؟! ومع هذا يقول بعضهم لبعض: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. يا للسخرية من هذا التعقل الذي يريدونه ويتحدثون به ويتساءلون عنه. إنه لا عجب إذا حصل النفاق من بعضهم، فأفضى إلى المسلمين بما أفضى، ولكن العجب ممن لم ينافق، كيف يكون منطقه كذلك.

وأصل الفتح في كلام العرب الحكم والقضاء، ومنه قوله تعالى حكاية عن شعيب: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[1].

فالمعنى كيف تحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضى فيكم، ومن حكمه عليهم أخذه الميثاق منهم على الإيمان بمحمد ﷺ فهم يقولون لهم إن الذي تحدثونهم به موافق لما في القرآن فلهم الحق أن يقولوا: لولا أن محمداً نبي لما علم هؤلاء به من كتابهم فيمسكون كلامكم حجة عليكم، وكلامهم هذا كلام ساقط لأن الحجة قائمة عليهم حتى لو أجمعوا على الإنكار.

وأيضاً ففي هذا إلحاد في أسماء الله، كأنهم لا يعترفون بعلمه المحيط بالسر والإعلان، فموقفهم هذا زيادة في جريمتهم، ثم إن خطتهم خطة ضعف وخسة، والرجولة الصحيحة تقضي عليهم بخلاف ذلك من الثبات وعدم التذبذب، ولكن هذه طبيعة الذي يعلن خلاف ما يبطن، يضطر إلى المجاملة أو المداهنة والنفاق، فإذا صفا له الجو مع رفاقه أخذ يحمسهم ويؤنبهم على شيء لو وقف موقفهم لقال مثل ما قالوه.

والذي أخبرنا الله في هذه الآية من بعض فضائحهم إنما هو ليقطع جميع آمالنا في هدايتهم، لأن قلوبهم مجدبة جافة قاسية أشد من قسوة الحجارة التي لا يلين لها ملمس، ومما يجدر بالذكر أن الفريق المشار إليه في الآيات الثلاث السابقة هم العلماء العارفون بحقائق ما أنزل إليهم من ربهم، ويعمدون إلى تحريفها بدفعٍ من أهوائهم وأغراضهم الشخصية، واحتكارهم للسيادة والنفوذ، ومن كان منطبعاً بهذا الطبع حول التوراة، فانحرافه عن القرآن أولى، وعناده له أشد ، بل يسلكون مع أهل القرآن مسلك الرياء والنفاق والمراوغة والمخادعة.

وفي هذا من خراب الضمير والإصرار على الباطل والإلحاد في أسماء الله، ما الله به عليم، ولذا يذكرهم الله بقاعدة من قواعد التوحيد

---

(١) سورة الأعراف، آية ٨٩.

﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[1]، لأن عملهم هذا عمل المحجوب عن معرفة الله، ومعاملته حسب صفاته، لأن من عامل الله معاملة العليم، مراقباً اطلاعه، يستحيي منه أن يفقده حيث أمره، أو يجده حيث نهاه، ولكن هؤلاء من عماء بصيرتهم، يظنون أن الله لا يقيم عليهم الحجة حتى يقولوها بأفواههم للمسلمين، أما إذا اتفقوا على كتمان الحقيقة والسكوت عن ذكرها فلن يؤاخذهم الله.

وهذا من عقوبات القلوب من مرضى قلوب الذين اطرحوا رسالة الله، وفرطوا في واجبه، يصيبهم الله بمرض في قلوبهم، وكل من شابههم من أمة محمد ﷺ فالله يبتليه بما ابتلاهم من مرض القلوب وعمى البصيرة، ويجعلهم كسباً لأعدائهم، كما هي الحال المشاهدة، ثم إن الله لما بين مساوىء العلماء منهم والعارفين أخبرنا عن الفريق الثاني الذين هم الجهلة، فقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[2].

يخبر سبحانه وتعالى عن النوع الثاني من بني إسرائيل أنهم أميون ليسوا من أحبارهم وعلمائهم، ولكنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني، و(الأماني) هي القراءة المجردة عن التفهم والتدبر، كقراءة أكثر الناس في هذا الزمان للقرآن، فإنهم شابهوا اليهود، فموقفهم من القرآن كموقف اليهود من التوراة وبعضهم فسر الأماني بالأمنيات التي عندهم، فإن عندهم من الدعاوى العريضة والأماني الباطلة ما جرأهم على كل فعل شنيع وخطة أثيمة، لأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات لعظم مكانتهم عند الله، وأنه لا حرج عليهم فيما يفعلون، وأنهم ليسوا مكلفين إلا بالإيمان بما أنزل إليهم، إلى غير ذلك من الأمنيات التي

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٧.

(٢) سورة البقرة، آية ٧٨.

كذبها الله وأخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بالإجابات الدامغة لهم والمبطلة لجميع أمانيهم.

وعلى التفسير الثاني للأماني يكون الاستثناء منقطعاً في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ إذا فسرت الأماني بالتمنيات والتخرصات والأكاذيب، وأما إذا فسرت الأماني بالقراءة المجردة فإن الاستثناء غير منقطع، وهو الصحيح إن شاء الله، لأن القراءة المجردة عن الفهم والتدبر تجر أصحابها إلى التقليد من غير دراية ولا روية، والمقلد الذي على هذه الحال ينخدع بالأمنيات الأخرى التي يمليها عليه الدجاجلة المغرضون، وتغرهم تلك الأمنيات، فتفسير الأماني بالقراءة المجردة جامع لكل المساوىء التي وقع بها بنو إسرائيل.

قال الشيخ الإمام محمد عبده: (هذه الأماني توجد في كل الأمم، حال الضعف والانحطاط، يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها، وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية، وتسول لهم الأماني أن ذلك كاف في نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس، وهكذا كان اليهود في زمن التنزيل، وقد اتبعنا سننهم وتلونا تلوهم، فظهر فينا تأويل الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع»[1].

وإننا نقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا، ونعجب لهم كيف رضوا بالأماني ونحن غارقون فيها) انتهى.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2].

---

(١) رواه البخاري (١٣/٢٥٥) في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، ومسلم برقم /٢٦٦٩/ في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

(٢) سورة البقرة، آية ٧٩.

لما وصف الله الأميين منهم بالظن لأنهم يظنون أنهم محقون وهم مبطلون متخرصون، لأن الذي يحسن فهم معاني الكتاب يقلد غيره، فكلما سمع من الأحبار والرهبان شيئاً ظن أنها من كتاب الله فصدقها وهي ليست من الكتاب فيصدقون قومهم فيما هو كذب على الله ويتركون التصديق بمحمد ﷺ فيما هو متيقن أنه من عند الله، فهم على هذه الحال متبعون لأهوائهم باتباعهم لأحبارهم ورؤسائهم المفترين على الله الذي أتى بوصف رجال الكهنوت، رجال الشعوذة والدجل، ورجال الانتهازية والمراء، الذين يستغلون جهل أولئك الأميين، فيزورون الكذب على كتاب الله، ويدخلون فيه ما ليس منه، ويكتمون منه ما شاؤوا، ويحرفون ما لا يوافق أهواءهم بالتأويلات الفاسدة الموافقة لأهوائهم وأغراضهم، ويكتبون كلاماً من عند أنفسهم، كالاستدراك على الله، ويزعمون أنه من عند الله، وما هو من عند الله، كما قاله سبحانه في الآية (٧٨) من سورة آل عمران.

وذلك أنه لما درس الأمر فيهم، وساءت رعاية علمائهم لعامتهم، ورغبوا في الدنيا، وتعلقوا بها حرصاً وطمعاً، عملوا على ما يصرف وجوه العامة إليهم، فبدلوا بعض شريعة الله، وأحدثوا فيها ما ليس منها، ثم ألحقوا بها وقالوا لعوامهم: هذا من عند الله، ليتقبلوها ويذعنوا لها، فتقوى رئاستهم عليهم بها، وينالوا بسببها السحت الحرام في حطام الدنيا، مما هو بيع الذمم والضمائر، كما ينالون بها عزاً ووجاهة وشرفاً عند العامة.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: (من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه أولئك اليهود فلينظر فيما بين يديه، فإنه يراها واضحة جلية، يرى كتباً ألفت في عقائد الدين وأحكامه، حرفوا فيها مقاصده، وحولوها إلى ما يغر الناس، ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم، ويقولون هي من عند الله، وما هي من عند الله، وإنما هي صادة عن النظر في كتاب الله والاهتداء به، ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين: رجل مارق من الدين، يتعمد إفساده ويتوخى إضلال أهله، فيلبس لباس الدين، ويظهر بمظهر أهل الصلاح، يخادع بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول، ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل،

ليسهل على الناس مخالفة الشريعة، ابتغاء المال والجاه).

قال صاحب المنار[1]: ثم ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل وما عليه المسلمون الآن، ذكر وقائع للقضاة والمأذونين وللعلماء والواعظين، فسقوا فيها عن أمر ربهم، فمنهم من يتأول ويغير بأنه يقصد نفع أمته، كما كان أحبار اليهود يفتون بأكل الربا أضعافاً مضاعفة ليستغني شعب إسرائيل، ومنهم من يفعل ما يفعل عامداً عالماً أنه مبطل، ولكن تغره أماني الشفاعات والمكفرات.

أقول: لقد كثر الدس والتلبيس على هذه الأمة منذ القرن الثالث وعصر المأمون حتى تفاقمت الشرور في القرون الوسطى، وكل هذا جرى بحكم دقيق من الماسونية اليهودية، فاليهود هم أمة الخبث والإفساد، ولا تجد مذهباً شارداً عن صراط الله أو منفرداً للناس عن وحي الله، إلا وراءه يهودي أو تلاميذ يهود، أنظر إلى جعد بن درهم وجهم بن صفوان طواغيت أكثر المذاهب المبتدعة، معلمهم يهودي اسمه (طالوت) حفيد لابن الأعصم ساحر النبيّ ﷺ.

وانظر إلى من قبله، كعبد الله بن سبأ، اليهودي مؤسس المذاهب الغالية في عليّ عليه السلام وبنيه، وانظر إلى جد العبيد بن عبد الله بن ميمون بن القداح وذريته من منتحلي النسب الفاطمي والمذهب الباطني الهدام، أساسهم من اليهود، وانظر إلى الطوائف الأخرى والطرائق الضالة، كيف عملوا على تبديل حسنها وتكدير مشاربها الصافية حتى أحدثوا فيها طوائف الاتحادية المتفقة مع النصارى في اعتقاد اتحاد اللاهوت بالناسوت، وطوائف الحلولية الذين يزعمون أن الله يتجلى في المظاهر الحسنة، ولا سيما في الأمر الجميل، مما جعلهم يدينون الله بالرقص حوله، وبتقبيله أو بشيء آخر.

---

(١) صاحب المنار هو السيد رشيد رضا - كاتب وداعية إسلامي كبير، والمنار جريدة أسسها. توفي سنة ١٣٥٤ هـ رحمه الله.

وبما فتنوا به الناس من تقديس الضرائح حتى ولو كان المقبور فيها مجهولاً أو حيواناً. وبعضهم فتنوه بتقديس. وقد وضعوا أوضاعاً مختلفة من ضروب الصور تقعد الأمة عن الجهاد. وتجعل بعضهم يهيمون في الفلوات ويألفون المزابل والمغارات. وأحدثوا بدعة الزوايا بدلاً من المساجد.

وكما عبثوا في المتدينين. عبثوا في العلماء والمتكلمين. فأنشأوا الخلافات المذهبية فيما بينهم. حتى جعلوهم أحزاباً متناحرة. وأضاعوا طاقاتهم. كما غزوا الطبقات العالية بأنواع الترف والميوعة واللهو والسكر وركزوا من يحتل الصدارة عند الحاكمين. ليخدم أغراضهم. إلى غير ذلك من مكر الماسونية اليهودية في تلك العصور التي هيأت الفرصة لغزو التتار ثم الصليبيين. ولكن مع كل هذا فالأمة المحمدية أمة مرحومة مهما ابتليت بمشابهة اليهود والنصارى. ومهما عبثت الماسونية بعقائدها واخلاقها فإن الله سبحانه وتعالى حباها بمكرمتين:

(إحداهما): أنها لا يزال فيها طائفة منصورة قائمة بالحق. لا يضرها من خذلها ولا من خالفها. حتى يأتي أمر الله. وهم على ذلك كما نص على هذا الصادق المصدوق ﷺ[1].

و (ثانيهما): أن الله قيض لدينه من يذب عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. كما ورد الحديث الصحيح المشهور[1] بذلك. هذا زيادة على حفظ الله للقرآن. فكل هذه الأمور من معجزات نبينا ﷺ.

---

(١) حديث الطائفة الناجية المنصورة رواه البخاري (١٣/٢٥٠) الاعتصام. ومسلم برقم /١٩٢٥/ في الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق**». وأبو داود برقم /٤٢٥٢/ في الفتن. باب ذكر الفتن ودلالتها. والترمذي برقم/٢١٧٧/ في الفتن. باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثاً لأمته.
والحديث قد بلغ برواياته المتعددة حد التواتر. وهو بفضل الله بشارة لكل مسلم على بقاء هذه الفرقة الناجية. جعلنا الله منها وممن يعمل على نصرتها إنه نعم المولى ونعم النصير.

فحفظ القرآن لنا من أعظم النعم، خصوصاً إذا أضيفت إليه هاتان المكرمتان، والمقصود التنبيه على ما حصل وعلى ما يعمله أعداؤنا ضدنا، لنكون على حذر، ولا نغتر بالأماني، ولا نسلك مسالك المغضوب عليهم، فيكون لنا نصيب من ويلاتهم، فإنهم يستخدمون الدين ويخلقون في إطاره البدع.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[١] الويل في اللغة العربية: الهلاك وشدة العذاب، سواء كان في قعر جهنم أو في واد عمقه أربعون خريفاً، كما ورد به الأثر، أو هو الوادي الذي يسيل فيه صديد أهل النار، فإن للمفسرين عدة وجوه في ذلك، ويجمعها شدة العذاب، مهما كان نوعه أو موقعه.

وإنما استحقوا ذلك لافترائهم على الله بكل إصرار فيما يكتبونه بأيديهم حسب أهوائهم ومطابقة مصالحهم، ثم ينسبونه إلى الله، لأغراض نفسية وأطماع مادية ،ولذا يقول الله سبحانه: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[٢]. والثمن القليل: هو أغراض الدنيا وأعراضها، مهما كثرت أو تضخمت، فإنهم مهما حصلوا على ذلك من وجاهة عند العامة، أو نالوا من المال الكثير والهدايا والتحف الثمينة، فإنها شيء قليل بالنسبة لما أضاعوا من حظوظهم العالية عند الله، فإن أدنى حظ يحصل عليه الإنسان من الله لا تعدله الدنيا قيمة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٣].

فهم والعياذ بالله باستبدالهم أغراض الدنيا وأعراضها بحظوظهم من الله، خسروا أنفسهم، وكان حظهم الويل المضاعف، حظهم الويل الذي هو شدة العذاب ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكذب والبهتان، ولهم الويل مرة

---

(١) سورة البقرة، آية ٧٩ .

(٢) سورة البقرة، آية ٧٩.

(٣) سورة النساء، آية ٧٧.

أخرى ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من مال ووجاهة ورئاسة، يتذوقون شدة العذاب على هذا، وعلى هذا فالويل والهلاك محيط بهم ونازل عليهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد، وتأكيده سبحانه لا يهديهم في أول الآية وآخرها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لإفادة أنهم قالوا الكتابة بأنفسهم ولم يأمروا غيرهم من روادهم بها، بل باشروا كتابة الكذب والافتراء على الله بأيديهم على علم منهم وتعمد وإصرار بكتابة الباطل وإخفاء الحق ونسبة ذلك إلى الله. ولهذا استحقوا مضاعفة الويل من صديد أهل النار في أسفل جهة، على ما كتبت أيديهم من ذلك. وعلى ما يكسبونه من الخطايا من جميع ما يعمل بأسباب تحريفهم وكتابتها من كل ظلم وكفر وفسق وجور إلى يوم القيامة. ولهذا عبر الله بلفظ المضارع في الاكتساب دون الكتاب قائلاً: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، لأن الكتابة مضت وانتهت، ولكن آثارها السيئة باقية، لأنه يعمل بها، ويعتمد عليها، ويساء إلى الله، وإلى صالحي خلقه بسببه.

فمساوىء الاكتساب بسببها باقية خالدة. وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1].

ومما حرفوه ضد التوراة، وافتروا به على الله كتمانهم لذكر النبي ﷺ وصفاته، وإبقائهم ذكر الدجال، وتكرير قصته، وطمسهم لآية الرجم.

---

(١) رواه مسلم برقم /١٠١٧/ في الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة. والنسائي (٥/٧٥) في الزكاة باب التحريض على الصدقة.

وتقييدهم النواهي فيما بينهم دون الناس كقولهم: (لا تسرق من يهودي، لا تقتل إسرائيليا، لا تأخذ الربا عليه) إلى غير ذلك مما سنوضح بعضه، فقد وضعوا في التلمود إباحة الكذب والأيمان لمصلحة اليهود. ولو كانت زهيدة كما ذكروا: اقسم عشرين يميناً كاذباً كي تنفع يهودياً بفلس.... وفي سفر يشوع أن يشوعاً عاهد أهل (أريحا).

وما كان الله يرى هذا العهد - إن صح هذا التعبير - حتى أرغى وأزبد وأمرهم بالنقض، لأن أهل (أريحا) من الأميين، أي غير اليهود. وليسوا جديرين بمعاهدة أبناء الله وأحبائه. وصفوة خلقه. أمرهم بالنقض وشفعه بقوله: اقتل صغيرا كبيراً بقراً جمالاً حميراً اجعل المدينة تلاً... وحرفوا الوصايا بقيود كاذبة افتروها على الله كمثل: لا تقتل يعني يهودياً. لا تسرق، يعني من يهودي، لا تزن يعني بيهودية، لا تشهد بالزور. يعني على يهودي.. وأباحوا لليهودي أموال وأعراض وديار وكرامات غير اليهود من الأمم يطلقون عليهم اسم الأممين..

واليهود منذ زمن فارقهم موسى أخذوا يزعمون أن لديهم وحياً مكتوباً ووحياً غير مكتوب، كي يلصقوا جميع خرافاتهم وأغراضهم الملعونة ومفاهيمهم الملتوية بالوحي الموسوي، ومن جملة افترائهم على الله كتابتهم: (مباح لإسرائيل بل يفرض عليه قتل من أمكنه من الجوبيم) يراد بهذه الكلمة كل شخص غير يهودي، ويباح، بل يفرض اغتصاب ماله وسرقته، وليكن مبدأُكم أولاً المساواة في المذاهب والأديان والوحدة، ثم تشن غارة على الكنيسة، فكل حزب وكل ثورة تقرب لنا الطريق وتوصلنا بعد أوان لغايتنا القصوى، إن أملاك غير اليهود تعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهود أن يمتلكه، إن الله قد منح اليهود السلطة على مقتضيات الشعوب.

إن لآدم زوجة شيطانية اسمها (ليليت) تزوجها ١٢ سنة، فولدت له الشياطنة (غير اليهود)، ولذا فجسمهم جسم إنسان، وروحهم روح حيوان، لا تشفق على الشياطين ولا ترحم، غشهم، سلم عليهم، واهزأ بهم

في قلبك، السرقة منهم هي استرداد لمالك الذي سلبوه، أموالهم مباحة، سفك دمهم قربان لإله إسرائيل، الله يكافىء على قتلهم، احلف وأشهد زوراً لتسلب مالهم وممتلكاتهم، فرقنا الله بينهم لنسخرهم كحيوان إنساني.

هذه النصوص الخبيثة الخطيرة كثيرة جداً في أسفار التلمود، لا سيا أسفار (مجيلا، وشؤبين، وجياموت). وهناك أبشع منها كقولهم: من رأى أن يجامع أمه فسيؤتى الحكمة، ومن رأى أن يجامع أخته فمن نصيب نور العقل، إزن بالذكور والإناث من غير اليهود، لأنهم حيوانات.

اليهود أحب إلى الله من الملائكة، واليهود من عنصر الله، كالولد من عنصر أبيه. ومن صفع اليهودي كأنه يصفع الله، ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض واحتجبت الشمس وانقطع المطر، وما سوى اليهود فهم كلاب وخنازير، يحرم على اليهود العطف عليهم، وكل شر يفعله بهم فهو قربى إلى الله، وقد أعرضت عن ذكر شيء كثير خجلاً من كتابته، طهر الله طروسنا من هذا الرجس، ومما تقرأه أيها القارىء وتسمعه أيها السامع من إباحة اللواط والزنى بغير اليهود، تلمس أنّ مذهب الشيوعية الماركسية اليهودية منبثق من ذلك.

هذا وإن تلك الافتراءات التي ذكرنا النذر اليسير منها من كتب «المشنا والجمارا والتلمود» وتفاسيرها الفضيحة المشبعة بالتعالي والأنانية، والصلف والجرأة على الله، قد حدت بالماسونية اليهودية إلى سبك تقاريرها في محافلها المختلفة منذ عشرات القرون إلى هذا القرن، ضد جميع الأمم والشعوب عامة والمسلمين خاصة، من عرب وعجم، لقد عملت على بث بذور التفرقة والشقاق في كل ناحية، وخصصت رجالاً يدخلون في الدين ليفسدوه ويخلطوه على أهله، إما بالإفراط أو بالتفريط، وبث البدع والخرافات ونشر المنطق والفلسفة، لتعميق الزندقة والإلحاد، واختلاق عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ، في مدح بعض الأطعمة والبلدان والقبائل والأعمال والمكان، وغير ذلك من الطرائق

المحدثة، ومدح بعض الأشخاص والقبور والأعمال المحدثة. وقد كسبوا أدمغة وأقلاماً تعمل لحسابهم ومصالحهم من حيث تشعر أو من حيث لا تشعر.

وقد أقاموا الفتنة على عثمان رضي الله تعالى عنه، ولعبوا دوراً كبيراً في عهد علي رضي الله عنه، مع كثرة ما اختلقوا له من الأحاديث بإيجاد التلمود كقولهم: قال رسول الله ﷺ لعلي: «**إذا مت فغسلني وحنطني وألبسني واجلسني أخبرك بما يكون إلى يوم القيامة**»[1]. وانشأوا بدعة القدرية والاعتزال وغيرها من فرق الجهمية المتشعبة، وعملوا على الإطاحة بالدولة الأموية حامية الدين والعروبة، وقامعة كل بدعة، وكسبوا أبا مسلم الخراساني الذي قام على أساس: إن استطعت أن لا تترك بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل. حتى قيل إنه قتل مائة ألف بيده ومئات الألوف بسببه وأقام دولة عجيبة حصل في عهدها من الشرور ما الله به عليم، وأقاموا دولاً أخرى من الفاطميين الكاذبين الباطنيين الشيوعيين والقرامطة الذين هدفهم إفناء العرب والذين قال الأصمعي في أمثالهم:

لو كنت سائلهم عن أصل دينهمو ... فإن دينهمو أن يقتل العرب

ثم عملوا على إغراء التتار من جهة، والصليبيين من جهة، على غزونا، وأجروا من الفضائح ما يندى له الجبين، وأغروا نصارى العرب على خيانة المسلمين، ومساعدة الغزاة، فجرى علينا من خيانتهم فجائع وفضائح سجلها واعترف بها قادة الغزو، كاعتزاز بهم وافتخار.

وأفراخ الإفرنج والماسونية في هذا الزمان يقلبون الحقائق زاعمين أن إخوانهم النصارى قد شاركوهم المآسي، ولكن فضحهم الله من تقارير قادة

---

(١) هذه أحد أسباب وضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ، وإن شئت الإطلاع على العجيب من تلك الأحاديث فراجع كتاب السلسلة الضعيفة لشيخنا الألباني حفظه الله.

الغزو، ثم ركزوا مهمتهم في الغزو الثقافي حسب وصايا المحافل الماسونية الناجمة من أكاذيب أسلافهم، سبكوا الجيل الجديد بطريق التربية والتعليم، كما أوصى بذلك المحفل الثالث عشر الماسوني قائلاً: تجب تربية الأطفال وفق منهاج مقرر من قبلنا، إن السيطرة على الشبيبة من أولى غايات الماسونية وأهدافها، دع الكهول والشيوخ جانباً، وتفرغوا للشباب، بل تفرغوا حتى للأطفال، إذ الانطباعات الأولى لا تنسى، وعليه يجب أن تبنى هذه الانطباعات على أساس أفكارنا، ولا بد من تربية للأطفال بعيدة عن الدين، إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية والجمعيات الموسيقية والدورات لإدامة نفوذها في أوساط الشبيبة[١].

وتصر مضابط المؤتمر الماسوني عام ١٩٠٠ م على ما نصه: (إننا لا نكتفي بالانتصار على المتدينين ومعابدهم، إنما غايتنا الأساسية هي إبادتهم من الوجود، وإن النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة[٢].

وقد جعل لهم ما أرادوا، وكسبوا أغلب شباب الأمة، كما قرروا أيضاً عام ١٩٢٣ م في محفلهم بأن الجمعيات الرياضية والفرق الموسيقية التي تربي الناشئة هي المرتع الخصيب لنمو الماسونية فيها، ويمكن إضافة المكتبات والدورات وغيرها لجلب الكبار.

وكما قرروا في بروتوكولاتهم أنهم كسبوا بواسطة المربيات المتخرجات على أفكارهم في بيوت الحكام والطبقات العالية، إنشاء أولاد في تلك

---

(١) من أفراخ اليهودية وتلامذتهم الذين ينفذون أغراضهم حزب البعث العربي الاشتراكي. والذي يهتم اهتماماً كبيراً بالشبيبة وأنشأ لهم المدارس والمؤسسات الخاصة بهم لتربيتهم على الفساد والضلال، والانحلال الخلقي الذي يخدم غرض يهود.

(٢) لقد تحقق حلم إسرائيل على يدٍ أذنابهم من حكام العرب والمسلمين الذين عزلوا الحكم بما أنزل الله جانباً. وفصلوا الدين عن الدولة. وحكموا المسلمين بالدساتير والقوانين الوضعية العلمانية الخبيثة. وأشاعوا الفساد في البلاد وبين العباد وهيأوا الجو المناسب للصلح مع اليهود. لتأتي الجولة القادمة في عملية التطبيع المباشرة على يد يهود والعياذ بالله.

البيوت قد أضلتهم الحسرة والمجون المبكر الذي غرتهم به تلك المربيات وغيرهن من وكلائنا الشرعيين، وكما قالوا فيها: لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره بنشر التعصبات الدينية.. إلى كلام لا ينبغي ذكره وهو موجود فيها، حتى قالوا: لقد فصلنا بين قوة الدولة والشعب، فجعلنا كلاً في خوف من الآخر، لهذا لا يتحد علينا شعب وحكومته.. الخ.

ونصوصهم في محافل الماسونية على إقامة الثورات المتواصلة معروف لا نطيل بذكره، خصوصاً في مقام التفسير، والوقائع شهدت بحصول جميع ما قرروه تماماً من إفساد الشباب، وتلقينه مبادىء خاطئة، وإحداث الاضطرابات والفوضى، وإحداث مجتمعات الكراهية فيمن حولهم من الشعوب، بحيث انعدمت المحبة الصحيحة، وفقدت الثقة بين كل واحد والآخر.

والعجب أنه مع اتضاح فسادهم وتخريبهم للعالم تجدهم المسيطرين على أزمة الأمور في أغلب دول العالم الراقية، فكيف بغيرها لأن لهم ركائز في جميع المرافق الدولية والميادين، كما اعترف بذلك كبار الحكام في (أوروبا) حتى قبل هذا القرن، وبواسطة تفوقهم في الثروة واستيلائهم على أغلب ذهب العالم يقومون بأزمات يسيطرون بها على الرأي العام في جهة، وباحتكارات عظيمة للمواد الغذائية والضرورية يتحكمون بأسعارها وفقاً لوصايا الحاخام الأكبر، وكل هذا نتيجة قسوة القلوب وخبث الضمائر.

ومن عجيب أمر أمة الخبث والفساد قوتهم وسرعة تصميمهم على تنفيذ مخططات طواغيتهم من الحاخامات ومقررات محافل ماسونيتهم وكسبهم أعظم رجال المعمورة في التنفيذ والتأييد، مع تمردهم على نصوص التوراة وتحريفها وهي من عند الله.

وهكذا شأن المتتلمذين عليهم ممن تخرج من المدارس الاستعمارية وجامعاتها، التي مشت على ما خططته اليهود في الميدان الثقافي بكامله، فإن موقفهم من القرآن أفضح من موقف أولئك من التوراة، فنجدهم كأنهم أبعد الناس عنه، بل أعظم سخرية به والعياذ بالله، وأعجب من هذا أن

الكثير ممن يشتم اليهود ويعاديهم قد سلك مسلكهم في نبذ الكتاب ظهرياً برفض الاحتكام إليه، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإضاعة الصلاة،واتباع الشهوات،والمسارعة في الاثم والعدوان،وأكل السحت،فما قيمة شتمهم لهم؟ بل إنهم أصبحوا لا يشتمون اليهود وإنما يشتمون الصهيونية والصهاينة، ويصرحون بمؤاخاة اليهود ومسالمتهم، وهذا من أكبر المغالطات، بل من أجهل الجهالات، فإن كل يهودي لا بد له أن يكون صهيونياً بطبيعة حاله.

فالصهيونية من ضروريات دينهم، ولكنهم يخادعون جميع الشعوب بالتفريق بين الصهيونية واليهودية، ليعيشوا بأمان، وليصطادوا في الماء العكر ما يريدون ويعبثوا في الظلام بجميع مقدرات العالم تحت هذا الستار، إيهاماً وتضليلاً لأطفال العقول، وما أكثر أطفال العقول مع كبر سنه وتضخم شعره! بل ما أكثر الشعر بلا شعور، وأكبر الأجسام بلا أذهان! ألا فاعلموا أن التفريق بين الصهيونية واليهود خداع صادر من مكر اليهود.

ومن المستحيل أن يوجد يهودي لا يعمل لصالح دولة إسرائيل المزعومة ولكن يا للعقول وزيغة الأذهان إن اليهود سرطان قد فسحت بيدها جمعيات سرية وجواسيس محنكين، يتقمصون أسماء وأعمالاً ووظائف شتى في أغلب ربوع العالم، ليستعينوا بواسطتهم ببعض الناس على بعض، ويضربوا بعضهم ببعض، ويتخذوا منهم دروعاً زمنية، أو مسوحاً دينية، أو دثاراً إنسانياً، ولفيفاً من وكلائهم وعملائهم، في كل بلد منهم جماعة، لا تدين بالولاء إلا لهم، وتتنكر لمن سواهم مهما تفيأوا من ظليل النعمة.

إن اليهودي يردد في كل عام دعواته الملعونة المأفونة في أعياده السنوية، كعيد الحاقوكا، وعيد الغور، قائلاً: يا إله إسرائيل كما أعنتني على إلحاق الأذى بالحيوانات الناطقة في العام الماضي أكمل نعمتك علي وألحق بيدي الأذى لتلك الحيوانات في العام الآتي. فأي فرق بين اليهودي والصهيوني بعد هذا؟

هم في النار رغم ادعائهم

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

هذا من بعض مفتريات اليهود، وأمانيهم الباطلة، ان النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، قالوا إنها سبعة أيام بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل على الخلاف فيها، هل هي سبعة أيام أو أربعين يوماً، وروى محمد بن إسحاق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون: إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وإننا نعذب بكل ألفٍ يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه حديثاً موصولاً إلى أبي هريرة قال: لما فتحت خيبر أهدي لرسول الله ﷺ شاة فيها سمّ، فقال رسول الله ﷺ: **اجمعوا إليّ من كان من اليهود ههنا**. فقال لهم رسول الله ﷺ: **من أبوكم؟** قالوا: (فلان) قال: **كذبتم، بل أبوكم فلان**. قالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: **هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟** قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: **من أهل النار**» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: **اخسؤوا**، **والله**

---

(١) سورة البقرة، آية ٨٠.

لا نخلفكم فيها أبداً»؟ ثم قال لهم رسول الله ﷺ: **هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟** قالوا: نعم قال: **هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟** قالوا: نعم. قال: **فما حملكم على ذلك؟** قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[1] رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه، فمن أكاذيب اليهود وغرورهم زعمهم أن من لم تدركه السعادة فإنه لن يدخل النار إلا أياماً معدودة، أشهر الأقوال فيها أنها سبعة أيام.

وظاهر الآية تدل عليه، وقد أمر الله نبيه عليه السلام أن يرد عليهم برد مفحم دامغ، فقال له: ﴿ **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾.

والمعنى: هل أنتم جاءكم عهد من الله بذلك فاتخذتموه أماناً لكم من الخلود في النار أو طول المكث فيها، هل عهد الله إليكم بنجاتكم منها بأمر خاص بوحي خاص ومنحة خاصة خالصة؟ أو هل عندكم عهد عام من عهود الله الشرعية بإنجائكم من النار، وإدخالكم الجنة باتباعكم شريعته، وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، وحمل رسالته والوقوف عند حدوده؟

لا بد من هذا أو هذا، فإما أن يكون هذا القول صادراً منكم عن ثقة بوعد الله الذي قمتم بطاعته وسارعتم إلى مرضاته، أو أن يكون عندكم عهد من الله بالعفو الخاص عن مساوئكم التي لا تحصى، والعفو عن تقصيركم في طاعته وإطراح وحيه، فإن كان عندكم أحد العهدين اللذين ترتكزون

---

(١) هذا السياق للقصة بهذه الصيغة لابن اسحاق، والقصة متفق عليها عند البخاري ومسلم. أخرجها البخاري (١٦٩/٥) في الهيئة، باب قبول الهدية من المشركين. ومسلم برقم/ ٢١٩٠/ في السلام. باب السم، ورواها أيضاً الامام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم.

عليها في دعواكم فإن الله لن يخلف عهده، وإن لم يكن عندكم شيء من ذلك فأنتم مفترون على الله، لأن كل من يقول على الله بغير علم ولا برهان فإنه مفترٍ على الله سبحانه وتعالى، فما قولكم هذا إلا استخفاف بجناب الله، ومحاولة لتبديل كلماته من عقوبة المسيء المخالف بالنار، وتنعيم المطيع المحسن للأعمال بالجنة.

هذه كلمات الله التي حقت على الفريقين: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] فقولكم هذا يا بني إسرائيل مجرد افتراء على الله، ومحاولة لتبديل كلماته، ولا مبدل لها، يقول الله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2].

فما أعظم هذا التلقين من الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، إذ يقول له: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك أن قولهم لا يجوز صدوره بتاتاً إلا من أحد أمرين:

إما اتخاذ عهد صادر من الله، سواء كان العهد خاصاً بالعفو عن مساوئهم، أو العهد عاماً بمجازاتهم على إحسانهم، كما وعد، ووعده الحق.

وإما أن يكون صدوره مجرد افتراء على الله، وهذا من أفضح أنواع الكفر، فهو أعظم من الشرك الذي لا يغفره الله، كما سيأتي توضيحه في

---

(١) سورة الأنعام، آية ١١٥.
(٢) سورة الجاثية، الآيتان ٢١-٢٢.

مكان آخر، خصوصاً إذا كان الافتراء فيه محاولة لتبديل كلمات الله في حكمه على المعرضين عن وحيه بالخلود في النار إلا ما شاء الله، وعلى المطيعين المخلصين بدخول الجنة ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[1]، وإنما هو افتراء منهم يزيد في إجرامهم وذنوبهم، ولهذا لقن الله نبيه عليه السلام حجة دامغة تقمعهم على رؤوسهم، ثم أتاهم بالجواب القاطع والقول الفصل في هذه الدعاوى ببيان الحقيقة الكلية التي عليها مدار العقيدة الإسلامية وتنبثق منها أغلب التصورات الصحيحة، وهي أن الجزاء من جنس العمل ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[2] كما نص عليه في الآيتين (٨١، ٨٢).

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

هذه الآية الكريمة فيها رد لأكاذيب الإسرائيليين وتمنياتهم الباطلة، ومحاولتهم تبديل كلمات الله، أو وصفهم له بالمحاباة، وأن نسبهم يشفع لهم عنده، فلا يعذبهم إلا أياماً معدودات.

وقد تقدم ذكر ما يدفع مفترياتهم ويدحضها بأوضح منطق وأتم بيان، وأن الله سبحانه لقن نبيه الحجة القاطعة الدامغة باستفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ، ثم ثنى بذكر هذا الجواب القاطع والحقيقة الفاصلة الشاملة التي ليس فيها محسوبية ولا محاباة، وإنما فيها تقرير الجزاء على جنس العمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ فقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إلى آخر الآية، فيها إبطال لدعواهم، وقوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾

---

(١) سورة يونس، آية ٦٤.

(٢) سورة النبأ، آية ٢٦.

(٣) سورة البقرة، الآيتان ٨١ - ٨٢.

بعني طوقته الخطايا من كل جانب وحصرته وأخذت بأحاسيسه وجوانب وجدانه، كأنه محبوس فيها، لا يجد لنفسه مخرجاً منها، قد رانت على قلبه وجعلته غلفاً مظلماً محشواً بالباطل فكان بنفسه لها أسيراً سجيناً، وهو يحسب أنه حر طليق، هذه حقيقة معنى إحاطة الخطايا بالإنسان وبالناس، وسبب إحاطتها على ما وصفنا هو الإصرار على الخطيئة والاسترسال فيها.

وقد أشكلت هذه الآية على بعض المفسرين، بحيث فسروا معنى الخطيئة بالشرك، وبعضهم اضطروا إلى تأويل الخلود بالنار بطول المكث فيها، خوفاً من الالتقاء مع الخوارج القائلين بخلود أهل الكبائر في النار، ولم يفطنوا أن فتحهم باب التأويل خطيئة، لأنهم إذا فتحوا باب التأويل للمغرضين والمتهوكين والمسلطين عقولهم الفاسدة على النصوص، لم يبق نص فيه وعيد إلا تأولوه، وقد فعل ذلك بعض من لا خلاق له.

وهذه الآية بحمد الله ليس فيها إشكال ولا غموض لمن عرف اللغة العربية وقارن هذه الآية مع مدلول اللغة بالنصوص الأخرى في الكتاب والسنة. ذلك أن الخطيئة مهما كبرت إذا أتبعت بالتوبة النصوح محاها الله، خصوصاً إذا عقب التوبة أعمال صالحة بدل الله سيئات صاحبها حسنات، ولكن إذا أصر على الخطيئة حتى يتبعها خطايا أخرى إلى أن يستحسنها فتكون له سجية، ثم يقسو عليها حتى تورثه الاستهزاء بضدها والتكذيب لتحريمها، فإنها تكون شركاً وكفراً، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[2].

---

(١) سورة الروم. آية ١٠.

(٢) سورة النساء. آية ١٢٣.

وروى الإمام أحمد والترمذي والحاكم وصححاه والنسائي وابن ماجة وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «**إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت[1] في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران[2] الذي ذكره الله تعالى في القرآن**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3].

ولهذا السبب كان السلف يقولون: المعاصي بريد الكفر، وقال ابن القيم رحمه الله في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[4] وعلى قوله في الحديث القدسي: «**لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»[5].

قال: إن هذا الحديث لا يدل على أن ما عدا الشرك كله صغائر، بل يدل على أن من لم يشرك بالله شيئاً فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت.

ولكن ينبغي أن يعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح وتعلقها بها، وإلا لم يفهم مراد الرسول ﷺ، ويقع الخلط والتخبيط، فاعلم أن هذا

---

(١) (نكت): النكث: الأثر في الشيء.

(٢) (الران): الغطاء الذي يغطي القلب.

(٣) سورة المطففين، آية ١٤، والحديث رواه الترمذي برقم /٣٣٣١/ في التفسير وقال حسن صحيح وابن ماجة برقم /٤٢٤٤/ في الزهد، باب ذكر الذنوب، والإمام أحمد في المسند (٢٩٧/٢) والحاكم في المستدرك (٥١٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي. وهو حديث حسن الإسناد.

(٤) سورة النساء، آية ١١٦.

(٥) عجز حديث طويل رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم/٣٥٣٤/ في الدعوات باب برقم (١٠٦) وقال هذا حديث حسن غريب، وذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح وقال: رواه ابن حبان وصححه.

النفي العام للشرك أن لا يشرك بالله شيئاً البتة، لا يصدر من مصر على معصية أبداً، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصرّ على الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتى لا يشرك بالله شيئاً، هذا من أعظم المحال، ولا يلتفت إلى جدلي لا حظ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر أو أقسى. يقول: وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقفاً لم يلزم منه محال لذاته، فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله.

واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وتوكله على غير الله، ما يصير به منغمساً في بحار الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل، فإن ذل المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفاً من غير الله، وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه، فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك - إلى أن قال -: وليس التوحيد مجرد إقرار العبد... بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له، وكما الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها حتى قال: وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك، غافل ساه مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك وإيثاره عليك. هل يكون ذكرهما واحداً؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك أو زوجتاك عندك سواء. انتهى ما أردت نقله لعظيم فائدته.

وأقول: إن الله سبحانه لم يقل: (ولا تشركوا به صنماً)، بل قال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[1]، لأن الشرك ليس مقصوراً على عبادة صنم ونحوه، وإنما هو عام في انصراف القلب عن الله إلى غيره، فمن انصرف قلبه إلى

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٥١.

غير الله بحب أو إجلال أو تعظيم أو خوف أو رجاء أو رغبة ونحو ذلك، فقد أشرك مع الله غيره، واتخذ لله أنداداً من محبوبات لنفسه ورغباتها.

وهذا النوع من الناس هو الذي إذا أذنب لم ينزع من الذنب، بل يسوف بالتوبة على الأقل حتى تتراكم عليه الذنوب، وتحيط به، لوقوعه في حالة من الشرك التي صورها ابن القيم رحمه الله، هذا إذا لم يتعلق قلبه بحب الطواغيت أو بعضهم، فيستحسن ما يصدرون من مخالفة ما أنزل الله في أي ميدان، أو يتمنى عزهم أو تفوق بعضهم على المسلمين، ونحو ذلك مما هو هدم لأصل التوحيد.

ولا شك أن التائب من الخطايا قبل الموت في وقت تقبل فيه توبته، فإنها لا تحيط به ولا تطوقه، فتحبسه عن الانطلاق في مجال التوحيد والأعمال الصالحة، وإنما هي تكون كذلك مع عدم التوبة، لأن صاحبها استساغها ورضي بها واطمأن إليها والتذ بها ورضيها كسباً له حتى تحيط به وتأخذ بجوانب وجدانه وأحاسيسه.

فإذن في قوله سبحانه: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ تجسيم لهذا المعنى، وهذا من خواص التعبير القرآني، ليجعل له وقعاً في النفس، لأنه لو أحس بخسارة المعاصي ما أقدم عليها متحمساً، ولا يسمح لنفسه أن تنجس فيها وتتغمس في أتونها، ولكنه على ما وصفنا حاله من الالتذاذ بها والاطمئنان بها، فلهذا أحاطت به وكان حظه الخلود في النار لإخلاله بالتوحيد المنجي من الخلود.

فهذا مصير الشطر الأول في حكم الله، الشطر الذي حظه الخلود في النار أبداً، ليس مكثه أياماً معدودة كما زعمت اليهود.

فالشطر الأول الذي اختار لنفسه تطويق المعاصي بمواصلة الرغبة فيها وعدم التوبة منها فهو الخلد في النار.

والشطر الثاني هو من عكس الأمر، فحق إيمانه، وصدقه بالأعمال الصالحة، وراقب الله فيما يأتي ويذر؟ ولم يصر على معصية دفعته إليها

شهوته، أو وسوسة شيطانه، بل يذكر الله ويبادر في التوبة، فهذا الصنف هم المؤمنون حقاً، وهم في حكم الله أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

وهذه الآية كغيرها من الآيات التي تؤكد للمسلمين أنه ليس للإيمان وجود صحيح بدون الأعمال الصالحة، وأن وجود الأعمال الصالحة دليل على وجود الإيمان، وانتفاؤها دليل على انتفائه، وإن دعوى الإيمان بالقلب دعوى فاسدة كاذبة يكذبها واقع صاحبها من حركاته وسكناته، والله أعلم.

ربوا أنفسهم على نقض العهد

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾(1).

كانت الآيات السابقات تذكيراً لبني إسرائيل بالنعم التاريخية والملية، وذلك كتفضيلهم الذي يوجب عليهم الشموخ برؤوسهم عن المعاصي، وإنجائهم من آل فرعون ومن الغرق، وإيتاء موسى الكتاب لهدايتهم، وتيسير معيشتهم، والترفيه عليهم في التيه، بتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، والآيات البينات في إحيائهم من الصاعقة، وتفجير عيون الماء من صخرة صغيرة تحمل باليد، ورفع الطور فوقهم كالظلة ليأخذوا الكتاب بقوة، ومقابلتهم لتلك النعم والآيات بالتمرد والجحود، والتعنت على موسى عليه السلام.

أما هذه الآية وما بعدها ففيها التذكير بأمهات الأحكام في العبادات التي هي من روافد العقيدة والإيمان، وفي المعاملات السياسية والاجتماعية مما هي من ضروريات الحضارة والاجتماع، كما فيها وما بعدها بيان ما عليه

---

(1) سورة البقرة. آية ٨٣.

اليهود من غلظ القلوب وقسوتها وكثرة المراء والمشاغبة، فلذا جاء الله بها على سبيل الإطناب لما شحنت به أذهانهم مما يسمى علماً خالياً من الإيمان الصحيح والتقوى، وكل علم خال من ذلك يحجب قلوب أهله عن دخول شعاع الحق، والركون إلى ذكر الله، فيحصل من أهلها التعنت على الدعاء والشرود عن طرق الخير والهداية، كالعلم المادي الذي يتلقاه أكثر الناس في هذا الزمان، مما هو من تخطيط اليهود بمكر دقيق، فالعلم الذي لا يكون مشبعاً بروح التوحيد والإيمان يكون ضرره أكثر من نفعه، إن لم يكن كله ضرراً، ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾[1].

كرر الله تعليل اختلافهم، وإصرارهم على فعل الشرور، في سورة البقرة وآل عمران ويونس والجاثية، وعلى العكس سلف هذه الأمة الذين كان علمهم روحانياً صحيحاً، كانوا مضرب المثل في الصلاح والإصلاح، وفتح القلوب، وتطهير كل بلد تطؤها أقدامهم من الفساد والأنانية، فما أبعد الفرق بينهم وبين الإسرائيليين للاختلاف الشاسع في أصل العلم، والله يذكر رسوله بالدور الثاني من أدوار بني اسرائيل قائلاً: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وهـذا النهي عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته، لأنها الأصل الأول لدين الله على ألسنة جميع الأنبياء والمرسلين أن تحصر جميع أنواع العبادة لله، ولا يشرك بها غيره مهما كان، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وزعيم محبوب، أو متحكم، سواء كان من الزعماء الروحانيين أو السياسيين.

ومن مهمات العبادة الوقوف عند حدود الله فيما أباحه أو حرمه أو أوجب الاحتكام إليه، فمن حرم شيئاً مما أباح الله، أو أباح شيئاً مما حرم

---

(١) سورة الجاثية، آية ١٧.

الله، أو حكم بغير ما أنزل الله، معتقداً أحقيته على حكم الله، فهو مشرك مهما عمل من الأعمال، فوصية الله الأولى في خلقه أجمعين، أن لا تعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به شيئاً، ثم توثيق الصلة بين وشائج الإنسانية التي منها بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب، والعطف والحنان على اليتامى والمساكين وابن السبيل، ولذا ابتدأ الله بالأهم منها قائلاً: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بتعظيمهما وتوقيرهما، والعطف عليهما، وطاعة أمرهما فيما لا يخالف أوامر الله، وعدم الشح عليهما، لأنهما قد بذلا له غاية الرعاية والشفقة، وقاما بشؤونه، وتألما لآلامه، وسهرا لسهره، وفضلا شهوته على شهوتهما، وراحته على راحتهما، وخصوصاً الأم، فإنها تمتاز بمزيد من البر والإحسان، لزيادة شفقتها عظيم كلفتها.

وقد ورد في التوراة الحكم بقتل من سب والديه، وسيأتي المزيد والمزيد من ذكر الإحسان إلى الوالدين إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مما هم من جهة الآباء أو الأمهات، لأن الإحسان إليهم يقوي الروابط فتتأصل الوشائج، فبالتعاطف والإحسان للأقربين يبلغ الاتحاد والتكاتف والتساند أعلى درجات الكمال، والأمة تتألف من أسر وعائلات، ومن ليس له بيت صالح ليس له أمة، وصلاح البيوت بالعطف والحنان والبذل والإحسان، وجميع بيوت القرابة تكون بيتاً واحداً بحصول ذلك، فبحصول التراحم والتعاون بين سائر القريبين تشتد الأواصر، وتقوى الروابط حتى يكون أبعد الأقارب نسباً مثل أقربها.

فهذه الأوامر الشرعية هي من الضروريات الفطرية لبني الإنسان، ومن فسدت فطرته فقسا على أقاربه وأعرض عنهم وابتعد بخيره منهم، فإنه لا يرجى فيه خير للأمة، ويكون محروماً من نصرة عصبته وأقاربه، وإذا خذله القريب فالبعيد أولى بالازدراء والحرمان، ومن لم تنفع فيه لحمة النسب التي هي أقوى صلة بين الناس، فأي لحمة بعدها تصله بغيرهم

من الناس، فتجعله جزءاً منهم؟ لا يمكن أن ينتفع الإنسان بغير أقاربه الذين يسره ما يسرهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسوؤهم ما يسوؤه ويرى منفعتهم منفعة له، ومضرتهم مضرة عليه، وهم كذلك، فإن بهذا الترابط بين الأسر قوام المجتمعات وتكاتفها، وبانعكاس ذلك يحصل التفكك والانحلال وتكثر النفرة.

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾. واليتيم: هو من مات أبوه[1] حال الصغر ولذلك قدم حقه على المسكين في جميع الوصايا الآتية دون تقييد بفقر أو مسكنة، لأن الوصية مقصودة لذاتها، لكون اليتيم فقد حنان والده ونصرته عزه، ففي قلبه انقهار أصيل ينبغي من كل أفراد المجتمع اجتثاثه بإسباغ العطف والإحسان والمواساة، والقيام بحفظ حقوقه، حتى لا يشعر بقهر ولا ذلة، ولا يكون فيه تعقيد، فإن أغلب أدواء المجتمع من الأشخاص المعقدين، واليتيم وإن كان له أم فإنها عاجزة عما يقوم به أبوه، خصوصاً إذا تزوجت وأنسلت غيره من محبوبها الأخير، فأراد الله أرحم الراحمين من عباده أن يكونوا كلهم آباء للأيتام حتى لا يفسدوا وتتعقد نفوسهم، وهذا من جملة الدلائل على عظم صلاحية دين الله للناس، وموافقته لنظريتهم، وقوامته على إنسانيتهم.

(أما المساكين): فهم جمع مسكين، وهو الذي يعجز عن تحصيل ما يكفيه، فينبغي الإحسان إليهم ورفع مستواهم، وليس المساكين هؤلاء الشحاذين محترفي السؤال ممن قد يجمع أضعاف كفايته أو يكون له رصيد، وإنما هم الذين لا يسألون الناس إلحافاً، وسيأتي في موضع آخر بعض التوضيح لرفعة مستواهم، إن شاء الله.

---

(١) هذا في بني الإنسان، أما اليتيم من الحيوان فهو من ماتت أمه حال الصغر.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ هذه وصية عامة بعدالوصايا الخاصة بما يصلح البيوت من الإحسان إلى الوالدين والأقارب، وما يصلح بعض العامة من معونة اليتامى ورفد المساكين، أوصى بهذه الوصية العامة لسائر الناس، فكأنه يقول: يا بني إسرائيل عاملوا الناس بمثل ما تحبون أن يعاملوكم به، انصحوا لهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحسن التوجيه، والقيام بالإصلاح - فليس معنى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ مجرد اللطف بالقول والمجاملة، وإنما هو ما يريده الله من النصيحة بكامل أنواعها، لتسود المحبة ويعم الوئام، فتحصل الوحدة الروحية الكفيلة بحصول جميع أنواع الوحدة. والقول الحسن: يحسن في مواضعه، من تذكير الناسي، وتعريف الجاهل، أما المعاند الذي يسمع نداء الأذان، نداء الله، ويصم أذنيه، معرضاً أو متهكماً، فهذا ينبغي معاملته حسب النصوص الشرعية إلى ما يقتضيه الحال.

وقوله تعالى لهم: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر اللهأولاً بعبادتهمجملاً ليعلم كل فرد منهم ومن غيرهم أنه مكلف بنوع من أنواع العبادة، يقيمون وجههم فيه لله وحده لا شريك له، وحيث إن بعض العبادات لا يهتدي إليه إلا بهداية الله، وأعظم ذلك الصلاة اختصها بالذكر قائلا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامتها بصدق التوجهإليه والخشوعالتام لعظمته وجلالته، والاستكانة لسلطانه، واستشعار جنابه العزيز، وليست الصلاة مجرد الإتيان بصورتها، فإن الإتيان بصورتها فقط لا يؤدي الثمرة المقصودة من إصلاح النفوس وتنقيتها من أدران الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، ولهذا لما كانت صلاتهم خالية من روحها فقدوا ثمارها، فكان نصيبهم التولي عن أمر الله ونكث عهده، وهم يصلون من عهد موسى إلى عهد النبوة.

ولما كانت الزكاة قرينة الصلاة في الفرضية، وقرينتها في التأثير، من تليين القلب، ومراقبة الله بالدفع، وتطهير القلب وصيانة المال، قال الله لهم: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لما فيهامن إصلاح المجتمع،وبذر المودة فيما بينهم، وحسن التصرف في المال، وقد كان لهم ضروب في

دفع الزكاة، منها ما يدفعونه لآل هارون الذي يسمونهم الآن بالأيوبيين، ومنها ما يدفعونه للمساكين، ومنها زكاة ثمرات الأرض، ومنها زكاة السبت في كل سنة سابعة يتصدقون بما يخرج فيها، ولكنهم لما قصروا في إقامة الصلاة، فقست قلوبهم عن تحقيق واجب الزكاة، استمر أكثرهم على التمرد ،ونقض العهود ،والتولي عن أمر الله، فلهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ يعني ثم كان عاقبة أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم وصلاح مجتمعكم، وفوزكم برضوان الله الذي يعزكم، وينجز لكم وعده العاجل والآجل، كانت عاقبتكم التولي عن العمل بما أمر الله عن إعراض عنه وعدم اكتراث به.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ يفيد بكل جلاء ووضوح أنهم قد انصرفوا عن أوامر الله وعهده إلى غير رجعة، قد صمموا العزم على عدم العودة إلى ما انصرفوا عنه، ذلك أن الإنسان قد ينصرف عن الشيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، إذ ليس كل متول عن شيء معرضاً عنه ومهملاً له بالكلية إلى الأبد، إلا بنو إسرائيل، فإنهم انصرفوا وتولوا عن أمر الله، عازمين على عدم العودة أبداً، فلهذا وصف الله حالهم بكامل الانصراف وإنما هي تتميم للمعنى الذي هو من لوازم حالهم.

والسبب الأصيل في ذلك التولي والإعراض أن الله سبحانه أمرهم، كما أمر من قبلهم، وكما أمر من بعدهم، من قصر أخذ الدين على وحيه المبارك، نعم أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من جهة الوحي لا يكون مشوباً بمصدر آخر، فخالفوا أمر الله، واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، يحلون برأيهم، ويحرمون برأيهم، ويسقطون عنهم من واجب المال على رأيهم، بل يسقطون من فرائض الصلاة على حسب أذواقهم وما يرونه مصلحة، وينيطون الإباحة والتحريم باجتهادهم، ويزيدون في التشريعات وينقصون، ويصنعون ما شاؤوا من الأعياد والاحتفالات والشعائر مما صدق عليهم أنهم اتخذوا من دون الله شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به

الله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يضع الدين وحده بجميع أصوله وفروعه، ليس ذلك لأحد سواه، كائناً ما كان، حتى الرسول الأمين محمد ﷺ قال الله فيه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾(١).

وأن العلماء كالدليل على الطريق يستعان بهم على فهم الوحي، والحكام ينفذون فلا يملك أحد منهم حق التشريع في أي ناحية من نواحي الحياة، سواء كانت سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية، بل يجب حصر الإتجاه والتشريع في جميع هذه الشؤون لله وحده وأن لا يجعل أحد لنفسه الخيرة في شيء من ذلك دون الرجوع إلى حكم الله فيه والتزامه، لأن المشرع في شيء من ذلك يكون منازعاً لله في ألوهيته وملوكيته، فيخرج عن دينه وعبوديته إلى عبودية الهوى والشيطان، ويكون المتبع له ولأمثاله، متخذاً من دون الله شركاء، يشرعون لهم ما لم يأذن به الله.

وهذا الداء العضال هو سرطان بني إسرائيل من قديم الزمان، ولهذا اعتنى الله بنشر مخازيهم رحمة بهذه الأمة وتوعية لها، وتحذيراً من سلوك مسالكهم، ولقد عمل اليهود على إضلال جميع العالم، وركزوا جهودهم في إضلال هـذه الأمة بشتى ضروب الإضلال وأساليبه، وبثوا عملاءهم ووكلائهم في كل ناحية وميدان، وحرصوا على إضلال المتمركزين في المراكز الدينية والدنيوية، وأحدثوا من البدع والخرافات الكثير، ثم من المبادىء العصبية والمذاهب المادية آخراً، لأنهم يلبسون لكل عصر لباساً، فأولعوا المتمركزين في النواحي الدينية سابقاً على تقديس المقبورين واعتقاد أقطاب وأوتاد تتصرف في الكون وتحمي اللائذ بها من عقوبات الله، وجعلوا تحت هؤلاء ما يسمى بالكبريت الأحمر (زيارته نفعها مجرب)(٢) إلى غـير ذلك، وأولعوا المتمركزين في المراكز الدنيوية على اللهو والمجون

(١) سورة الحاقة، آية ٤٤.

(٢) هكذا يزعمون بل هكذا يكذبون.

والسكر والعربدة وإشباع الغرائز واتباع الشهوات وازدراء الدين.

ثم تفاقم شرهم إلى أبعد من ذلك، حتى عملوا على فصل الدين عن الدولة، تنفيذاً لقرارات الماسونية، كما تقدم ذكره، وجعل الحكم للمصنوعين من خلق الله لا لله، إيغالاً في نقضهم لمواثيق الله وعهوده، قال صاحب المنار رحمه الله: «وقد اتبع سنن اليهود في هذا التشريع - المخالف لحكم الله - جميع من بعدهم من أهل الملل، وحكم الجميع عند الله واحد لا يختلف، فهو لا يخالف أحداً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1]. إلى أن قال: لو تدبر جهالنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم، ولو فرض أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة فإن وجودهم لا يغني عن الأمة شيئاً، وقد عصى الله جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به، فقد جرت سنته في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال التي تكون بها العزة، ويحفظ بها المجد والشرف، ومن لم يعتبر بآيات الله في كتابه لا يعتبر بآياته وسننه في خلقه، فقد فتن المسلمون في دينهم وديانتهم، وحل بجميع بلادهم ما حل من البلاء، وهم لا يعتبرون».

والمقصود أنه يجب علينا أخذ الحذر والحيطة من اليهود، بالابتعاد التام عن كل ما خططوه، وأن نعرف مراد الله من هذه الآية الكريمة التي ذكرت بعض تفسيرها، وأختمه بأنها تنص على وحدة دين الله لموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وغيرهما من الأنبياء، وأنها تنص على تصديق هذا الدين المحمدي[2] لما قبله في أصوله، أما تعنت اليهود فقد نصت عليه

---

(١) سورة الكهف، آية ٤٩.

(٢) أنظر ما ذكره الشيخ العلامة الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله حول مفهوم ربط الدين بأسماء الأنبياء في فصل (لماذا سمي الدين بالإسلام) من كتابه القيم (مبادىء الإسلام). ففيه كلام طيب حيث أشار إلى أن الدين الإسلام خلاف غيره لا ينتسب إلى رجل خاص، ولا إلى أمة بعينها.

كسابقاتها وسنرى في الآيات المقبلة أمراً عجباً من تعنتهم ومتناقضاتهم، وبالله التوفيق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(١).

هذا الشطر الثاني مما أخذ الله به العهد والميثاق على بني إسرائيل، وهو مختص بالمنهيات المحرمات عليهم، والأول مختص بالأوامر الواجبة عليهم وصبغته اجتماعية واقتصادية، وأما هذا الشطر الثاني فصبغته سياسية، وهو مما يدحض شبهتهم وشبهة أفراخهم من النصارى وتلاميذهم من أبنائنا المصدقين لهم، بزعمهم أن الدين ليس له دخل في السياسة، ووحي الله مملوء بدحض شبهتهم هذه.

ولعلك تذكر أيها القارىء الكريم أن الله قال في الآية الأولى التي تضمنت مهات المأموارت: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَاءِيلَ﴾ يقصد الذين نزلت عليهم التوراة في أول عهدهم، ثم التفت إلى الحاضرين المعاصرين لمحمد ﷺ والمجاورين له في المدينة قائلاً: ثم ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾، مضى الآن على هذه الالتفاتة قائلاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ ولا شك أن هذا إعلام بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد يصيب خلفها ما أصاب سلفها من خير وشر، ما دام الخلف مستناً بسنة السلف، ومرتبطاً به، وجارياً على طريقته، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة على بدنه في آخر عمره، فإنها تؤثر على قواه النفسية.

فالأمة الواحدة في العقيدة يستوي أولها منذ بدء كيانها مع آخرها إلى الأبد، ما دام الآخر مرتبطاً بعقيدة الأول، ومستناً بسنته، لم ينحرف عنها، فإذا انحرف بعقيدته وأخلاقه انفصل عن أمته وسلفه، هذه قاعدة مطردة لا تقبل الجدل، فلهذا يخاطب الله يهود المدينة وقت نزول القرآن،

(١) سورة البقرة، آية ٨٤.

مخاطباً أسلافهم الذين تعنتوا على موسى، ويوجه إليهم التوبيخ والتقريع والتسفيه والتهديد، كأنهم هم بأشخاصهم.

ثم إن الله أكد هذه الوحدة في جميع الكلمات من نصوص هذه الآية والتي بعدها، قائلاً سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، فهذه الآيات السياسية أوضح الله فيها وحدة الأمة وتضامنها بقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، فجعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه وكأنه دمه، وذلك لإتحاد العقيدة، أي عقيدة، تبطل النسب وتقضي عليه حتى تربطه تلك العقيدة التي حالف بها قومه بقوم آخرين، وهذا من الضروريات التي لا جدال فيها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ فالمعنى لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم، ولكن الواجب الوحدة السياسية المرتبطة بالعقيدة، جاء خطاب الله للجميع مؤكداً تضامنهم فيما يفعلون، وإن إساءة الواحد منهم إلى أخيه إساءة منه لنفسه ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ يشعر كل فرد من الأمة أن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، وأن الروح التي يحيا بها والدم الذي ينبض في عرقه، هو كأرواح الآخرين ودمائه، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت صفوفهم وجعلت أقدامهم متساوية في الخير والشر، وقد خاطب الله الأمة المحمدية في القرآن بمثل هذا الخطاب حيث قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾(١). وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾(٢).

فأمة العقيدة الواحدة متساوية في الوجدان والشعور والأحكام والمسؤولية، ولذا يوجه الله الخطاب للجميع، وعند اختلاف العقيدة تتغير

---

(١) سورة النساء، آية ٢٩.

(٢) سورة الحجرات، آية ١١.

هذه الوحدة ويرخص دم صاحبها، كما قال ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[1].

وكما فصل الله ابن نوح عن أهله بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ يعني أقررتم بالميثاق الذي أخذناه عليكم بقتل بعضكم بعضاً، ولا يسترقه، ولا ينفيه، ولا يلجئه إلى السرقة بتضييق العيش عليه.

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ خطاب من الله سبحانه لليهود الذين كانوا حول المدينة أحلافاً للأنصار، مؤنباً لهم على خيانة عهد الله بتضييعهم أحكام التوراة التي بأيديهم ويقرون بحكمها، فلهذا قال لهم الله: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ يعني إقرار أوائلكم وأسلافكم وأنتم تشهدون على إقرارهم بأخذ الميثاق عليهم، كما أنكم مثلهم بالإرتباط بهذا العهد والميثاق، قد ورثتم التوراة وتحملتموها بعدهم، فأنتم معهم في المسؤولية سواء.

فماذا كان منكم بعد إقراركم بهذا الميثاق وشهادتكم عليه؟

يخبرنا الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨/١٢) في استتابة المرتدّين، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم. والترمذي برقم/١٤٥٨/ في الحدود، باب ما جاء في المرتد، وأبو داود برقم/٤٣٥١/ في الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، والنسائي (١٠٤/٧) في تحريم الدم، باب الحكم في المرتد، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في المسند (٢٨٢/١).

(٢) الآية/٤٦/ من سورة هود عليه السلام.

(٣) سورة البقرة، آية ٨٥.

فالله سبحانه فضحهم وأوضح نقضهم للعهد، مؤنباً لهم على ذلك، ومتوعداً بأعظم الوعيد قائلاً: ثم أنتم يا هؤلاء الحاضرون ورثة السالفين تقتلون أنفسكم، يعني يقتل بعضكم بعضاً، كما كان يفعله سلفكم، مع أنكم معترفون بأن الميثاق مأخوذ على الجميع، ويخرج الآن بعضكم بعضاً من ديارهم، وذلك في الحروب التي جرت بين الأوس والخزرج أيام الجاهلية الوثنية، لأن بني قينقاع والنضير حلفاء للخزرج، وبني قريظة حلفاء للأوس، وكل فريق ينحاز إلى حليفه حالة الحرب والقتال، يتظاهر هؤلاء على هؤلاء بالإعانة.

فقوله: ﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم ﴾ يعني تتعاونون لتقوية بعضكم ظهر بعض، فهو تفاعل من (الظهر) وهو مساندة بعضهم ظهره إلى ظهر البعض الآخر، قال ابن جرير: «وحدثني موسى بن هرون، قال حدثني عمرو بن حماد، قال حدثنا أسباط عن السدي»: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾.

قال: إن الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروا بما قام ثمناً فاعتقوه، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب «سمير»، فيقاتل بنو قريظة - مع حلفائهم - النضير وحلفاءها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، فيغلبونها، فيخربون بيوتهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه، فتعيره العرب بذلك ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم. قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن نستذل حلفاءنا، فذلك حين عيرهم الله عز وجلّ فقال: ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾.

فالخطاب واضح في توجيهه إلى الحاضرين المعاصرين لمحمد ﷺ، والإثم هو الذي يستحق صاحبه الذم عليه والعقوبة، اما (العدوان) فهو الإفراط في الظلم والتجاوز فيه، ولا شك أن ما حرم على بني إسرائيل من ذلك، فهو محرم علينا، وقد وقع منا كما وقع منهم، إلا أن بيننا وبينهم فوارق، وهي أن ما جرى بين الأمة أمر أضطراري ألجأتهم إليه الفتن التي هي من عقوبات هذه الأمة، بدلاً من الخسف والمسخ والإهلاك العام الذي جرى على من قبلهم، وقد أشار الله إليه بقوله في الآية (٦٥) من سورة الأنعام: ﴿ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يعني يجعلكم أحزاباً متناحرة، يفتك بعضكم ببعض، عقوبة لنا كلما فرطنا في جنب الله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ لما بين الله جريمتهم الأولى، من تظاهر بعضهم على بعض في الإثم والعدوان، من القتل والسلب والإخراج من الديار، أخذ سبحانه وتعالى يخبرنا عن جريمتهم الثانية وتناقضاتهم البشعة، من فدائهم للأسرى الذين حرم الله عليهم بادىء الأمر إخراجهم، وهذا من مثارات العجب، وفيه من الاستهزاء بآيات الله، وضرب بعضها ببعض، ذلك أنهم كانوا يتفقون على فداء الأسرى، كل فريق من اليهود يفدي أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في التوراة، كتاب الله، بفداء أسرى بني إسرائيل، فإن كانوا متمسكين بالكتاب، فلأي شيء قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم، وهم منهيون عن ذلك في التوراة؟ فهل الأسر عندهم أعظم من القتل والإخراج من الديار؟.

فكيف تستجيزون قتلهم إلى جانب حلفائكم الوثنيين وأنتم أهل كتاب، ولا تستبيحون تركهم أسرى بدون فداء؟ وحكم الله في الجميع سواء، لأن الذي حرم عليهم من قتلهم وإخراجهم من دورهم نظير الذي حرم عليهم من تركهم أسرى بلا فداء، فما هذا التلاعب فيما فرض الله عليهم؟ وما هذا الإخلال بحدود الله؟ أم لا تصدقون التوراة إلا بفداء الأسير فقط؟ إن

الميثاق السياسي الذي واثقكم الله به، وشهدتم عليه، اعترفتم به، هو أربعة أمور: ترك القتل، وترك الاخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسرى، فرفضتم التصديق العملي إلا في رُبْعِه وكفرتم بثلاثة أرباعه، فأي ذمة تبقى لكم عند الله؟ والإيمان الصحيح والتصديق العملي هو التنفيذ، ألا ترى قوتهم في تنفيذ فكاك الأسرى؟ لهذا اعتبرهم الله مؤمنين ببعض الكتاب وكافرين ببعض، لأن عدم التنفيذ لا يصدر من مؤمن، فكيف إذا نفذ ما يخالف الأوامر؟

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ ﴾ يعني لا جزاء عند الله مقابلاً وموافقاً لمن ينقض عهده السياسي منكم، فيعمد إلى قتل النفوس وإخراجها من ديارها، والتظاهر بالإثم والعدوان مع الوثنيين الذين ليس لهم عهد ولا كتاب: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ عند الله الذي يوفي كل عامل جزاء عمله وفاقاً ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾، وقد عبر الله سبحانه بصيغة النكرة في سياق النفي ليعمم جميع أنواع الخزي مدى الحياة.

والخزي: هو الذل المتنوع المتجدد، والصغار المتجدد المتنوع، والفضيحة المتنوعة، وشماتة الأعداء، والامتهان التام، كل هذا عوض لهم وجزاء على ما قاموا به مما اعتبره العليم الحكيم أنه إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وكتاب الله لا يتجزأ حكمه في وجوب الإيمان الذي هو صدق التنفيذ، بل حكمه واحد، يجب أن يعمل به جميعاً، وأن تنفذ تشريعاته وحدوده جميعاً، لا أن يعمل ببعضه ويطرح بعضه كما فعلت يهود، وقد لاقوا جزاءهم جميعاً هم وأسلافهم، فأسلافهم لاقوا من صنوف الخزي في الحياة الدنيا بحيث لم تقم لهم قائمة، وكان حظهم الذل والصغار، أما خلفهم المعاصرون لمحمد ﷺ، فقد لاقوا الخزي اللائق بهم على يد رسول الله ﷺ، حيث أجلي بنو النضير وبنو قينقاع بعدما زلزل الله

حصونهم العظيمة المنيعة ذات الأسوار المتكررة وأخرجهم منها، كما أخبر الله عنهم في الآية الثانية من سورة الحشر بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1] - إلى قوله ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

وحيث قتل مقاتلة «بني قريظة» وسبى ذراريهم ونساءهم وأخذ أموالهم، فهذا خزي عاجل في الحياة الدنيا، بل هذا من بعض أنواع الخزي الذي تذوقوه، نال أسلافهم أعظم من ذلك على يد «ذي القرنين المقدوني» وعلى يد «بختنصر» وغيرهم من جلادي النصارى وسفاحيهم، ولا يزالون يتذوقون أنواع الخزي على يد حكام «أوروبا» المختلفين، إلى حكام روسيا القيصريين وألمانيا النازيين، لهم مكر عميق لم يحصل عليه غيرهم في شيئين:

(**أحدهما**): حذقهم في كسب ود بعض الدول والشعوب بأحابيل لا يقدر عليها سواهم.

و(**ثانيهما**): تخطيطهم الدقيق لإقامة ثورات وانقلابات في ربوع العالم، يكون فرسان ميادينها عملاء وتلاميذ لهم صنعوهم على أعينهم بتربية خاصة أو توجيه خاص، كما أن لديهم شيئاً لا يجاريهم فيه سواهم، وهو أنهم عندهم حنكة في تسخير الأموال لأهدافهم بشكل منقطع النظير حتى أصبحوا يتحكمون في الانتخابات العالمية، فلا يبرز رئيس في البلاد الدستورية إلا بأصواتهم.

أما العسكرية فلهم ميدان السبق فيها من أصل التكوين، كما هو ظاهر من وصايا محافل ماسونيتهم ووصايا «حاخاماتهم» وبروتوكولاتهم الملعونة،

(١) سورة الحشر، آية ٢.
(٢) سورة الحشر، آية ٥.

ولكن الله من ورائهم محيط ،من كان الله خصمه فإنه ولو حصل على نصر مؤقت أو جولة إفساد فإن الله يجعل هذا سبيلاً ووسيلة لهلاكه المحتوم وخزيه المحقق في الدنيا وهم مهما تفوقوا في المكر والحيلة وصرف المال وكسب الأصدقاء وتربية التلاميذ والعملاء لا بد أن تكون عاقبتهم الخزي بجميع أنواعه ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ من عقوبات الله المتنوعة التي أولها في البرزخ في قبورهم، وثانيها بعد نشرهم مما يلاقونه من فظائع الهول التي تتضاعف عليهم قبل الحساب ،وثالثها شدة الحساب الذي مصيرهم فيه الخسارة الكبرى في نيران الجحيم خالدين مخلدين فيهـــا أبـــداً ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بتـــاء الخطاب، وهي القراءة المشهورة، وهناك قراءة أخرى بالياء رجحها ابن جرير، زاعماً أن فيها قرابة من نصوص الآية ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ و﴿ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

والمعنى أن الله سبحانه قائماً بالقسط، لا يحابيكم كما تزعمون، وأنه ليس ساه عن أعمالهم الخبيثة، بل هو محص لها ومجازيهم عليها في الدنيا وفي الآخرة، وفي هذا تهديد لهم ولجميع أمة محمد ﷺ من سلوك هذه المسالك المنحرفة بمعاملتهم كتاب الله وفق أهوائهم، يؤمنون بما يناسبهم ويوافق أهواءهم ومصالحهم الشخصية، فيعملون به وينفذونه، ويطرحون ما سواه، كأنه ليس من وحي الله في شيء، كأن الوحي المنزل صادر من إلهين: إله معظم مرهوب يعمل بما أصدره فيه، وإله غير معظم ولا مرهوب فيرفض ما هو من جهته.

فعلى أمتنا المحمدية أن تغير موقفها من القرآن، فتعمل به جميعاً في غاية التنفيذ والتطبيق ولا تشابه اليهود في العمل ببعض التوراة وترك البعض الآخر، فإن هذا كفر يوجب الخزي في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

قال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة، آية ٨٦.

يصف الله سبحانه حقيقة أمرهم، ويبين السبب الوحيد الذي من أجله طرحوا العمل بما في كتابهم من مهمات السياسة والاجتماع، قائلاً: ﴿أولئك﴾ القوم إنما عملوا ما عملوا لأنهم فضلوا الحياة الدنيا على الآخرة، فباعوا آخرتهم النفيسة بأغراضهم الدنيوية الخسيسة، وتركوا أوامر الله في الكتاب من أجلها، وأقدموا على منهيات الله فاجترحوها لغايات يظنونها سياسية نافعة، وهي مخالفة للسياسة الحقيقية النافعة التي أرشدهم الله في التوراة من عدم موالاة الكافر المشرك ومعاونته على أهل دينهم، ومن عدم إخراج أهل دينهم من دينهم إرضاء لحلفائهم المشركين، إنه كان بوسعهم أن يلتزموا من الفريقين المشركين المتحاربين موقفاً محايداً تاماً لو كان عندهم لله ذرة من تعظيم، ولكن تأبى نفوسهم اللئيمة أن يعظموا الله حق التعظيم، أو ينفذوا أوامره حق التنفيذ، أو يتقوا مساخطه حق الاتقاء، أو يثقوا بوعده الذي لا يتخلف عمن صدق معه، إنهم لا يتمسكون بميثاق الله الذي أنجاهم من مخطط الإبادة عند الفراعنة، وأهلك من يريد إهلاكهم وهم ينظرون، وأنعم عليهم بنعم عشر لم تتوفر لغيرهم من العالمين، ولكنهم يتمسكون بميثاق أعداء الله من الكفرة الوثنيين المتحاربين، ذلك الميثاق الذي يجبرهم على قتال أهل دينهم، وإخراجهم من ديارهم، وتخريب حرثهم ونسلهم في سبيل من هو مخالف لهم في الدين، ومعاذ لله ربهم ورب العالمين.

هكذا اللؤم اليهودي، ولؤم كل من سلك مسلك اليهود، أو تتلمذ عليهم من أهل المبادىء المادية، يسلكون ما يرونه في الظاهر ملائماً لمصلحتهم ضد أهل دينهم، وإن كان في حقيقة الأمر غير صالح، وهكذا كل من غلبت عليه الأنانية، يوالي الكفرة ويحالفهم، ليحاربوا معه ويحارب معهم أهل دينه والعياذ بالله، وهذا من شطط السياسة الذي حذرت منه كتب الله جميعها، وقد جرى هذا من حكام الأندلس في آخر عهدهم، حيث حالفوا الكفار ضد بعضهم البعض، ومن العرب القوميين الذين حالفوا أغدر الكفرة ضد مسلمي الأتراك (مسلمي شعبها المقاتل) ظناً منهم بحسن النتيجة حتى ظهرت حقيقة الأمر بخلافه، لأن الله علام الغيوب لا ينهي عن شيء

وفيه خير أبداً، إذ دينه مبني على جلب الخير والمصلحة ودفع الشر والمفسدة، وهو سبحانه يعلم ضغائن الكفر، وما يبطنونه من الغدر وخبث السريرة، فلذلك جاءت أوامره في التوراة والقرآن بالابتعاد عنهم والتمييز منهم في الشؤون الاجتماعية والثقافية، وعدم التشبه بهم أو الالتقاء معهم لا في الشؤون الثقافية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية، والانحياز عنهم تماماً في الشؤون السياسية، وعدم الارتباط بهم في أي حلف ضد من تربطنا بهم رابطة الدين، كما كان الإسرائيليون يفعلون ذلك، وهم منهيون عنه في التوراة، طمعاً في أغراض موهومة، ورفضاً لدين الله، فإن اليهود عليهم لعنة الله من قديم الزمان، ينقسمون إلى فريقين، وينضمون إلى حلفين أو معسكرين، ليمسكوا العصا من وسطها كالميزان، ويلعبون على الحبلين أو على حبال كثيرة، ويضمنوا مصالحهم إن انتصر هذا المعسكر أو ذاك. فموقف اليهود المعاصرين للبعثة المحمدية من مخالفة الأوس والخزرج صورة مصغرة لمواقف أسلافهم من دول النصارى والفرس وغيرهم في أوائل الزمان، وموقف خلائفهم الآن من الدول المتطاحنة، وتمركزهم في كلا المعسكرين، واستغلالهم جميع الفرص، وكسبهم جميع الزعامات، وتحايلهم على كل دولة، حتى وصلوا إلى حالتهم المشاهدة، ليس بالحق والشجاعة والصدق والرجولة التي تلبس بها المسلمون في غابر الزمان، ولكن بالمكر والخديعة.

ومع هذا فكل ما حصلوا عليه في (فلسطين) لا يعتبر في الحقيقة نصراً لهم، وإنما هو تأديب من الله للمفرط في رسالته، والمخالف لوحيه، والرافض لألوهيته سبحانه، باستباحة ما حرمه من الخمور والقمار والربا والفواحش، وإيقاظ لمن غشهم اليهود بسلوك هذا المسلك أن يتلقوا الضربات من اليهود الجبناء - هذا من جهة - ومن جهة أخرى يستدرجهم الله بهذا النصر المؤقت المزيف كي يتجمعوا ويهاجروا من جميع أطراف الأرض، لتأتيهم عند استكمال هجرتهم وسيلان أموالهم ضربة عباد الله القاصمة القاضية على يد من شاء الله أن يستلم قيادتها في سابق علمه، والله يحكم لا معقب لحكمه،

ولا غالب لأمره، ولا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم(١).

فهؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وخالفوا ما أمرهم الله به، وما نهاهم عنه في النواحي السياسية، وحالفوا أعداءهم في الدين عن رغبة وشعور ضد إخوانهم في الدين، لما كان فعلهم هذا عن عدم ثقة بالله، وتفضيل لأغراضهم الشخصية على مراد الله، وزهد في الآخرة، وركون إلى الدنيا وحطامها الفاني ومنالها القصير، كأن حظهم من الله حظاً مناسباً وموافقاً لحقيقة حالهم، ولذا قال: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَاهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (سورة البقرة، آية ٨٦).

وقد أطلق الله سبحانه العذاب ليعم جميع صنوف العذاب في الدنيا والآخرة، وليفهم القارىء والسامع أن هذا العذاب ليس مقصوراً على عذاب الآخرة، كيف وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وما زال اليهود يتنقلون من قديم الزمان في صنوف العذاب في الحياة الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، وأنهم الآن يرقصون في أنواع من الخزي، فحياتهم في قلق وخوف وإزعاج مهما حصلوا على نصر وتأييد من المؤيدين، فإن الخزي بجميع أنواعه سمة لهم ومكتوب من الله عليهم، وكذلك مكتوب وحاصل على كل من تشبه بهم من المسلمين، فكل من عمل عملهم من مسلمي الأندلس نال الخزي والذلة حتى الإبادة والعياذ بالله، وكل من شابهم من

(١) يشير بذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي، تعالى فاقتله، إلا الفرقد، فإنه من شجر اليهود**). وهذا الحديث أخرجه البخاري (٧٥/٦) في الجهاد. باب قتال اليهود، ومسلم برقم/٢٩٢٢/ في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاد، وقد ذكرت هذا الحديث وشرحته برواياته المتعددة في كتابي (صحيح أشراط الساعة).

(٢) سورة الطور، آية ٤٧.

المسلمين نال حظه من الخزي، كما حصل حتى في الشرق الأقصى، حيث سلط الله مجوس الهند على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

قال القرطبي رحمه الله وهو من أعيان القرن السابع: «قلت: ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن، فنظاهر بعضنا على بعض ليست بالمسلمين بل بالكافرين حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». انتهى كلامه.

وأقول: منذ أن تعاون المحسوبون على الإسلام مع الكفار ضد دولة الوحدة الإسلامية والمسلمون أذلاء تجري عليهم أحكام المشركين وقوانينهم الديوثية، وحتى بعدما رحلوا عن البلاد لا تزال محكومة من خلفائهم بهذه الأحكام، لأنهم صنعوا من أولادنا على أعينهم من يستحسن أنظمتهم ويستحسن حكم الله، وصرنا نتخبط في فرقة وشقاق بعيد، وركام من الدجل المغمي عن كل حقيقة، وهذا من بعض عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ذلك العذاب الذي لا يخفف عنهم ﴿وَلَاهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٨٦) ومن ينصرهم من الله؟

هذه الآية شأنها عظيم، وهي من الآيات الدالة على أن الاسترسال في الذنوب كفر والعياذ بالله. قال الإمام محمد عبده: «في التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن من يقدم على الذنوب لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهي الله عنه وتحريمه له فهو كافر به، وهذا هو الوجه في الأحاديث الصحيحة نحو: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[1]. انتهى

(١) رواه البخاري (٧١/١٢) في الحدود، باب السارق حين يسرق، وروى مسلم نحوه في جزء من حديث برقم/٥٧/ في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية وقد قيل في معنى الحديث: ان الزاني حين يزني لا يزني وهو كامل الإيمان، وقيل معناه: ان الهوى يغطي صاحب الإيمان فلا يرى إلا هواه ولا ينظر إلى إيمان الناهي له عن إرتكاب الفاحشة، فكأن الإيمان في تلك الحالة قد عُدم.

وقال ابن عباس تفسيره: يُنزع منه الإيمان، لأن الإيمان نزِهٌ، فإذا أذنب العبد فارقه، فإذا نزع عاد إليه هكذا - وشبك بين أصابعه ثم فرقها. أخرجه البخاري (٧١/١٢).

اليهود كفروا بكل الأنبياء

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

يكرر الله امتنانه على بني إسرائيل بإرساله موسى وإيتائه الكتاب، موضحاً مواقفهم المشينة تجاه النبوات، والحقيقة التي يجب معرفتها والاعتبار بها هي إرسال موسى إلى فرعون، موسى الذي نشأ وليداً في بيت فرعون وتربى على النعمة والترف والدلال. كيف يقف أمام فرعون أعظم الطواغيت وأبطش الفجرة، مخاطباً له بمنطق التسفيه والتهديد؟

نعم لقد تربى موسى تربيتين: تربية مادية مائعة في بيت فرعون، لو بقي عليها ما صلح لحمل رسالة الله ولا للصمود أمام هذا الطاغية، ولكنه حصل على تربية ثانية روحية هيأ الله لها أسباباً جعلته يهرب من فرعون خائفاً يترقب، ويذهب إلى (مَدينَ) فيعيش عيشة الخفض والخشونة أجيراً عند (شعيب) عليه السلام، يرعى الأنعام، ويتلقى المفاهيم الطيبة والتربية الروحية التي صنعه الله بها على عينه عند نبيه شعيب، يمكث عشر سنين

(١) سورة البقرة، آية ٨٧.

حتى إذا سار بأهله فاجأته المواهب الإلهية بعد الإعداد الذي أعده الله لها فيناديه من جانب الطور الأيمن الغربي ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[1].

ثم يأمره بإلقاء عصاه فيلقيها فتكون حية تسعى ثعباناً مبيناً مرعباً، ويأمره أن يأخذها بلا خوف مطمئناً له أنه سيعيدها كما كانت ليقوي رباطة جأشه، ثم يأمره بالذهاب إلى فرعون ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[2]. وفرعون بطشه معروف عتيد في ملكه، قوي في جنده في كفره، ظلوم غشوم متسلط، ولكن فوق هذا سلطان الله وقوة الله وحصانة الله.

يقول موسى لربه: ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[3].

وقال: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾[4].

والسلطان مشترك بين الحجة الباهرة والقوة القاهرة، وكلاهما حصلت لموسى وهرون أمام أعظم الطواغيت وأفظع الجبابرة.

هنالك تأتي ثمرة الدور الثاني من حياة موسى وتربيته الروحية، موسى الذي بتربيته المادية يهرب من فرعون خائفاً يترقب يعود إليه بالتربية الروحية مخاطباً له بأصرح خطاب وأبشع تهديد قائلاً: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ

---

(١) سورة طه، آية ١٤.

(٢) سورة طه، آية ٢٤.

(٣) و(٤) سورة القصص، الآيتان ٣٣-٣٥.

مَثْبُورًا ﴾[1] يجري بينه وبين موسى حوار عظيم ينكر فيه رب العالمين ويقرعه موسى بالقوارع العظيمة ويريه الآيات الكبرى فلا يستطيع حراكاً أمام هذا التحدي، ذلك أن الله شل حركته وأبطل كيده ولم يجعله يقدر إلا على التكذيب ورمى موسى بالسحر ثم الاستعانة عليه بالسحرة.

انظروا أيها المسلمون كيف شلّ الله حركة هذا الطاغوت أمام موسى فلم يستعمل معه حتى غليظ الكلام، فضلاً عن التهديد؟ أين ذهب بطشه؟ أين ذهبت غطرسته؟ أين ذهبت قوته وجبروته أمام موسى وهرون؟ إنه سلطان الله الذي خسأه وأرهبه وكبته وجمَّده. إنها حصانة الله التي لا يغلبها غالب والتي جعلته يتسول السحرة ويخضع لهم لما قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾ فيقول: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[2] يتنازل فرعون بسلطته وسلطانه طالبا دحض موسى على يد السحرة والمشعوذين كأنه لا يملك سوى ذلك، بل تردَّى إلى ما هو أسفل من ذلك حيث قال: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾[3].

الذي يزعم أنه ربهم الأعلى يعلن أنه يتبع السحرة! فهل يصبح الرب تابعاً للمربوب؟ نعم إن هذا الطاغية القائل: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾[4] والقائل ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[5].

قد أعلن على رؤوس الأشهاد استعداده لاتباع المنحطين من أراذل قومه أو مربوبيه على زعمه، انظروا معشر المسلمين إلى اضطراب هذا

---

(١) سورة الإسراء، آية ١٠٢.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان ١١٣-١١٤.
(٣) سورة الشعراء، آية ٤٠.
(٤) سورة القصص، آية ٣٨.
(٥) سورة النازعات، آية ٢٣.

الطاغوت وتناقضه، كيف شل الله حركته عن أنبيائه: موسى وهرون، ورد كيده إلى مسابقة فاشلة بينها وبين السحرة، وهو ذو البطش والظلم الشديد. إن موقفه مع موسى وأخيه ليس موقف المختار الطاغي، لا هو موقف عكسي أرغمه الله عليه واضطره إليه، لهذا اتجه موقفه مع السحرة - لما آمنوا - موقف الجبار العنيد. وموقفه مع موسى، موقف الخوّار الرعديد، وكل هذا من حصانة الله على أنبيائه، وأهل طاعته، الداعين إليه، ودفاعه عنهم، فهذا رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ليدافع عن موسى من جهة، ويدعو قومه من جهة أخرى، كما قص الله علينا خبره في سورة (المؤمنين)وقدحفته حصانة الله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾[1].

كما وقى موسى من قبل، فإن الطاغوت فرعون كان حريصاً على قتل موسى، والفتك به من أول وهلة وكان صدره يطيش بالغيظ الغضب، ولكن الله رد كيده في نحره، وجعله أضحوكة للعارفين، ولكن الجماهير التي لا عقل لها، في المحسوس والمنقول، لم تشعر بذلة فرعون أمام موسى، ولا باضطرابه وتناقضاته، ولو كان عندها إحساس ولو كإحساس الحيوان لشعرت، وكيف لا تشعر بتناقض طاغوت، يزعم أنه ربهم الأعلى وإلههم الوحيد، ثم يعلن أنه من أتباع السحرة؟ لو كان عند الجماهير عقول صحيحة، لشعروا بواقع الأمر الظاهر، ولكن الجماهير من قديم الزمان لعبة للدجالين، طعمة للأكالين، وعبيد للطواغيت، ولذا تجد أصنام اليهود، من طواغيت الشيوعية الثوريين، في عهد (مزدك) وما قبله وما بعده، إلى يوم القيامة، أنهم كبش الفداء، دائماً يؤخذ كل شيء باسمهم، ويقتل البريء بحجة مصالحهم، وتخرب البلاد وتفقر العباد، تحت شعارهم، وليس لهم سوى المقامع والسياط: (لندع جماهير فرعون ومن بعده) ونرجع إلى موسى؛ فقد

---

(١) سورة غافر، آية ٤٥.

كرر الله سبحانه وتعالى قصته في القرآن أكثر من سبع مواقع، ليعتبر المؤمنون الدعاة إلى الله، وعلى رأسهم محمد ﷺ والصالحون من أمته، الداعون إلى الله، فلا تخيفهم أية قوة، ولا يرهبهم أي طاغوت، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1].

إن في قصة إبراهيم وموسى عِبَراً عظيمة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم بضع مرات، لتنشحن قلوب الدعاة إلى الله بالقوة المعنوية التي تهزأ بالقوى المادية، مهما تضخمت، فيسيروا في طريق الله قدماً غير هيابين ولا وجلين، واثقين بأن الحصانة الإلهية التي حفت بإبراهيم وموسى، ستحفهم، وأن الإله العظيم الذي لطف بهما، ودافع عنهما، سيلطف بكل سالك مسلكهما إليه، ويدافع عنه، وهو العلي العظيم، الرؤوف الرحيم، سيدفع عن الدعاة كيد الطغاة حسبما اقتضته حكمته، وقد تقضي حكمة الله بتسليط بعض الطواغيت على بعض المؤمنين، ليرفع من شأنهم في الدنيا، مع رفعة درجاتهم في الآخرة كما جرى لأناس في الأولين وللشهيد «سيد قطب في الآخرين». فإن عدوه اختار قتله، والإساءة إلى سمعته، ولكن الله رفع شأنه وجعل له الذكر الحسن، فانتشرت كتبه بعد قتله انتشاراً لا يمكن حصوله لو بقي حياً. ولكن حكمة الله البالغة، ورحمته الواسعة، اقتضت تسليط الطاغوت عليه ليعرفه من لا يعرفه، وليصلي عليه جماعات المسلمين مئات الملايين في مشارق الأرض ومغاربها، ويدعون له ويشفعون له، وتنكشف لهم حقيقة الطواغيت وخبث سريرتهم وإفكهم، في دعايتهم ولتشترى كتبه وتصانيفه وتنتشر في جميع الآفاق، وقد انتشرت بفضل الله حتى تكرر طبعها بشكل منقطع النظير، وترجمت إلى عدة لغات وانتفع بها خلق كثير. انكشف لهم بها حقائق لم تكن لتنكشف لولا قتله، ولا يبعد أن يكون قاتله قد ندم على قتله إن كان قد أحس بأنه أحياه من حيث يقصد إماتته، والله عليم حكيم.

---

(١) سورة هود. آية ١٢٠.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني أعطيناه ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التوراة وهو من أمهات الكتب السماوية، وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يعني وأردفناه وأتبعنا بعضهم خلف بعض، كما يقفو الرجلُ الرجلَ، إذا سار في إثره من ورائه يقال: «قفوت فلاناً» إذا صار خلف قفاه، فصار اشتقاق ﴿قَفَّيْنَا﴾ من القفاو (الرسل) جمع رسول، وهم أنبياء الله المرسلون، وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ ما يفيد أنه اتبع بعضهم بعضاً على منهاج واحد، شريعة واحدة، لأن كل من بعثه الله نبياً بعد موسى عليه السلام، إلى زمن عيسى، فإنما بعثه بالأمر لبني إسرائيل أن يقيموا التوراة بالعمل بما فيها، والدعوة إليه والعمل بما كان يعمله، فلهذا عبر الله بهذا التعبير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني آتيناه المعجزات البينات الواضحات من إحياء الموتى، وابراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الشواهد على صدق نبوته، وزدناه بتأييدنا له بروح القدس، وهو جبريل، أو الإنجيل أو الروح الذي يحيي به الموتى، ذلك أن (الروح) مشترك بين روح الوحي وبين ملك يقال له الروح، وبين جبريل والروح التي في الإنسان وغيره، والأصح أنه جبريل، لأن الإنجيل وإن كان روحاً تحيا به القلوب، لكن ليس هو المقصود من روح القدس، بل روح القدس معنى زائد على الإنجيل.

والحاصل أن اليهود يحتجون على إعراضهم عن القرآن وعدم الإيمان بمحمد ﷺ وعنادهم له، أن لديهم كفاية من الهداية والنبوات، وأنهم ليسوا بحاجة إلى دين جديد ووحي جديد، هكذا يحتجون بهذا الكلام، ويتبجحون، ولكن الله فضحهم في هذه الآية الكريمة وأوضح سوء تصرفاتهم مع أنبيائهم المنبئة عن خبث سرائرهم، وقبح طباعهم، فأبان الله سبحانه

أنه مرادف عليهم إرسال الرسل، بعد موسى عليه السلام، كيوشع، وداوود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وغيرهم، إلى دور عيسى الذي زوده بمعجزات باهرة قاهرة، تشهد على نبوته، فماذا كان منهم لقاء تلك النبوات؟ هل انصقلت قلوبهم؟ هل صفا وجدانهم؟ هل حسنت سريرتهم؟ هل تغيرت أحوالهم من سيىء إلى أحسن؟ أم من سيىء إلى أسوأ؟!.

إن الله سبحانه وتعالى يفضحهم ويبين موقفهم المشين من أولئك الأنبياء بياناً لا يقدرون على إنكاره، وهو أنه كلما جاءهم رسول من رسل الله بغير الذي تهواه أنفسهم، استكبروا عليه تجسراً وبغياً وعناداً وإصراراً على الأنانية، واتباع الأهواء استكباراً يزيد عن استكبار إمامهم إبليس، فكذبوا البعض منهم، وقتلوا البعض، فلهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1] إذن ما فائدة إرسال الرسل إذا لم يوقروا ويطاعوا وينصروا؟ ثم ما معنى تبجحاتهم باكتفائهم بهداية أنبيائهم وهم لها رافضون؟ إن محاولة إخضاع هداية النبوات للأهواء البشرية المختلفة المتجددة، لا تكون إلاّ في قلوب فاسدة، قد فسدت فطرتها، فاتجهت إلى غير الله، من عبادة الأهواء والشياطين، ذلك أن الأنبياء الذين يحملون رسالة الله يجب أن يطاعوا، وأن يخضع لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] لا أن يخضع الدعاة وما جاؤوا به من الحق، للأهواء البشرية والنزوات الأنانية فإن ما جاءت به رسل الله، يجب أن يكون هو المرجع للبشرية، وأن تتكيف به في جميع شؤونها تصوراً وقولاً وعملاً، يعني تكون جميع تصوراتها نابعة منه، وأقوالها مستندة إليه، وأفعالها مرتكزة عليه، لا أن تعكس الأمر فتكيفه

---

(١) سورة البقرة، آية ٨٧.

(٢) سورة النساء، آية ٦٤.

على حسب الأهواء المتقلبة، وحاجات النفوس المتجددة، فإنها حينئذ تخرج به عن حقيقة الهداية التي جاءت رسل الله من أجلها.

ولا يمكن للإنسانية أن تهتدي بأهوائها، أو تقليد آبائها أو زعمائها وسادتها المتقلبين، بل الإنسانية لا تهتدي إلا بوحي السماء الذي لا يعرف الميل مع الهوى، فهو الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الغضب والفقر والغنى والعز والذل والصحة والمرض، أما غيره من المصادر الإنسانية، فهي عماية وضلال، لأنها تتقلب مع الشهوة والهوى، والغضب والرضى، والأطماع والنزوات، وسائر أغراض النفس، التي تريد إخضاع الحق للهوى. والله يقول: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[1].

ولكن آفة بني إسرائيل منذ القدم، هي تحكيم الأنانيات والهوى والشهوات. وجعلها تتحكم في وحي الله ورسالته. ولهذا قص الله علينا معشر المسلمين. من أخبار بني إسرائيل، وتمردهم على وحي الله ورسله، يفضحهم من جهة. ويحذرنا من سلوك شيء من مسالكهم من جهة أخرى، لقد كشف الله باطلهم. وأوهى حججهم. وبين موقفهم السيىء من أنبيائهم.

نعم لقد كان في بعض أوائلهم خير، حيث اتبعوا الأنبياء، جاهدوا معهم. لنشر دين الله. الإسلام، وإقامة حكمه على المتمردين منه، كما جرى من أصحاب يوشع بن نون. والصادقين من قوم داود، ولكن خلف فيهم خلوف. صاروا مثل السوء وأئمة السوء إلى يوم القيامة، مما قضى الله بسلب الإمامة والقيادة منهم. وتسليمها لبني إسماعيل. والله سبحانه إذ يوبخهم في هذه الآية الكريمة. ويفضح أكاذيبهم فيما يزعمون، ليعلم أمة الرسالة الجديدة والتوحيد. أن ليس عند هؤلاء إلا المزاعم الباطلة، وأنهم قابلوا أنبياءهم أسوأ المقابلة. من التكذيب والقتل. لما بلغت قلوبهم من شديد القساوة أنها أصبحت أقسى من الحجر.

---

(١) سورة المؤمنون. آية ٧١.

وكما أن في هذه الآية تبكيت لهم وتكذيب وفضيحة، فإن فيها تحذيراً لأمة محمد ﷺ من سلوك ما يوجب قسوة القلب، وهو عدم الخشوع لذكر الله ووحيه، وعدم الانطباع والتأثر به، كما قال تعالى في الآية (١٦) من سورة الحديد: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، فإن هذه سنة اجتماعية في سيرة البشر المعهودة من قديم الزمان، ذلك أنهم بادىء الأمر يتعظون بالمواعظ ويحسُنُ تدبُّرهم للوحي، فإذا طال عليهم الأمد أو ازداد عليهم الرغد، قست قلوبهم وذهبت منها آثار المواعظ، ففسقوا عن أمر الله، وقد عمل الله على حماية هذه الأمة المحمدية من مجموع ذلك لا من بعضه، وذلك بحفظ القرآن عن التحريف، وإقامة طائفة على الحق داعية إليه، لأن تحريف الأوائل يضر جداً بقدسية الأواخر وسيرتهم، فأصلح الله سلف هذه الأمة، وعصمها من التحريف، فلم يبق من قسوة القلوب سوى التمادي في الشهوات أو التكالب على الحكم والأنانية الذي يحصل بسببه الاعتداء على ورثة الأنبياء، وهم الدعاة الصادقون، فأجرى الله تحذيره لهذه الأمة من تقليد اليهود في قتل الدعاة، سواء كان قتلاً حسياً بإزهاق الروح والدم، أو قتلاً معنوياً بإخراسهم وكبتهم، وفرض الرقابة على منابرهم، ومؤلفاتهم، أو الجناية على ضمائرهم في شرائها بثمن، أو توظيفها لتكون (نجوة) للمفرخين، فإن القتل المعنوي أفتك في المجتمع من القتل الحسي.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ملاحظة عظيمة في نظم القرآن للتفريق بين الجريمتين، جريمة التكذيب، وجريمة القتل، فقد أتى بجريمة التكذيب بصيغة الماضي ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾! وأتى بجريمة القتل بصيغة المضارع ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل (وفريقاً قتلتم) وذلك لأمرين:

(أحدهما): لاستحضار صورة هذه الجريمة الفظيعة في النفوس وتصويرها

في القلوب وتمثيلها في المسامع وتجسيمها، حتى تبقى متمثلة في الخيالات، وإن مرت عليها القرون الطويلة، لأنها جريمة لا تتلاشى سمعتها، ولا تفنى آثارها، فجدتها لا تخلق ولا تبلى، وشخب دمها لا يزول عن الأبصار، فالتعبير القرآني يجسم صورة هذه الجريمة البشعة لتبقى كنكتة في قلوب المتأخرين إلى يوم القيامة.

و (**ثانيهما**): أن تعبير الله عن هذه الجريمة بصيغة المضارع (تقتلون)، لما يعلمه في سابق علمه من استمرارهم على قتل الأنبياء إذا لم يكتفوا بالجحود، وقد عملوا فعلاً على قتل نبينا محمد ﷺ حيث وضعوا السم في الشاة[١]، ولكن الله عصمه مما يريدون، وأبقى حياته مدة استكمال وحيه، المتمم لرسالته، والمبقي لها خالدة، إلى يوم القيامة، ثم توفاه الله وهو يتذوق ألم السم حيث قال صلى الله عليه وسلم عند موته: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري**»[٢].

وهذا نص صريح في أن نبينا قتيل لليهود، لكن الله عصمه وأبقاه إلى انقطاع الوحي، فيا ويح من يزعم مؤاخاة اليهود ويقول إنهم إخوان لنا في العروبة والمواطنة، وإننا لا نعادي إلا الصهاينة. من قال هذا أو يقوله، فهو محادّ لله ورسوله، لا يبقى معه من الإسلام حبة خردل، وكذلك من يزعم مؤاخاة أعوان اليهود، من النصارى والدروز[٣] والنصيرية[٤]، فإن الجميع

(١) حديث وضع السم للنبيّ ﷺ في الشاة رواياته متعددة موجودة في الصحيحين وغيرهما وقد خرجتها وذكرتها جميعها في كتابي صحيح معجزات النبيّ ﷺ فليراجعها من شاء.

(٢) حديث صحيح الإسناد: أخرجه البيهقي في السنن والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي وصححه شيخنا الألباني في صحيح الجامع برقم/٥٦٢٩/ وفي البخاري أيضاً (٩٩/٨) من حديث عائشة تعليقاً، وقد وصله غيره، (أنظر ما كتبته حول هذا الموضوع في كتابي (صحيح معجزات الرسول).

(٣) (الدروز): فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أخذت جل عقائدها عن الاسماعيلية، نشأت في مصر ولكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار كما أنها تؤمن بسرية أفكارها فلا تنشرها على الناس ولا تعلمها حتى لأبناءها إلا إذا بلغوا سن الأربعين. انظر تمام الترجمة في الموسوعة الميسرة ص ٢٢٣.

(٤) (النصيرية): حركة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، أصحابها يعدون من غلاة=

منهم قد ثبتت معاونته لليهود، معاونات معنوية، وتشجيعية، وأدبية، فكثير من كنائس النصارى ضُبطت أوكاراً للتجسس الإسرائيلي، كما أن معظم الدروز في طليعة جيشهم، ومعروف ما قام به بعض دروز الجولان من إطلاق النار على الجنود السوريين وإظهار الفرح باحتلال (الجولان) والاستعداد لاستقبالهم. هذا أمر واقع مشهود، لا ينكره إلا المغالط المكابر. ومثل هذه الفرحة جالت بنفوس أهالي حي القصاع النصارى لأن الكفر ملة واحدة.

وقوله سبحانه وتعالى عن اعتذار بني إسرائيل الفاسد:

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة البقرة. آية ٨٨).

لما كانت الآية السابقة في بيان مواقفهم السيئة من أنبيائهم، وتكذيب مزاعمهم. من الاستغناء بهدايتهم، جاءت هذه الآية الكريمة، في بيان موقفهم من الدعوة المحمدية، وأنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

والغلف بضم اللام أو إسكانها، على قراءتين، وهو ما يحيط به غلاف يمنع من الاتصال به. فالمعنى أنها مغلفة، لا ينفذ إليها شيء مما تقول يا محمد، وقد كذبهم الله بذلك، لأن دعواهم مخالفة للحس والنقل، ذلك أن الكفر والجريمة لا يولدان مع الإنسان، وإنما هما أمور عارضة، ناشئة عن غلبة شهوة، أو نزوة هوى، أو وسوسة شيطان، أو تأثير قرين سيىء، وإلا فالله يقول في الحديث القدسي: «**إني خلقت عبادي حنفاء وأن الشياطين اجتالتهم**[١] **فأخرجتهم عن دينهم**»[٢].

= الشيعة الذين زعموا وجود جزء إلهي في علي رضي الله عنه، وألهوه به. مقصدهم هدم الإسلام ونقض عراه. وهم مع كل غاز لأرض المسلمين. وقد أطلق عليهم الاستعمار الفرنسي لسوريا اسم العلويين تمويهاً وتغطية لحقيقتهم الرافضة. انظر الموسوعة الميسرة لمزيد من الترجمة ص ٥١١.

(١) (اجتالتهم): أي استخفتهم. فجالوا في الضلالة.

(٢) رواه الإمام مسلم برقم /٢٨٦٥/ في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. وهو من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

ويقول رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[١].

فاتضح بهذا أن القلوب جميعها ليس عليها غلاف في الأصل، ولكن يطرأ عليها من رين الإصرار على المخالفات ما يقسيها ويطبع عليها حتى لا تنتفع بالخير. ولا تتأثر بالمواعظ، ولا تهزها العبر. أو توقظها الأحداث، فكأن الفسق أو الكفر طبع لهم وسجية، لما ران على قلوبهم من زيغ المخالفات الذي لم يفكروا ولا لحظة واحدة في شيء منها. والإنابة إلى الله، فقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ كقول كفار قريش: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٢].

فرد الله على اليهود مكذباً لهم بأن قلوبهم ليست غلفاً لا تفهم الحق بطبعها. فهذا خلاف فطرة الله، وإنما أبعدهم الله من رحمته، بسبب قتلهم الأنبياء. وتعنتهم على رسالات الله. فلقد حباهم الله بالأنبياء تسوسهم بعد موسى عليه السلام: كيوشع، وشمويل، وشمعون، وداوود، وسليمان، وأشعياء. وأرمياء؛ وعزيز. وحسقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا. ويحيى وغيرهم. فكذبوا ببعضهم وقتلوا البعض الآخر، موهمين عامتهم أنهم دجاجلة كذّابون، ويحتجون على تكذيبهم وقتلهم بتحريفات وتأويلات باطلة من عند أنفسهم، لأنهم لا تستقيم لهم الرفعة في الدنيا، وطلب ملذاتها والترؤس على الناس فيها، مع وجود الأنبياء، فكان بعضهم يستكبر عليهم أشد من استكبار إبليس على آدم، ولذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

---

(١) رواه البخاري (١٧٦/٣) في الجنائز. باب إذا أسلم الصبي. ومسلم برقم/٢٦٥٨/ في القدر. باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. والموطأ برقم/٥٢/ في الجنائز وأبو داود برقم/٤٧١٤/ في السنة. باب ذراري المشركين. والترمذي برقم/٢١٣٩/ في القدر، باب كل مولود يولد على الملة.

(٢) سورة فصلت. آية ٥.

(٣) سورة البقرة. آية ٨٨.

وحرف (بل) للإضراب عما قبلها. وصرف الحكم إلى ما بعدها. يعني ليست قلوبهم غلف أصيلة كما يزعمون، ولكن لسوء أفعالهم. وشناعة مقابلتهم للأنبياء. وقبح كفرهم، لعنهم الله. واللعن هو الطرد والإبعاد عن الرحمة. والمطرود عن رحمة الله لا ينتفع بهداية الأنبياء. ولا خلائفهم من المرشدين. ذلك أنهم لما كفروا بالكتاب بتركهم العمل به والجناية عليه بتحريفه وفق أهوائهم وأغراضهم، أصبحوا قد أنسوا بالكفر، ورضوا به، وانطبعوا عليه. واطمأنوا إليه. فكان ذلك سبباً في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم، فهذا هو معنى اللعن الذي حاق بهم. وجعل قلوبهم لا تصلح مستقراً للهداية.

وهذه من سنن الله الكونية فإنه العليم الحكيم، يعلم معادن الناس. والناس معادن. تبع للتراب الذي خلقوا منه. والتراب الأرضي يخرج منه الذهب الإبريز والألماس الثمين، وغيره من سائر الجواهر والأحجار الكريمة. وفيه من الخير والنفع، ما الله به عليم. وفيه ما لا يصلح إلا للقاذورات. وفيه السبخ الذي لا ينبت، ولا يمسك ماء بل في بقاع الأرض ما لا ينبت فيه إلا المر. كالحنظل، والحرمل، والجثجاث، وفيه ما ينبت الفواكه والورود. فهكذا بنو الإنسان الذي خلق الله أباهم من قبضة قبضها من جميع بقاع الأرض، ولعل اليهود غلب عليهم طبع السبخة التي لا يجف ثراها. ولا ينبت مرعاها، أو بعض المواقع التي هي أخس منها. والحقيقة أن خطرهم على العالم يزيد على خطر البراكين المحرقة. لأنهم يحرقون في جميع الناس مواهب الخير. فهم شياطين الإنس أخوان إبليس. بل هم ورب الكعبة. قد أراحوا إبليس وذريته بما وضعوا للناس من أخطبوط المبادىء والمذاهب المادية. والنعرات الجنسية، والله أجرى سنته بعدم هداية من ليس فيه قابلية للهداية. كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾(١) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾(٢).

(١) سورة مريم. آية ٧٦.
(٢) سورة مريم. آية ٧٥.

وقد جاءت لعنة الله معللة بكفرهم حيث قال: ﴿ **بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ** ﴾ يعني أن كفرهمهو السبب في لعنهم ،واللعن نتيجة لإعراضهم وتماديهم في الكفر العملي والاعتقادي. ذلك أن التوراة لم يكن لها سلطان على نفوسهم. ولم تكن هي المحركة لقلوبهم وجوراحهم، وإنما المحرك أهواؤهم وشهواتهم. ولذا قال تعالى: ﴿ **فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ لأن الايمان عندهم لا يزيد على قول باللسان، أو رسم بالخيال كإيمان أفراخ الإفرنج الذين هم جزء ممن صنعوا على أيديهم بالثقافة الماسونية.

يزعم بعض المفسرين لقوله تعالى: ﴿ **فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾، أن حرف (ما) زائدة وقد حقق كبيرهم الإمام ابن جرير أنها ليست زائدة، وهو الأليق بمقام القرآن. إذ ينزه كلام الله عن الزيادة ولكن الله أتى بهذه الكلمة لإفادة العموم تارة، ولتفخيم الشيء تارة. ويقول ابن جرير إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم، كأنه قال: إيماناً قليلاً ذلك الذي يؤمنون به.

ولابن جرير وجه آخر في تفسيره، وهو أن لا يؤمن بالنبيّ ﷺ وما جاء به إلا قليل منهم، والظاهر من سياق الآية أنها من العام المخصوص بمعنى أن الكفر لم يستغرق جميع أفرادهم، وإنما غمر الأكثرين ويجوز إيمان القلة، والله أعلم.

ثم ان انتصاب قليلا. كان بنزع الخافض، أي بقليل يؤمنون أو فصاروا قليلا ما يؤمنون.

وعلى أهل القرآن أن يحسنوا موقفهم من القرآن، وأن لا يشابهوا أهل الكتاب في موقفهم من كتابهم. وأن لا يستمروا في غفلتهم عن القرآن، وعدم اعتبارهم بحججه الدامغة، وتأثرهم بأساليبه العظيمة المؤثرة، فإن الاستمرار على ذلك جالب للعنة الله التي حلت باليهود.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟**

كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(١).

إن اليهود عليهم لعنة الله، لما يأسوا نبينا محمداً ﷺ من قبول دعوته بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، أخبرهم الله بلعنته لهم على كفرهم السابق، لعنة تحرمهم من الهداية اللاحقة وتحول بينهم وبينها، جزاء لهم على ضلالهم القديم، ثم أخذ يزيد في تعنيفهم ويجابهم بصواعق وحيه، مجابهة شديدة على ما قالوا وما فعلوا، ويهلهل شبهاتهم التي يحتجون بها، ويجردهم من كل معذرة، كي لا يبقى لهم ستر، موضحاً سبحانه وتعالى قبح كفرهم وأسبابه الخبيثة. وأنهم كفروا بالنبي الذي كانوا يرتقبونه، ويستفتحون به على مشركي العرب الكافرين الوثنيين.

ومعنى يستفتحون: يستنصرون، فالفتح في اللغة، هو الحكم والفصل، ويعبر عنه بالنصر، لأن النصر يحصل به ذلك، فلقد كانوا يرتقبون مبعث النبيّ محمد ﷺ ويستنصرون به على الذين كفروا، يقولون: سيبعث من قريب نبي ننتصر به عليكم، وهذا شيء معروف، شائع من كلامهم، لا يقدرون على إنكاره، ومع هذا لما جاءهم هذا النبي الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، مما ذكر الله أوصافه في التوراة، ويستنصرون به على أعدائهم، كفروا به بعد مجيئه، وناصبوه العداوة، فكفرهم في غاية القبح والحماقة، بل من أشد أنواع الكفر، لأنه ليس ناشئاً عن جهل أو تقليد للآباء، أو تأثراً بالبيئة، وإنما هو ناشئ عن سوء سريرة، وخبث طوية، إنه كفر يخرج عن طور العقل، ولا يجيزه الفعل الصريح أبداً، لأنهم كفروا بما جاء مصدقاً لما معهم، ولأنه معروف لديهم غاية العرفان. ولأنهم يستفتحون به قبل مجيئه على الكافرين المحاربين لهم، فلو لم يكونوا يعرفونه ولم يستفتحوا به لهان الأمر، ولو لم يكن مصدقاً لما معهم، بل معاكساً، لكان لهم مساغ طائفي أن تأخذهم العزة بالإثم، ولكن الذي حصل خلاف ذلك.

(١) سورة البقرة. الآيتان ٨٩ - ٩٠.

كل الذي حصل. يدينهم ويرغم أنوفهم، لو كانوا يقصدون الحق أو يلتفتون إليه. ولكن موقفهم موقف العناد والاستكبار، بل موقفهم موقف المضادة لله إنهم يطالبون الله أن يكون هذا النبي منهم وليس من العرب، وإنهم ناقمون من الله أن يختار لرسالته ما يريده، دون ما يريدون إن خطتهم خطيرة، وكفرهم من أشد أنواع الكفر وأقبحه، إن موقفهم شنيع، يستحق الغضب واللعنة. إنه تطاول على الله واستدراك على الله، وانتقاد لمشيئته، وطعن في حكمته، وحسد لمن اصطفاه من عباده.

عن ابن إسحق عن أشياخ من الأنصار قال: إن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة. قالوا كنا قد عاوناهم قهراً دهراً في الجاهلية. ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، وهم يقولون أن نبياً سيبعث الآن نتبعه، قد أطل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم ذات العماد والنصوص في مثل هذا المعنى كثيرة مستفيضة مشهورة، وهذه الآيات الكريمات أوضح الله فيها إغلاق قلوبهم عن الهداية بالدعوة الجديدة، كما أوضح السبب الذي من أجله كفروا بالنبي محمد ﷺ وهم كانوا من قبل يستنصرون به على المشركين، ويبشرون بقرب زمانه، ويعلنون لهم أنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه، حتى يبيدوهم. ويقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1] ويبين الله سبحانه السبب الذي من أجله كفروا واستحقوا اللعنة. فيقول: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾[2].

وكلمة (بئس) للمبالغة في الذم والرداءة، كما عكسها (نعم) للمبالغة في المدح والطيب. فالله يقول لليهود: ﴿بِئۡسَمَا﴾ أي بئس الذي ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾

(١) سورة البقرة. آية ٨٩.
(٢) سورة البقرة. آية ٩٠.

أي باعوها فإنه يستعمل: «اشرى الشيء واشتراه» بمعنى باعه وابتاعه، يعني أنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بأسوأ ثمن، لقد باعوها باللعنة والغضب من الله. بما حرصوا عليه من الكفر بمحمد ﷺ بغياً وحسداً له عليه الصلاة والسلام.. وحباً للرئاسة، واعتزازاً بالجنسية، وطمعاً في المنافع المتبادلة بين الرؤساء والمرؤوسين، وحفاظاً عليها. فهذا هو ثمن أنفسهم التي خسروها بالكفر، وفقدوها، كما يفقد البائع المبيع. فبئس الثمن لمبيع لا يقوم لو عرف أهله قيمته. ولكن الحسد والأغراض الدنيئة يعميان القلوب. ولو كان عندهم أدنى بصيرة. لحسبوا أضخم الحساب لقيمة أنفسهم التي خسروها بالكفر. وخسروا عزتها بالذلة، حيث لم ينضموا إلى الموكب المحمدي العزيز الكريم على الله ومن الله. لقد خسروها في الدنيا قبل الآخرة. وخسارة الآخرة أفظع وأشنع. لقد دخلوا بالكفر. وقد خرجوا به. وهو الذي كسبوه وبئسما كسبوا.

والذي حملهم على هذا الكفر الفظيع. الذي هو من أعظم أنواع الكفر. كما قدمناه. هو البغي الذي جرهم إليه الحسد، حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي ينتظرونها فيهم، وكرهاً وحقداً منهم أن ينزل الله فضله على من يشاء من عباده، وهذا بغي منهم وظلم، وأي بغي أقبح من بغي من يريد تحجير فضل الله، وتقييد رحمته بما يهواه هو، لا بما يريد الله؟ فلا يرضى من الله أن يجعل الوحي في آل إسماعيل. كما جعله قروناً متطاولة في آل أخيه إسحق. ولهذا عادوا من هذا البغي والحسد بغضب على غضب. كما قال تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، يعني عادوا بالغضب الذي استحقوه بكفرهم بمحمد ﷺ، على الغضب الذي استحقوه من إعناتهم لموسى. ومن تحريفهم للتوراة. ورفضهم الإيمان بها جميعاً، وكونهم يعملون منها بما يوافق أهواءهم ومصالحهم حتى حكم الله عليهم بعذاب الخزي في الحياة الدنيا. ولعذاب الآخرة أخزى. ثم توعدهم في هذه الآية بأن يعذبهم عذاباً آخر فقال: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. يعني مقرون بالإهانة والإذلال.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

رد الله اعتذار اليهود وأبطله في الآيات السابقات، حيث زعموا أن قلوبهم غلف، لا تفهم الدعوة ولا تعقل الخطاب. ففضح اعتذارهم ببيان السبب الحقيقي الذي استحقوا به اللعنة الحارمةلهم من الهداية، والغضب والعذاب المهين. على ما يحملونه من لؤم الحسد والحقد؛ الذي جعلهم يبغون التطاول على الله وتصريف مشيئته كما يريدون.

والآن في هذه الآية ذكر لهم اعتذاراً آخر متصدياً له بالرد والإبطال، ومقيماً عليهم حجة دامغة بما كسبت أيديهم، لا يمكنهم التملص منها، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام صدقوا ما أُنزل إليه بالقلب واللسان والتنفيذ العملي (قالوا) في جوابهم الملتوي واعتذارهم الباطل (نؤمن بما أنزل علينا) من التوراة، ولم يذكر الله محمداً عليه الصلاة والسلام. في سياق الإيمان بما أنزل الله، لأن الواجب هو الإيمان بالوحي على يد أي شخص كان، لأن الإيمان بالوحي المنزل، مقصود لذاته، لا لذات من أنزل عليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالله يريد قمع تحكمهم، بقصرهم الإيمان على ما أنزل عليهم بواسطة موسى عليه السلام، ذلك أن هذا التحكيم هو تحكم على الله، وقضاء عليه سبحانه، بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه، لا ينزل الوحي على من هو من غير جنسهم. والعياذ بالله.

---

(١) سورة البقرة. آية ٩١.

فهذه هي الحكمة في ذكره سبحانه الإنزال مطلقاً، وتقييد جوابهم بقيد. وهو قولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهذا الأسلوب مشعر بقوة حجة الدعوة المحمدية. ووهن ما بنى عليه خصومها اليهود شبهتهم في جوابهم. فإن قولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾. جواب منهم في غاية السقوط لأن الذي أنزل عليهم إن كانوا يعتبرونه منزلاً من الله. فليس له ميزة على ما أنزل الله من جديد على محمد ﷺ. وطبعاً يعتبرونه منزلا من الله. فتلزمهم الحجة بالإيمان بكل ما أنزل الله. دون ملاحظة من أنزل عليه. لا سيما ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فكيف يكفرون به؟! الا إنهم ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الثابت بنفسه. فإن كون ما ثبتت به نبوة محمد ﷺ مساوياً لما ثبتت به نبوة موسى عليه السلام يستلزم وجوب اتباع محمد ﷺ كما أتبع موسى، لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن، وكل موضوع، فمدلول الإيمان ولازمه حاصل في كلتا الحالتين، خصوصاً وقد جاء ما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهذا يستوجب منهم الإيمان به. لأنه مؤيد عندهم بالعقل والنقل، فعدم الإيمان به مكابرة وعنادا او تطاولاً على الله تحكم في سلطانه ومشيئته كما مضى توضيحه، فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اجترحوه من المخالفة القبيحة التي هي من أفحش الفواحش. فقد ضربهم الله في هذه الآية بضربتين قاصمتين:

(إحداهما): أنهم كفروا بالحق الذي جاء مصدقاً لما معهم، والواجب يقضي عليهم بالمبادرة إلى الإيمان به، والاعتزاز به، والتشرف بالمسارعة اليه.

و **(ثانيهما)**: فضيحة الله بالتساؤل معهم عن قتل أنبيائه، لأن هذا من أكبر الدلائل على كفرهم وعدم صدقهم في دعوى الإيمان، ولذا قال تعالى آمراً نبيه عليه الصلاة والسلام بالتساؤل معهم: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ

﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما أنزل إليكم إيماناً حقيقياً صادقاً فإن ما أنزل إليكم. يوجب عليكم محبة الأنبياء وتصديقهم. وتوقيرهم، والقيام بنصرتهم، والدفع عنهم. والجهاد معهم، وليس فيه الأمر بقتال الأنبياء. بل فيه النهي عن قتل بعضكم بعضاً. فكيف بالأنبياء؟ فلو أن عندكم شيئاً من الإيمان بما أنزل عليكم، لما قتلتم الأنبياء، وهم قد جاءوكم بما تزعمون أنكم مؤمنون به وجاءوكم بتأييده، والتصديق به فهذا التلقين من الله جل شأنه لنبيه عليه الصلاة والسلام بالتساؤل معهم عن قتلهم أنبيائهم هو لتكذيب دعواهم. وفضيحة مخازيهم.

فإن قيل: لم ابتدأ الله الخبر بلفظ المستقبل في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ثم أخبر أنه قد مضى بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾؟ قيل: قد اختلف النحاة. فقال بعضهم المعنى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ كما قال الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾[1]. أي ما تلت، كما قال الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

يريد بقوله: ولقد أمر: لقد مررت - ولم يقل فامضي عنه، وقال الطرماح:

وإني لآتيكم وأنكر ما مضى من الأمر واستيجاب ما كان في غد

يعني بذلك ما يكون في غد، وقال بعض الكوفيين إنما قيل: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ خاطبهم بالمستقبل، ومعناه الماضي، كما يعنف الرجلُ الرجلَ، على ما سلف منه، فيقول له: ويحك لِمَ تكذب؟ ولِمَ تفعل كذا. وهو يقصد الماضي بكل جلاء ووضوح، كما قال الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من أن تعزي به بُدّا

---

(١) سورة البقرة. آية ١٠٢.

فالجزاء للمستقبل. والولادة قد مضت. وعند علماء المعاني والبيان أن هذا التصرف الذي هو التعبير عن الماضي بالمستقبل. يكون فيما علم القائل استمراره. والقائل هنا: هو الله العليم الخبير مدّ في الماضي بالمستقبل. لأنه يعلم اسرارهم واستمرارهم على قتل كل نبي أو داعية لا يوافق أهواءهم، وقد حرصوا على قتل النبي محمد ﷺ حتى سموه. وعملوا على قتل أكثر خلفائه بمكرهم السيىء مستغلين الموتورين من الفرس، والسذج من طغام النـــاس. ولا زالوا يحيكون للمسلمين الـــدسائس، ويروجون الإشاعـــات الكاذبة. ويجسمون الأخطاء ويضخمونها. ويشيعون الأباطيل، ضد قادة الفتح. لينزلوا بهم التنكيل. أو يسقطوهم من الأعين، كما جرى لأعظم قادة الإسلام في عهد سليمان بن عبـــد الملك، ويعملون على إثارة الفتن، حتى بين الأسرة الواحدة. كما فعلوا بحكام الأندلس، ويقتلون كل عظيم لا يستجيب لمطالبهم. ولا يبالي بذهبهم الكثير. وفتنتهم.كما فعلوا بمحمد الفاتح. وكما قتلوا السلطان عبد الحميد. قتلاً معنوياً، بخلعه في أبشع صورة. مما أزالوا به دولة الوحدة الإسلامية. التي لا تزال ترويجاتهم ضدها تدرس حتى الآن. لتسميم الأفكار. بل يتحمس لتدريسها من لا يفرق بين الدولة الماسونية التي أقامها اليهود، وبين دولة الوحدة السابقة. والدولة التي أقامها اليهود من وراء الكواليس. هي التي أساءت للعرب وغيرهم، لأجل بثّ النعرات التي تريدها اليهود.

وبالجملة فكل ما جرى من بني إسرائيل من فظائع الجرائم المتكررة، والمخطط لوقوعها. ليست من باب المصادفة، وإنما صدورها كان عن أخلاق سيئة راسخة فيهم. ابتدأ بها أوائلهم، وتبعهم عليها خلائفهم، بكل عزم وتصميم. ولم يحمل الله لأواخر جرائم الأوائل إلا لإقرارهم بها، ومباركتهم لها. وعزمهم السعي على منوالها، لأن الجميع منهم لا يتناهون عن منكر فعلوه. وقد تقدم أن قتل الداعية إلى الله على ضوء وحيه شبيه بقتل أنبيائه. وأن القتل المعنوي قد يكون أقوى من القتل الحسي، وبالله المستعان.

عبادة العجل إصرار على الكفر

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(١).

هذه الآية من جملة الآيات الفاضحة لليهود، والمبطلة لدعاويهم الطويلة العريضة، والمكذبة لهم في زعمهم الإيمان، وقصرهم له على ما أنزل إليهم، واحتكارهم رسالات الله على شعبهم، بأن الله يقول لهم: يا معشر يهود الذين رفضتم الإيمان بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، متبجحين بأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فقط، وتكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معكم، إنكم كاذبون في زعمكم، وكافرون بما أنزل إليكم قبل كفركم بمحمد ﷺ فاذكروا إذ ﴿جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات القاهرة، والمعجزات الباهرة، جاءكم بما لم يأت به نبي في العالمين. جاءكم بمعجزات تبهر العقول، وتخضع الرقاب، من اليد والعصا، وفلق البحر، وإخراج عيون الماء من الحجر الصغير، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، كما جاء بسلطان مبين، شل حركة فرعون وطاغوتيته المتسلطة، وجعله يشحذ السحرة، معلناً اتباعهم إن كانوا هم الغالبين، كما جاء بآيات زاجرات من الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، أرهبت آل فرعون، ورفعت من شأن بني إسرائيل، ثم بعد ذلك حصل إنجاؤهم من آل فرعون وإغراق هؤلاء، وأنتم يا بني إسرائيل

(١) سورة البقرة، آية ٩٢.

تنظرون إليهم...

بعد هذه الآيات الباهرات، وهذه النعم العظيمة، يأتيكم موسى بالبينات. فما كان موقفكم منها؟ كان موقفكم هو أن ﴿ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ يا عجباً من أمة هذه أفعالها. وحصيلة عقولها، وغاية تربيتها، وفساد ضمائرها، كيف لا يستحون من الدعاوى الباطلة؟ إنهم إن يكذبوا على محمد ﷺ فهل يعتبرونه كرجل عادي لا يخبره الله بما يفضحهم، ويهتك سرائرهم؟ إنهم لا يكذبون على رجل عادي، تنطلي عليه أوهامهم وأباطيلهم، بل كذبوا والحمد لله على أشرف رسول مؤيد من ربه، بالوحي الذي يفضحهم. ويعلن زيفهم، ولهذا تعقبهم سبحانه بكشف حقيقتهم، لينصر نبيه عليه الصلاة والسلام بالحجج التي تدينهم، من أفعالهم وأقوالهم.

وقد جاء ذكر عبادتهم العجل قبل هذه الآية، وسيأتي بعدها ذكر له، ولكل محل منها فائدة. فذكر العجل قبل هذه الآية، جاء في سياق تعداد النعم عليهم. تلك النعم العظيمة التي لم يكن لها من الشكر عندهم إلا اتخاذ عجل يعبدوه من دون الله المنعم المتفضل، أما العجل هنا، فهو للتدليل على أن جميع الآيات البينات، المؤيدة لنبوة موسى، والشاهدة على وحدانية الله وعظيم قدرته، وقوة قهره وسلطانه، لم تزدهم - والعياذ بالله- إلا تعميقاً في الشرك. وانهماكاً في الوثنية، ووجه الارتباط بين هذه الآية والتي قبلها، هو المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه الصلاة والسلام وبين معاملتهم لمحمد ﷺ ليكشف الله حقيقتهم، ويهلهل شبهاتهم في دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم، والاكتفاء به دون ما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وأنهم عاملوا موسى أفظع مما عاملوا محمد ﷺ. وأنهم لم يؤمنوا بما أنزل إليهم من قبل، وذلك لأن من آمن بالبعض. وكفر بالبعض. صار كافراً بالجميع. كما أن من آمن ببعض رسل الله. وكفر ببعضهم. كان كافراً بجميع الأنبياء والمرسلين. فلا يستقيم لليهود دعوى الإيمان بموسى حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ. وما أنزل إليه لأن كلاً منهما جاء مصدقاً للآخر.

وما نزل على موسى ذَكَر مبعث محمد ﷺ وصفاته الكاملة. والأمر بالإيمان به وفيما أنزل على محمد ﷺ تكرار ذكر موسى. وما أيده الله به من الآيات. ووجوب الإيمان به وبجميع إخوته من الأنبياء والمرسلين. كما لا يستقيم الإيمان بعيسى. ممن يزعم النصرانية أو المسيحية. حتى يؤمن بجميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين عموماً. وبمحمد ﷺ خصوصاً. لأن عيسى عليه السلام جاء مبشراً به. فكل من لم يؤمن به من زاعمي المسيحية. فهو كافر بعيسى. ولا يقبل منه دعوى الإيمان أبداً.

وقد قدمنا الكلام في أن تحميل الخلف ما جرى من أسلافهم. إنما هو لارتباطهم بهم. وتقليدهم لهم. وتكافلهم معهم. واشتراكهم في تلك الأخلاق والسجايا التي عابها القرآن. وأنهم كالشخص الواحد في المسؤولية. وأن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات. إنما هو بسبب الأخلاق الغالبة عليها. والأعمال المنبعثة منها. وأن ما جرى من بني إسرائيل من صنوف المنكرات. وضروب التمرد. ليس صادراً عن مصادفة. وإنما هو عن خبث سريرة. وفسوق عميق. وأن مشاركة بعضهم بعضاً في الإثم. سببه الإقرار من جهة. وعدم الإنكار من جهة أخرى. لأن من أنكر المنكر. فقد سلم. ولكن البلية فيمن رضي وتابع. كما قاله ﷺ. ولو أنكر بعضهم ما جرى من البعض الآخر لما أشركهم الله جميعاً في الجريمة. فليتنبه المسلمون لإنكار المنكر من أي فئة أو موطن. حتى لا يعمهم العذاب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١).

بعدما ذكرهم الله بظلمهم الشنيع الفظيع باتخاذهم العجل إلهاً من دون الله كإنكار لهم في زعمهم الإيمان بما أنزل إليهم. أعاد تذكيرهم بأخذ الميثاق

(١) سورة البقرة. آية ٩٣.

عليهم، ورفع الطور فوقهم، وقد قال فيما مضى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾[1] يعني احفظوه، وقال هنا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ يعني: أفهموا او أطيعوا لأن من لم يحقق الطاعة لم يحقق الاستماع، وعبارة الأولى والثانية، تلتقيان في المعنى الذي هو للحث على الفهم والعمل، وحفظ حدود ما أنزل إليهم من ربهم بالتطبيق العملي، وقد التفت الله في هذه الآية عن خطاب الحاضرين، إلى الحكاية عن أسلافهم الأولين ،حيث أخبر عنهم أنهم: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ يعني أنهم قبلوا الميثاق وفهموه، ولكنهم لم يعملوا به، بل خالفوه بالتأويل تارة وبالتعنت والهجران تارة. والتأويل للنصوص القاطعة يعتبر تحريفاً وتزييفاً.

ثم إنهم هل قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ بلسان الحال أو بلسان المقال؟ قال بعض المفسرين إن هذا خبر عن لسان حالهم بإصرارهم على المخالفة وعدم انفتاح قلوبهم للأوامر، فموقفهم من التمادي في الإعراض تعلن عن حالهم أنهم قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ وبعض المفسرين حمل النص على ظاهره، إذ لا يجوز العدول عن الظاهر إلا بدليل، فقالوا إن بني إسرائيل نطقوا بهذه الكلمة البشعة بأفواههم فقالوا: سمعنا قولك ﴿خُذُواْ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ وعصينا أمرك فلا نأخذ ولا نسمع سماع الطاعة، قال ابن عباس: كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا، وإذ نظروا إلى الكتاب، قالوا سمعنا وعصينا - وفي هذا دليل على قوة لجاجتهم وبشاعتها وأن أعظم المخفيات لا تؤثر في قلوبهم القاسية، لأن رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة من أعظم المخيفات، ومع هذا فقد أصروا على كفرهم وعنادهم حتى صرحوا بقولهم سمعنا وعصينا، فكيف هذا التخويف والإرهاب لا يجرهم إلى الانقياد؟ إن قلوبهم مريضة وضمائرهم فاسدة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ الإشراب: هو مخالطة المائع للجامد، وتوسعوا فيه حتى صار للونين يقال بياض

(١) سورة البقرة، آية ٦٣.

مشرب بحمرة، وإشراب الشيء بالشيء مخالطته إياه، وامتزاجه به، أو هو من الشرب، كأن الشيء المحبوب شراب مستساغ يسري في قلب المحب ويمازجه، قال الشاعر:

إذا ما القلب (أشرب) حب شيء فلا تأمل له عنه انصرافا

وهذه الاستعارة من فرائد الاستعارات التي يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن وفي هذه الآية حذف مضاف يعني: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ﴾ حب ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب، يفيد المبالغة في إثباته، والمعنى داخلهم حب العجل ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يداخل الصبغ الثوب، ومن عادة العرب أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب، لأنه أبلغ مستساغ في البدن.

وذهب بعض الجامدين على الظواهر إلى أن المراد به الشرب حقيقة، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ والشراب الحقيقي لايكون في القلب، وأيضاً فإن الإشراب غير الشرب، فالإشراب يعبر عنه بالمخالطة والامتزاج، في العرف اللغوي الذي لا يقبل الجدل فما أبعدهم عن الصواب.

وقد عبر الله عن إشراب قلوبهم حب العجل بكفرهم ليصور لنا أقبح أمثلة عصيانهم، بعبارة مدهشة في بلاغتها.

وقوله سبحانه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الباء هنا للسببية،أي سبب هذا الحب الشديد بعبادة العجل، هو ما كانوا عليه من الوثنية السابقة في مصر، لأن الكفر قد رسخ في قلوبهم على طول الزمن، وورثوه كابراً عن كابر، بحيث لم تنفع فيهم تربية النبوة في وقت قصير.

وهذه الآية فيها تذكيرلبني إسرائيل،تذكير آخر بأسلوب آخر،بما أخذ الله عليهم عهده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً من الأشياء أبداً، وأن يعملوا بشريعته، ويتقبلوا وصاياه، ويأخذوها بقوة، وكان أخذ هذا العهد عليهم في موقف رهيب مدهش مخشع، يعينهم على أخذه بالجد والعزيمة لأن الجبل كان مرفوعاً فوقهم بصفة خارقة للعادة غير معهودة، بحيث يظنون أنه واقع

بهم، ومع هذا لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق، وتركوا العمل به، وعبدوا عجلاً صاغوه بأيديهم من حليهم، بأيديهم عن حب متعمق في قلوبهم، قد خالط نفوسهم وغلب على عقولهم، وأحاسيسهم، لما فيها من الخواء الروحي والعياذ بالله، وقد ذكر الله في غير هذه الآية، وذلك في الآية (٦٣) قبلها أنهم تولوا عن الأخذ بالميثاق بعد الأمر بالتزامه وحفظه رجاء التقوى.

والآية التي نحن في تفسيرها، مع ما فيها من المخالفة للآية (٦٣) في الأسلوب، فإنها متحدة معها في المعنى، إذ هي لإقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ محتجين أنهم يؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله بالإيمان بغيرها، فجاء الوحي بهذه الآية تكذيباً لهم، مخبراً أنهم قد تمردوا على موسى من قبل، وأنه لم تجد معهم المواقف الرهيبة، كرفع الجبل فوق رؤوسهم، لذا ختم الله هذه الآية بالأمر لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام أن يجيبهم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

يعني إن صح ما تزعمونه من الإيمان، والإيمان الحقيقي يستلزم العمل بما له من السلطة على النفوس فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان من عبادة العجل، ونقض ميثاق الله، وقتل الأنبياء، هذا في أوائلكم فما عملتموه من الكفر ببعض الكتاب الذي يعتبر كفراً بجميعه، ومن إعراضهم عما أنزل على محمد ﷺ فبئسما يأمركم به إيمانكم حسبما تزعموه، وإسناد الأمر إلى الإيمان وإضافته إلى ضميرهم للتهكم، كما في قوله تعالى: ﴿أصلاتك تأمرك﴾ والمخصوص بالذم محذوف أكثره في هذه الآية، لم يذكر منه إلا قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ولكن ذكر فيما مضى، وقد أشرنا إليه في تفسيرها بالذات من قتلهم الأنبياء وغيره.

وقوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. قدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، وإبطال لتلك الدعوى الكاذبة، يعني إن كنتم مؤمنين، فإن إيمانكم لم

---

(١) سورة البقرة، آية ٩٣.

يرخص لكم في القبائح التي فعلتم، فإن كنتم مؤمنين، فقد أمركم إيمانكم بالباطل، فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان، لكنكم في الحقيقة غير مؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بالباطل، وهذه حجة عليهم بطبيعة الإيمان وأثره في النفوس، إذ أي إيمان يبقى معهم بعد قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، سواء قالوه بأفواههم أو بسوء فعالهم، فالمبدأ الكلي في دين الله أنه لا قيمة للأقوال ما لم تصدقها الأعمال، لأن الدعاوى لا تتعذر على أحد، لكن المحك الذي يظهر به صدق الدعاوى والأقوال، هو صلاح الأعمال ومطابقتها لحكم الله ومرضاته.

هُمْ أحرصُ الناسِ على الحياة

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

هذا دحض من الله ورد قاطع لدعاويهم الطويلة العريضة، وأمانيهم المفتراة، فإنهم يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أحباب الله، وأنهم الفائزون في الدار الآخرة وحدهم، ليس لسواهم فيها نصيب، والله سبحانه لا يعبأ بهذه الدعاوى والمفتريات، لكن لما كان هدفهم من ترويج هذه الدعاوى والأباطيل زعزعة ثقة المسلمين بدينهم وبوعود ربهم، تصدى الله سبحانه لدحضهم وكشف مخازيهم وأباطيلهم بهذا التحدي القاطع الدامغ، آمراً نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم العظيم الذي لا مثيل له، والذي يصفه لكم وحدكم ولا يشرككم فيه أحد ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في دعواكم لأن التمتع بنعيم الآخرة ساعة واحدة أفضل من التمتع بنعيم الدنيا آلاف السنين ولأن نعيم الدنيا مشوب بالمصائب والأحزان والأكدار، وأنواع الشقاء والنصب بخلاف دار النعيم في الآخرة فإن أهلها ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة. آية ٩٤.

(٢) سورة الحجر. آية ٤٨.

فإن المؤمل لنعيم الآخرة لا يفضل عليه شقاء الدنيا وأحزانها، إذ لا يفضل حياة الدنيا على نعيم الآخرة إلا من ليس مؤمناً به أو لا يرجوه، بل يخشى من جحيم الآخرة، لما يعرف من مساوئه وقبيح أفعاله التي تجعله مستوحشاً من ربه، كما قال الشاعر:

أسأت إلي فاستوحشت مني ولو أحسنت أنَّسك الجميل

ولقد كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يسارعون إلى الجهاد تعشقاً للموت، وحرصاً عليه، وشراء للجنة رغبة في نعيمها، فلقد ألقى عمرو بن الحمام يوم بدر تمرات في يده يأكل منها دفعاً للجوع قائلاً: (لئن بقيت إلى أن آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة)[1].

وأمثال هذا كثير كالشهيد عبد الله بن رواحة لما أتاه عمه بعرق من لحم. وقال له: أقم صلبك فقد لبثت أياماً في المعركة لم تأكل، فلما نهشها سمع الحطمة في جانب الجيش، فقال لنفسه: أنأكل اللحمة، وأنت تسمع الحطمة؟ فرمى بها وشد حملته على الروم حتى قتل وهو يرتجز:

يا حبذا الجنة واقترابها طيّبة وبارد شرابها

وأمثال هؤلاء كثير في تاريخ المسلمين قد ملأ الطروس[2]، وذلك لصدقهم في رجاء الجنة، وثقتهم القوية بوعد ربهم، الذي أحسنوا معه المعاملة. أما اليهود فعلى النقيض من ذلك، يتبجحون بالدعاوى الكاذبة التي هي افتراء على الله وهم أحرص الناس على الحياة كما سنفصله.

نعم إن اليهود على النقيض مما يزعمون وأنهم يعرفون أنهم كاذبون في زعم اختصاصهم بنعيم الدار الآخرة، وكونها خالصة لهم، من دون الناس، ولهذا تحداهم الله بهذا التحدي القاطع الدامغ، قائلاً: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم برقم /١٩٠١/ في الامارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.

(٢) (الطروس) طرس: الكتاب - طرساً: كتبه.

﴿كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ لأن الصادق لايكتفي بمجرد تمني الموت، بل يحرص عليه، ويقذف بنفسه في المعمعة، ويكون في طليعة المجاهدين، ويضرع إلى الله بطلب الشهادة صادقاً، ويسأله أن يلحقه بالصالحين.

وهذا التحدي الإلهي القاطع، يقمع رؤوس اليهود، ويخرس ألسنتهم، ويجعل المسلم يشهر عليهم السلاح الداحض لأنهم يقصدون بتلك الدعاوى زعزعة إيمان المسلمين وتغفيلهم. فالله العليم الحكيم، واسع العطاء، أعطى المسلمين هذا السلاح يشهرونه أمام دعاويهم، متحدين لهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، وبهذا التحدي يظهر زيفهم، لأن الصادق يتمنى، بل يحرص عليه غاية الحرص، إذا كان صادقاً في دعواه من اختصاصه برضوان الله من دون الناس، ولكن لما لم يحصل ذلك، بل حصل نقيضه، صاروا كاذبين كذباً مفضوحاً مكشوفاً لا ينطلي على أحد، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١).

يعني أنه لن يقع منهم هذا التمني أبداً بأي حال، فإنهم لن يقولوا: (يا ليتنا نموت) بل ولا يحركون شفاههم بكلمة تعطي هذا المعنى، لأنهم يعرفون ما اجترحوا من الكفر والسيئات ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من تحريف كلام الله بعدما عقلوه وفهموه، ومن كفرهم ببعضه، وتصميمهم على قتل كل نبي يأتيهم بما لا تهواه أنفسهم، فهم لا ينطقون بأي كلمة تدل على تمني الموت، حتى ولو كذباً، مع عدم اكتراثهم بالكذب، ولكن يخافون قبول الدعوة من الله وهم يوقنون بسوء مصيرهم.

وقد أسند الله العمل إلى الأيدي في هذه الآية وفي غيرها، لأن أكثر الأعمال تزاول بالأيدي، ولذا جرى العرف اللغوي على جعل اليد كناية

---

(١) سورة البقرة، آية ٩٥.

عن الشخص. فهذه الآية أوضحت لنا مراد الله من فتح باب التحدي لهم بتمني الموت. إنه للتعجيز الذي سببه عرفانهم بسوء فعالهم، وشدة وحشتهم من الله، فالآية تدل على أن الذي أعجزهم عن النطق بالتمني، ليس مجرد النطق، وإنما هو خوفهم مما يستقبلهم من العذاب بما عملته أيديهم، فإن مجرد النطق لا يعجز أحداً، بل كما تفوهوا بتلك الدعاوى يتفوهون بتمني الموت تمنياً كاذباً، لولا ما يعرفونه من قبيح أعمالهم، وشنيع كفرهم، فإنهم لن يقبلوا هذه المباهلة أبداً، خشية أن يستجيب الله دعاءهم فيها، فيخسروا الدنيا التي هي غاية مطلبهم، ويخسروا الآخرة التي ليس لهم فيها نصيب، بما قدمت أيديهم، فيا له من سلاح أعطاه الله لعباده المسلمين المؤمنين، يقمعون به دعاوى المبطلين الذين يتمنون على الله، ولذا ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليوضح لنا سوء طريقتهم وأنهم ظالمون في إصدار الحكم لأنفسهم على الله، بأن الدار الآخرة لهم وحدهم خالصة من دون الناس، أنهم ظالمون ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ علماً كاملاً محيطاً لا يخفى عليه شيء مما ينطقونه أو يخفونه في أنفسهم، فإنه سبحانه يعلم خطرات القلوب ونقراتها.

وفي ختام هذه الآية بأن الله عليم بالظالمين، تخويف وتهديد لهم، ولكل من سلك مسالكهم في التمني على الله وإصدار الحكم لأحد أو فئة أو أمة بجنة أو نار، إلا ما ورد النص به على الإطلاق أو التقييد، ككون الجنة للمتقين، والنار للكافرين على الإطلاق، أو ما ورد النص بأنه من أهل الجنة، أو أهل النار، وما عدا ذلك فلا يجوز إصدار حكم لأحد، أو على أحد، بلا برهان من الله، فإن مثل هذا من عمل اليهود الظالمين.

ثم أخبر الله عباده المؤمنين عن الطبيعة الأصلية المتأصلة في اليهود والمشركين في كونهم أحرص الناس على الحياة، فكيف يباهون المسلمين على الموت وهذه طبيعتهم، فقال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن طبيعتهم المتأصلة فيهم منذ القدم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك بعد ما أرشدنا إلى مباهلتهم لنكولهم وإخراسهم، وعدم السماح لهم بإطلاق الكلم على عواهنه، يخبرنا عن طبيعتهم المشابهة لطبيعة الوثنيين، إنهم أحرص الناس على حياة، وذلك لعدم تقديمهم ما يرجون ثوابه، ولكثرة مساوئهم التي لا تحصى، فإنهم مهما كابدوا في حياتهم من أنواع العقوبات لا يزهدون بها، ولا يسأمون منها، لعدم رجائهم رب العرش العظيم من ورائها، لأنهم قد خربوا آخرتهم بدنياهم، فهم يرتضون عيشة الذل والمهانة، والإرهاق والإرهاب، ويألفونها ويحبونها، دون أن يتطلعوا إلى ما سواها، أو يعملوا على عمارة آخرتهم التي هم واردون عليها. ولا بد لهم منها، وهم راغمون.

هكـــذا ديـــدن اليهود، وهكـــذا رغبتهم في الحيـــاة، وحرصهم عليها، وصبرهم على ما يلقون فيها، وإن كانوا لا يرفعون رؤوسهم حتى تختفي الهراوات عنها. فهم لا يبالون بما يلاقونه في سبيل الإبقاء على تلك الحياة الرخيصة. فقد شابهوا الوثنيين المشركين، وشاركوهم في الحرص على الحياة، أي حياة كانت ولكن بين فارق، لأن المشركين الوثنيين لا يؤمنون بما وراء هذه الحياة من الدار الآخرة فيحق لهم الحرص عليها، وقصر النظر إليها، وأما اليهود فهم أهل الكتاب يؤمنون بالدار الآخرة، ويستنصرون على جميع الناس فيها، زاعمين أنها خالصة لهم من دون الناس، وأنهم أحباب الله وابناؤه وشعبه المختار، فكيف يشابهون الوثنيين في الحرص الشديد على الحياة الدنيا، مع ما يدعونه من اختصاصهم بالفوز في الدار الآخرة؟ حتى صاروا كالمشركين الذين ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بل كانت تحية الوثنيين ومخاطبة بعضهم بعضاً في العطاس (عشر

---

(١) سورة البقرة، آية ٩٦.

عشرة آلاف سنة) من شدة حرصهم على الحياة، دون التفات إلى ما وراؤها. وما هذا إلا من بعض عقوبات الله القدرية عليهم، فإن الإيمان بالآخرة نعمة عظيمة. بفيضها الله على قلوب المؤمنين، الذين يرجون لقاءه، فتسكن نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، ويقل جشعهم وهلعهم، ويسلمون من شرور الحيرة والقلق. وتنتعش أرواحهم بالآمال الصحيحة، وانبعاث الفرحات بين الحين والحين. مما يندفع به عنهم شرور الغم والهم والحزن. لأنهم موصولون بالله بخلاف الكفرة الوثنيين، فإن عدم إيمانهم بالآخرة هو من أفظع عقوبات الله لهم لتضاعف أحزانهم وهمومهم وغمومهم بالمصائب والأحداث. وتزايد وقعها عليهم، مما يجعل بعضهم ينتحر من شدة الجزع والقلق، ثم هل حرصهم على الحياة، لو طالت أعمارهم، يجديهم نفعاً؟ لا كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي ما هو بمبعده من العذاب ولا منجيه، بل على العكس يكون زيادة عمره زيادة في سيئاته، ومضاعفة لعقوباته في الدنيا والآخرة، والتزحزح في اللغة الابتعاد كما قال الشاعر:

فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجة إليك وما بنا لفقرك رافع

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا تخفي عليه خافية من أمرهم ولو عرفوه تماماً لعلموا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته، وأصل (بصير) مبصر. ولكن صرف إلى (فعيل) كما صرف مسمع إلى سميع، ومبدع إلى بديع. فالمعنى أنه ذو إبصار بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم. بل هو محيط بجميعها، وحافظ لها وذاكر، حتى يذيقهم جزاءهم عليها، كيف: وهو يبصر النملة الشهباء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويبصر جناح البعوض في ظلمة الليل البهيم. ويبصر نياط عروقها في جسمها. بل يبصر مخها في ذلك الجسم الحقير النحيل، فلو أن المسلمين عاملوا الله بمقتضى هذا الاسم، لاستحوا من إبصاره لهم، واطلاعه عليهم، في فعل ما لا يرتضيه، أو ترك ما يوجبه، فحسنت أحوالهم، ونالوا درجات المحسنين.

ووجه ذكره تعالى للمشركين بعد ذكر الناس في قوله أحرص الناس على الحياة، أنهم داخلون فيهم للدلالة على مزيد حرص المشركين على الحياة، ولكن اليهود أحرص منهم، لأنهم يعلمون ما يحل بهم من العذاب في الآخرة بخلاف المشركين المنكرين لها، وقد أخرج البخاري وغيره، من حديث ابن عباس مرفوعاً: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا عن آخرهم، ولرأوا مقاعدهم من النار»[1].

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢٤٨/١)، والقرطبي في التفسير (٣٣/٢) وابن كثير (٤٣/٢). والدر المنثور (٨٩/١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٤/٦)، والحديث كما ذكر المؤلف رحمه الله ليس في البخاري، وإنما بداية الحديث دون هذه الزيادة التي يستشهد بها المؤلف، انظر فتح الباري وما ذكره الحافظ (٧٢٤/٨) عند تفسير سورة إقرأ. وبكل الأحوال فسند الحديث صحيح.

عداوتهم لجبريل وتبعيتهم للشيطان

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

مدلول هذه الآية متصل بما قبلها، من مدلولات الآيات السابقة، لأن فيها ذكر شبهات اليهود وتعللاتهم عن الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ زعموا تارة أنهم مؤمنون بكتاب عندهم لا حاجة بهم إلى سواه، فاحتج الله عليهم بما ينقض دعواهم، ويبين أكاذيبهم، وزعموا أنهم ناجون في الدار الآخرة، مختصون بسعادتها من دون الناس، فأبطل الله زعمهم، وأرشد نبيه عليه الصلاة والسلام إلى مباهلتهم على الموت، لأن المعتقد بأنه السعيد الوحيد في الآخرة لا يفضل الدنيا عليها، بل يطلب الموت ليرتاح من شقاء الدنيا، وينعم بسعادة الآخرة، فخسئوا وانقطعوا، وأخبر الله عنهم، لن يتمنوا الموت أبداً لما يعلمون في الحقيقة من سوء مصيرهم على خبث أعمالهم، ثم جاءوا بتعلل آخر أغرب من سابقه، وهو أن جبريل عليه السلام الذي ينزل على محمد ﷺ بالوحي هو عدوهم من الملائكة، فلا نؤمن بوحي يجيء به، ولو كان الذي يجيء به غيره كميكائيل لآمنا.

---

(١) سورة البقرة، آية ٩٧.

وقد أخرج الإمام أحمد وعبيد بن حميد والإمام ابن جرير، وابن أبي حاتم. والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي، عن ابن عباس، قال: حضرت عصابة من اليهود عند النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال صلى الله عليه وسلم: « **سلوني عما شئتم**، فسألوه وأجابهم. ثم قالوا: حدثنا عن وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك. فقال: **ولي جبريل ولم يبعث الله نبياً إلا وهو وليه**، قالوا: فعندها نفارقك. لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك »، قال فما يمنعكم أن تصدقوه، قالوا: هذا عدونا، فعند ذلك أنزل الله هذه الآية[1].

وجاء أخبار في أسباب النزول، منها أن عبيد الله بن صوريا من علماء اليهود سأل النبيّ ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي، فقال هو جبريل: فزعم أنه عدو اليهود، وذكر من عداوته أنه أنذرهم بخراب بيت المقدس فكان ذلك.

ومنها أن عمر بن الخطاب دخل مدارسهم فذكر جبريل، فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا. وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلم، إلى آخر مهاتراتهم الدالة على لؤمهم وقبيح أفعالهم. وسوء منطقهم. وأنهم فقدوا العقل الفطري الروحي، الذي يبصرون به الحقائق. وانطمست بصيرتهم بالعقل المادي المضطرب، وإلا فكيف يعادون ملكاً مأموراً من الله لا يعمل شيئاً من تلقاء نفسه، فإن أمره الله بإنزال رحمة، كالوحي المبارك وغيره نزل به على من شاء الله من عباده. وإن أمره بإهلاك قرى أو مدن، أهلكها كما يريد الله لا كما يريد هو. إذن فالمعادي له معادٍ لمن أرسله، ولما نزل به من الرحمة وهو قد شارك في إهلاك فرعون بإذن ربه، وهو الذي أنزل القرآن على قلب سيدنا

---

(١) مختصر من حديث طويل رواه الإمام أحمد في المسند (١/٢٧٨)، وابن جرير الطبري في التفسير (١/٣٤٢)، والطبراني (٥/٥٥)، وابن كثير في التفسير (٢/١٨٦) وسند الحديث حسن كما عند أحمد.

ونبينا محمد ﷺ بإذن الله عالم الخفيات والجليات، وهذا القرن الذي نزل به جبريل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة. موافقاً لها. وللكتب التي قبلها في أصول التوحيد، ومطابقاً لما في التوراة بشأن موسى، ومن البشارات بمحمد ﷺ فيه ما يعلي شأنكم، ويحقق أمانيكم في الآخرة إذا عملتم به عمل المؤمن الصادق فمن واجبكم تصديقه لذاته، مع ضرب الذكر صفحاً عمن نزل به، فعداوة اليهود لجبريل. لا يصح أن تصدهم عن الإيمان بهذا الوحي.

(**أولاً**): لكونه لم ينزل به إلا بإذن الله. ليس افتياتاً عليه.

و (**ثانياً**): لكونه مصدقاً للتوراة، فمن واجبكم الفرح والإيمان بما يصدقها.

و (**ثالثاً**): ان الذي نزل به جبريل ﴿هُدًى﴾ أي فيه هداية عظيمة من البدع والخرافات التي طرأت على الأديان بالتحريف والتأويلات التي هي من تلبيس شياطين الجن والإنس، حتى ألقت أهلها في الذلة والهوان، فالعاقل عقلاً فطرياً لا يرفض الهداية التي تنقذه من الضلال، وتشمخ برأسه نحو السماء. لكون الواسطة فيها عدواً له في زعمه الكاذب، فإنا لو فرضنا صدقهم في عداوته، لكان رفضهم للحق والهدى الذي جاء به سفاهة وحماقة، لا يصدران إلا من الجاهل الذي لا يعرف الحق لذاته، وإنما يعرفه بمن كان سبباً في حصوله.

و (**رابعاً**): أنه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كان قد أنذركم بخراب بيت المقدس، فإنما أنذر المفسدين الذين هم السبب في خراب الدار، والآن أتى بالبشرى للمؤمنين، فكيف تتركون هذه البشرى إن كنتم من أهل الإيمان؟ فما بالكم لا تحققون الإيمان حتى تظفروا بهذه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ ثم إن هذه العداوة المزعومة، عداوة وهمية، لا صحة لها ولا أثر. ولا يدعيها من له أدنى شيء من عقل، وتعليلاتهم لها تعليلات واهية. لا يجوز النطق بها، فضلاً عن اعتقادها، لأنه كما قدمنا لا يعمل

عملاً من تلقاء نفسه. كما قال الله حكاية عنه: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ مسألتان:

(أحدهما): قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ يعني القرآن، وهو لم يسبق له ذكر، فكيف جرى هذا الإضمار؟ فالجواب: إن قرينة الحال هي التي عينته، وذلك يدل على فخامة شأنه، وعلو مجده، فكأنه لشهرته استغنى عن ذكره..

و **(ثانيهما)** قوله: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ولم يقل (على قلبي) لأن المأمور في إجابتهم هو محمد ﷺ، فمقتضى الأمر أن يقول (نزله على قلبي) فما هذا الالتفات عن التكلم إلى الخطاب. أجابوا: ان هذا جاء حكاية عن كلام الله كما تكلم به كأنه قيل - قل ما تكلمت به من قول: والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

رد قامع لما زعمته اليهود من عداوة جبريل، وبيان لحقيقة حالهم، وذلك بعدما أقام الحجج في الآية السابقة على حماقتهم في دعواهم لعداوة جبريل، وأن تلك العداوة لا تمنع من قبول الهداية التي كان فيها واسطة بين الله ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز لهم ولا يصح منهم أبداً أن يمتنعوا من الإيمان بالقرآن الذي أنزله الله بتلك الصفات المفصلة في الآية السابقة، وهنا بيَّن حقيقة حالهم، وهي أنهم أعداء الله، ولجميع ملائكة الله ورسله. فليست عداوتهم محصورة بجبريل كما يزعمون. وإنما هم أعداء لله الذي أرسل جبريل. بإنزال وحيه إلى الأنبياء، فجبريل سفير، لا يعاديه إلا الذي يعادي من أرسله، فعداوتهم لجبريل ناشئة من عداوتهم لله، بجنابه الكريم. وتمردهم على وحيه ورسالاته، ومحاولتهم تبديل كلماته، كما مضى تفصيل ذلك.

---

(١) سورة مريم، آية ٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية ٩٨.

فالله أرشد محمداً وأمة محمد لبيان حقيقة حالهم، وأنهم أعداء لله قبل كل شيء، وأن عداوتهم لجبريل، تستلزم عداوتهم لميكائيل، وغيره من الملائكة، لأن وظيفتهم واحدة، وفطرتهم واحدة، وحقيقتهم واحدة، من مقت أحدهم، فقد مقت الآخر، بل مقت جميع الملائكة والمرسلين، فعداوة جبريل، لا تستلزم عداوة الملائكة فقط، ولكن تستلزم عداوة جميع المرسلين أيضاً مع الملائكة، ومنشأ هذا كله عداوتهم لله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ يعني من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين منه الذين جعلهم رحمة لخلقه، فإنه كافر، والله عدو الكافرين، فهذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها، وهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم، ولكن هذا حكمهم عند الله في نفس الأمر، فأراد سبحانه أن يبين لنا حقيقة حالهم في الواقع، بأنهم أعداء للحق، وأعداء لكل من يمثله، أو يصدر على يديه، أو ينقله، أو يدعو إليه، وأن التصريح بعداوة جبريل، كالتصريح بعداوة ميكائيل، الذي يزعمون محبته ويزعمون أنهم سيؤمنون بمحمد ﷺ لو كان الذي ينزل عليه بالوحي هو أي (ميكال).

وكذلك معاداة القرآن، معاداة لجميع الكتب السماوية، حتى التوراة، التي يفتخرون بها، لأن الغرض من الجميع واحد، فأقوالهم وأحوالهم تدل على معاداة كل من ذكر الله في هذه الآية، وهذا من ضروب إيجاز القرآن وإعجازه.

وفي قوله سبحانه: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾، وضع للمظهر مكان المضمر ليبين سبحانه أن سبب عداوته لهم، هو الكفر، لأن الله لا يعادي قوماً لذواتهم، ولا لأنسابهم، ولا يوالي قوماً لذواتهم وأنسابهم، وإنما هو سبحانه يبغض الكفر، ويعادي أهله، ويعاقبهم عليه، ويحب الإيمان، ويوالي أهله، ويزينه في صدورهم ويزيدهم منه تقوى، ويجزيهم عليه أحسن الجزاء.

(تنبيه): جبريل معناه قوة الإله، أو عبد الله، لأنه اسم مركب من

(جبر) أي القوة. و(إيل) أي الإله. وفيه ثماني لغات قرىء بهن، والمشهور منهن أربع:

(**أحدها**): جبرئيل كسلسبيل، قرأ بها حمزة والكسائي.

و (**ثانيها**): جبريل. بفتح الجيم وحذف الهمزة، قرأ بها يحيى بن كثير والحسن وابن محيصن.

و (**ثالثها**): جبريل بكسر الجيم والراء، وهي لغة أهل الحجاز.

و (**رابعها**): جبرئل على وزن جبرعل، بفتح الجيم والراء، وهي قراءة أبي بكر بن أبي عياش عن عاصم. وهناك أربع أو ست قراءات أعرضنا عنها لعدم شهرتها.

(**تنبيه آخر**): وهو أنه سبحانه لما ذكر الملائكة في قوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾ فَلِمَ أعاد ذكر جبريل وميكال، مع اندراجها في مسمى الملائكة؟ والجواب: من جهتين:

(**أحدهما**): أنه لفضلهما أفردهما بالذكر كأنهما لكمال فضلهما صار لهما ميزة تخرجهما من الجنس.

و (**ثانيهما**): أن الذي جرى بين الرسول واليهود هو ذكرهما، والآية إنما نزلت بسببهما. فحق التنصيص على اسمهما ولا ريب أن هذا يقتضي كونهما أشرف من جميع الملائكة، وإلا لم يصح هذا التأويل وإذا ثبت هذا فيجب أن يكون جبريل عليه السلام أفضل من ميكائيل لعدة وجوه:

(**أحدها**): أنه سبحانه وتعالى قدم ذكر جبريل، وتقديم المفضول على الفاضل في ذكر مستقبح عرفاً، فوجب استقباحه شرعاً، ولذا قدمه الله لأنه فاضل على مفضوله ميكائيل.

و (**ثانيها**): أن جبريل ينزل بالقرآن على محمد ﷺ ووحي الله هو غيث القلوب ومادة بقاء الأرواح. وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار التي هي قوت الأبدان والحيوان. فلما كان الغذاء الروحي أشرف وأعلى من الغذاء

البدني. كان النازل بالغذاء الروحي أفضل من المأمور بتصريف الغذاء البدني.

و (ثالثها): أن الله وصفه في القرآن بأوصاف لم يصف بها ميكائيل ولا غيره. فوصفه بأنه ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[1] «وأنه شديد القوى»[2] إلى غير ذلك.

(تنبيه ثالث): في قوله سبحانه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ إنذار شديد لمن زعم عداوة جبريل من اليهود وأشكالهم المبتدعة المتهمين لجبريل بصرف الرسالة عما يريدون، كما اتهم اليهود لجبريل بصرف الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل. فكأن الله يقول- يا من يعادي جبريل إنكم لن تضروه فعداوتكم له غير مجدية لكم ولا ضارة به. ولكنكم كسبتم بعداوته عداوة الله. ومن عاداه الله فلن يفلح ولا ينجح.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

الهمزة همزة استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ على ما يقومون به من الفسق، وقد أراد الله سبحانه أن يسلي رسوله صلى الله عليه وسلم عند كفرهم بما أنزل الله عليه من الآيات ليخبره أن هذا ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم، ورثوها أسلافهم القدماء.

وتلك العهود التي نقضوها كثيرة متوالية، منها ما هو عهد ضمني نبذوه، ومنها ما هو ميثاق نقضوه، فالضمني كإظهار الدلائل الواضحة الدالة على نبوة محمد ﷺ، فإن ظهور تلك الدلائل كعهد ضمني. يوجب عليهم الإيمان به. والالتزام الكامل بما جاء به من الوحي.

---

(١) سورة التكوير. الآيات ١٩ - ٢١.
(٢) إشارة لقوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى﴾ سورة النجم. آية ٥.
(٣) سورة البقرة، آية ١٠٠.

ومنها العهد القولي. الذي كانوا يكررونه للمشركين م الا ستفتاح بمحمد ﷺ.

ومنها أنهم كانوا يعاهدون الله كثيراً. وينقضون العهود كم كانوا ينقضونها مع النبي ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ هذا التبعيض للاحتراز من قال منهم قد آمن. لهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفيه قولان:

(أحدهما): أن أكثر الفساق لا يصدقون بمحمد ﷺ أبداً لشدة بغيهم وحسدهم.

و(الثاني): لا يؤمنون. أي لا يصدقون بكتابهم المنزل عليهم من قبل. لأنهم لو آمنوا بكتابهم - التوراة - لاهتدوا بإيمانهم هذا إلى الإيمان بمحمد ﷺ. ولكن موقفهم معلن عن كفرهم بالتوراة. وليس عندهم من الإيمان بها إلا مجرد المزاعم.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

في هذه الآية الكريمة بيان لحال جديدة من أحوال ليهود - عليهم لعنة الله - وهي أنهم لما جاءهم رسول من عند الله وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حيث كان معترفاً بنبوة موسى. وبالتوراة التي تلقاها من الله، هذا من جهة. ومن جهة أخرى. فإن التوراة بشرت بمجيء محمد ﷺ. فكان هذا تصديقاً للتوراة. لكنهم مع هذا كله وقفوا منه أبشع موقف وأقبحه. حيث نبذ فريق منهم كتاب الله - الذين يفاخرون به. ويزعمون أنهم مكتفون بالهداية به - نبذوه وأعرضوا عنه بمثل ما يرمي به من وراء الظهر زهداً به. وعدم التفات إليه أو مبالاة.

---

(١) سورة البقرة. آية ١٠١.

وقد اعتبرهم الله نابذين لكل الكتاب، وخارجين عنه في الجملة، وهم لم ينبذوا إلا بعضه. وذلك لأن الكفر ببعضه. أو الجناية على بعضه. بالتحريف. أو العمل ببعضه دون البعض الآخر. يعتبر في حكم الله نبذاً للجميع. وكفراً بالجميع. وطرحاً للجميع.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ تشبيه منه سبحانه لتركهم إياه بمن يلقى الشيء وراء ظهره. حتى لا يراه. ولا يتذكره. وأما كون ترك الجزء منه. كتركه بالكلية فلأن ترك بعضه يذهب بحرمة الوحي من النفوس. ثم يجرئها على ترك الباقي. ولهذا كان قتل النفس الواحدة، كقتل الناس جميعاً فيما كتبه الله على بني إسرائيل. كما نصت عليه الآية (٣٢) من سورة المائدة.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. يعني أنهم بالغوا في ترك الكتاب وإهماله حتى صاروا كأنهم لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[١].

يخبر الله سبحانه عن بني إسرائيل أنهم لما نبذوا كتاب الله المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام لم يلتزموا الكتاب المنزل على موسى قبله. كما

(١) سورة البقرة، آية ١٠٢.

يتبجحون إفكاً وزوراً. بل نبذوا الجميع ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ يعني ما كنت تتلوه ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي في ملك سليمان. ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ عليه السلام. وحاشاه من الكفر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ هم الذين ﴿ كَفَرُواْ ﴾ وهم الذين يعلمون الناس السحر وينسبونه إلى سليمان زاعمين أنه لم يتسلط على الجن والطير والوحوش إلا بما يعمله من السحر. منكرين ما وهبه الله من الكرامة والملك. الذي لا ينبغي لأحد من بعده. وههنا مسائل عظيمة:

(أحدها): ما قاله السدي وغيره من أن الشياطين تصعد إلى السماء فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيبثونه على الكهنة ويخبرون به. فلما رأوا صدقه أخذوا يزيدون على الكلمة الواحدة سبعين كذبة. ليروجوا على الناس الأباطيل. فيلبسوا عليهم أمورهم. فحصل من ذلك خبط كثير وشعوذة. وأن نبي الله سليمان أخذ ما كتبوه من ذلك كله ودفنه مع ما كتبوه من أنواع السحر الأخرى ودفنه تحت كرسيه، فلما مات عليه السلام دلهم عليه بعض الشياطين. وقال لهم: هذا الذي كان سليمان يسيطر بواسطته على الناس. وقد أخبر الله سبحانه عن صعود الشياطين إلى السماء لاستراقهم السمع. وأنهم كانوا على هذه الطريقة حتى مبعث محمد ﷺ فسلط الله عليهم الرجم بالشهب. وأما اليهود فإنهم مولعون بكل رذيلة. ولهذا كان السحر من طبيعتهم.

(ثانيها): السحر معناه في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفي سببه، ويتخيل على غير حقيقته. وعند العرب كل ما لطف مأخذه، ودق وخفي، ويقولون سحره وسحّره. بمعنى خدعه وعلله. ويقولون عينٌ ساحرة وعيونٌ سواحر. في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»(١).

(١) رواه البخاري (١٠/٢٠٢) في الطب. باب إن من البيان لسحراً. وأبو داود برقم/٥٠٠٧/ في الأدب. باب ما جاء في التشدق في الكلام. والترمذي برقم/٢٠٩٩/ في البر. باب ما جاء أن من البيان لسحراً. وعندهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. ورواه مسلم برقم/٨٦٩/ في الجمعة. باب تخفيف الصلاة وقصر الخطبة من حديث أبي وائل. وأخرجه أبو داود والترمذي أيضاً من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فكل ما لطف مأخذه ودق صنعه بحيث لا يعرفه غير أهله. فهو سحر لكونه خفي باطني. ولهذا يقال للخداع ساحر. لخفاء الخداع ودقته. ومتى أطلق ولم يعتد فهو مذموم وفاعله مذموم.

(ثالثها): جزم كثير من الناس بأن السحر لا حقيقة له. وأنه مجرد تخييل وتمويه. وقد دللوا على رأيهم هذا بآيات قرآنية. كقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] وكقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾[2].

ولكن الحق الذي لا مرية فيه هو أن السحر له حقيقة صحيحة ثابتة. وليس تأثيره في صحة الإنسان. بل في حياته. وكثيراً ما سقموا سقماً شديداً من السحر. وتأثيره على القلب والبدن. وأحياناً على الأحاسيس. وأحياناً على بعض القوى. وأحياناً يصل تأثيره إلى الموت والهلاك المحتم. وكم شاهدنا وشاهد غيرنا من مات بسبب السحر. حتى أن العلماء قالوا بوجوب القصاص على الساحر إذا بلغ سحره بالمسحور إلى الموت.

والسبب في إنكارهم لحقيقة السحر بالكلية هو كثرة الكذابين ممن يزاولون السحر وهم لا يحسنونه بل يدعونه دعوى. وليس عندهم منه شيء سوى الشعوذة والأكاذيب. التي يلبسون بها على الناس. وهم عن السحر الحقيقي بمكان بعيد. ونحن نذكر الأقسام المشهورة من السحر الرائج على اختلافه. مما هو حقيقي. وغير حقيقي. وهي ثمانية:

(أحدها) سحر الكلدانيين والكسدانيين. وهم الصابئة القدامى. عبّاد الكواكب. والذين يعتقدون تأثيرها في الكائنات. ويربطون سحرهم بها. وهم الذين أرسل الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام. وسحر هؤلاء من أنواع الشرك. لاعتقادهم التأثير فيما سوى الله.

---

(١) سورة الأعراف. آية ١١٦.

(٢) سورة طه. آية ٦٦.

(**ثانيها**): سحر أصحاب الأوهام والقوى النفسية. ولا شك أن للنفوس والهمم آثاراً غير مختصة بمسألة معينة. وأن للتصورات مبادىء قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان. على ما جبلها الله سبحانه وتعالى. وقد قالوا أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماء. كانت كأنها روح من الأرواح السماوية. فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم بإذن الله. أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بالملذات البدنية. فإنها لا تتصرف بغير بدنها أبداً.

و (**ثالثها**): سحر المستعينين بالجن. ولهم ضروب في تحضيرهم وتسخيرهم. قد يفسق صاحبها أو يكفر على حسب الوسيلة التي يستعملها لتحصيل ذلك.

و (**رابعها**): التخييلات والأخذ بالعيون. وذلك بجعل القوة الساحرة تبصرها الشيء على خلاف ما هو عليه لوسائل يعملونها.

و (**خامسها**): الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات على خطط هندسية مناسبة لها. ومنها الحركات العجيبة السريعة التي يعملها أهل الروم والهند. مما لا نطيل بذكره.

و (**سادسها**): الاستعانة بخواص الأدوية المبلدة. كدماغ الحمار أو المفترة والمسكرة المزيلة للعقل. وكالتفنن في استعمال الزئبق والمغناطيس. مما يحدث بها من العجائب.

و (**سابعها**): سحر ينفث في العقد ويجعل في أمشاط وقحف وشعر ونحوه. ويوضع في مكان يحصل به مرض قلبي وبدني، حتى يكشف وينقض أو يموت صاحبه. فهذا سحر حقيقي، وفي مقابلته سحر وهمي ينشأ من الخوف وضعف القلب.

و (**ثامنها**): السعي بالتميمة والتضرب من وجوه خفيفة لطيفة. وذلك شائع في الناس.

وللسحرة طرق وضروب كثيرة. منها ما هو صحيح. ومنها ما هو تخييل

وتزييف. ولهذا التبس على كثير من الناس حقيقة السحر. حتى أنكروه. ولو لم يكن له حقيقة ولا تأثير. لما كان بعض تناوله كفر. ولما تعبدنا الله في كتابه الكريم بالاستعاذة من النفاثات في العقد. وذلك في سورة الفلق. لأن الاستعاذة من روح التوحيد. ولا يستعاذ بالله مما ليس له حقيقة. وكذلك الذي ليس له حقيقة. لا يكون صاحبه كافراً يجب قتله. ولا يكون تعلمه كفراً. لكن لما كان للسحر حقيقة أخرى غير الشعوذة والتخييل. كان صاحبه كافراً واجب القتل وكان المتعلم له كافراً كما سيأتي توضيحه. والله المستعان.

وههنا مسائل: **(أحدها)** أن الساحر يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة لا يستطيعها غيره. كما هو معروف مشهور في كل زمان. يعرف فيه أناس من هذا النوع. وهذا بقدرة الله وتدبيره. فهو الذي أقدرهم ومكنهم. وكذلك يستطيع الساحر أن يقلب بعض الأشياء إلى أشياء أخرى. ولكن هذا أيضاً بقضاء الله وقدره. فهو الذي أقدرهم وسلطهم. وهذا معروف في بعض البلدان التي يحصل بها السحر الحقيقي، وأعاجيب السحر كثيرة مشهورة. وإن حصل من ينكرها من المكابرين. ولكن الله سبحانه في هذه الآية الكريمة ركز دعائم التوحيد بقوله: ﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ فهم لا يقدرون أبداً على ما لم يقدرهم الله عليه، ويسلطهم عليه لحكمة، ولهذا تجد الذي يبتلي بأضرار السحرة في الغالب هم الفاسقون، ذوو الأغراض الشهوانية الدنيئة.

(ثانيها): هل يكفر الساحر على الإطلاق، أو لا يكفر إلا بانضمام اعتقاد آخر؟ ظاهر الآية يدل على كفره مطلقاً، لقوله سبحانه: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ**﴾ وبما أن السحر أنواع كثيرة، وفيه من الشعوذة والتخييل، وفيه ما هو حقيقي، فينبغي التفريق. أمّا الساحر الحقيقي فيكفر، وغيره لا يكفر، بل هو فاسق، وكذلك الساحر الذي يدعي لنفسه التأثير في الكائنات، فإنه يكفر بلا نزاع ولا خلاف.

(**ثالثها**): هل يقتل الساحر أم لا؟ الصحيح أن الساحر الحقيقي إذا حصل منه الإضرار بأحد، فإنه يقتل، سواء كان القتل حداً أو تعزيراً(١)، ولإمام المسلمين أو نائبه أن يقتل من حصل الافتتان به، ولو لم ينزل ضرراً يستحق القتل، إذا رأى أنه من المفسدين في الأرض،وكذلك يقتل الساحر وجوباً محتماً، إذا ادعى لنفسه التأثير في الكائنات، ونحو ذلك من الدعاوى الباطلة، التي يحصل بها زعزعة عقائد العامة.

(**رابعها**): أنكر بعض العلماء المتأخرين أن يكون الرسول ﷺ قد سحره يهودي أو يهودية، وهذا الإنكار لا ينبغي صدوره لاقتضائه إنكار واقعة محسوسة، لا يجوز إنكارها، وقد ثبتت الأحاديث الصحيحة بها(٢)، وأن جبريل عليه السلام نزل إليه فرقاه بالمعوذتين، وشبهة أولئك المنكرين لسحره أمران:

(**أحدهما**): أن الله قد عصمه من الناس، فكيف يتسلط عليه ساحر.

و (**ثانيهما**): أن المعوذتين من السور المكية، والجواب عن الأول: أن عصمة الله له من الناس، لا تنفي حصول السحر، بل تنفي قوة تأثيره، وقد عصمه الله من تأثير السحر على جسمه أو عقله، لكن هؤلاء لم يتفطنوا لمعنى قوله: «يخيل إلي أني قد فعلت الشيء ولم أفعله» وهذا واضح في عدم نفوذ السحر إلى أحاسيسه، فأصبح تفكيره صحيحاً سليماً يعلم به فساد

---

(١) العمل على قتل الساحر عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي: إنما يقتل إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر. وقد ثبت قتل الساحر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحفظه زوج النبي ﷺ وغيرهما.

(٢) حديث سحر النبي ﷺ رواه البخاري (١٠/١٩١) في الطب، باب السحر، ومسلم برقم/٢١٨٩/ في السلام، باب السحر، ورواه أيضاً أحمد والنسائي وابن سعد والحاكم والبيهقي في الدلائل وغيرهم، وقال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم متلقى عندهم بالقبول.

التخييل، وأنه لم يفعل شيئاً، فأصبح معصوماً من نفاذ السحر إلى عقله، وأما المعوذتان فلا ينافي رقية جبريل بها كونها من السور المكية، والله أعلم.

(خامسها): قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، فيه رد على اليهودالخبثاءالذين نبذوا وحي الله وراء ظهورهم واتبعوا الشياطين في مسالك السحر وأنواعه التي ينسبونها إلى نبي الله سليمان، زاعمين أن ما حصل عليه من الملك والتسلط على الجن والطير والريح التي تطير به في الفضاء غدوها شهر ورواحها شهر، وإسالة الحديد له، كله من السحر الذي تفوق به واحتكره عن غيره، ففي هذه الجملة من الآية فائدتان:

(أحدهما): تبرئة ساحة سليمان من السحر الذي نسبه اليهود إليه زوراً، وبيان أنه نبي معصوم من الكفر، لأن السحر الذي يصل إلى هذا الحد، لا شك في كفر صاحبه، ولكن الله وهب لسليمان هذه المواهب كمعجزات باهرات قاهرات.

و **(ثانيهما)**: أن ظاهر الآية يقتضي أنهم إنما كفروا لأنهم كانوا يعلمون الناس السحر. لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، وتعليم ما لا يكون كفراً لا يوجب الكفر، فصارت الآية دالة على أن تعليم السحر كفر، وعلى أن السحر الحقيقي أيضاً كفر، أما أنواعه الأخرى فليست كفراً، بل فسقاً حتى ينضم إليها دعاوٍ تُخِل بالعقيدة كما أسلفنا بيانه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ فيه وجهان: **(أحدهما)**: أن (ما) بمعنى الذي. وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال، أصحها أنه عطف على السحر، أي يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضاً، وإنما كان هذا أصح الأقوال ،لأن عطف قوله(وما أنزل) على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه، إلا لدليل خارجي، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطف بيان للملكين، وعلمان لهما، وهما اسمان أعجميان لامتناعهما من

الصرف، ولو كانا على ما زعمه بعضهم من الهرْت والمرْت الذي هو الكسر، لانصرفا. وقرأ الزهري بالرفع ولكن المتـواتر قراءة النصب، وقرأ الحسن (ملكين) بكسر اللام، وروي عن ابن عباس والضحاك مثل هذه القراءة وبها يزول عن بعض الناس إشكال، ولكن القراءة المشهورة المتواترة بفتح اللام، وهما ملكان نزلا من السماء بصورة رجلين، وقد ورد في سبب نزولهما أثر تناقله أكثر المفسرين، والظاهر أنه من الموقوف على كعب الأحبار، فلهذا أعرضت عن ذكره، لأني ملتزم بعدم رواية الضعيف، فكيف بالموقوف على أمثال هذا، خصوصاً وفي متنه، فضلاً عن سنده ما يخالف المعقول والمنقول.

وأما قوله سبحانه عنهما: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ فذلك إيضاح من الله لحالهما أنهما لا يعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به المقتضي للكفر ،وهو قولهما:﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، والمراد بالفتنة هنا المحنة التي تميز بها المطيع من العاصي، والمؤمن من الكافر، أو الفاسق، كقول القائل، فتنت الذهب بالنار إذا عرضه على النار ليتميز خالصه من مغشوشه، فهما لا يعلمان أحداً السحر، ولا يصفانه لأحد، ولا يكشفان له من أسراره، حتى يبذلا له النصيحة، فيقولان له: (إنما نحن فتنة) أي هذا الذي نعلمك إياه يمكنك أن تتوصل به إلى المعاصي والمفاسد التي توقعك في الكفر؛ فحاذر منه واترك تعلمه.

والحكمة من إنزال الملكين عدة أمور:

(أحدها): إن السحرة كثرت في ذلك الزمان، واستنبطت أموراً غريبة في السحر، فتجرأ السحرة بواسطتها على ادعاء النبوة، وتحدي الناس بها، فأنزل الله هذين الملكين، ليعلما الناس السحر وأبوابه، حتى يتمكنوا من معارضة الفجرة، الذين يدعون النبوة، وهذا من أحسن المقاصد، لصيانة مقام النبوة عن الشعوذة.

(ثانيها): إن العلم بمخالفة المعجزة للسحر متوقف على العلم بماهية

المعجزة، وبماهية السحر، وقد كان الناس يجهلون ماهية السحر فتعذر عليهم معرفة حقيقة المعجزة، فبعث الله هذين الملكين لتعريف الناس بماهية السحر، ليميزوا بينه وبين المعجزة.

(**ثالثها**): إن الجن كان عندهم أنواع من السحر لا يعرفها البشر، فبعث الله هذين الملكين ليعلما الناس هذه الأنواع التي يعارضان بها الجن.

(**رابعها**): إن السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله، والألفة بين أوليائه، هو مستحب أو مندوب، ولهذا الغرض بعث الله الملكين، ولكن الناس استعملوا ذلك في الشر.

(**خامسها**): إنه يجوز أن يكون ذلك تشديداً في التكليف حيث تعلم الناس السحر من الملكين، وبه يمكنهم الحصول على لذاتهم، لكن الله منعهم من استعماله فكان في ذلك مشقة كبيرة، تستوجب الثواب المضاعف.

وهذا كله على قراءة (الملكين) بفتح اللام، وهي المتواترة المشهورة.

وأما على قراءة (الملكين) بكسر اللام، فقد قال من جنح إليها: انهما رجلان متظاهران بالتقوى والصلاح في (بابل)، مدينة بالعراق على نهر الفرات، وكانا يعلمان الناس السحر، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما، إلى أن ما يعلمونه هو وحي من الله، وبلغ من مكرهما ومحافظتهما على سمعتهما، أن يقولا للمتعلم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ يقولان هذا بصيغة النصح، ليوهما الناس أن علومهما إلهية، وإنهما لا يقصدان إلا الخير، كما يفعل هذا دجاجلة كل زمان ومكان، إيهاماً للناس، وتضليلاً لهم.

وهناك رواية أعرضت عن ذكرها لمخالفتها العقل والنقل.

ومنهم من فسر الملكين بكسر اللام بأنهما ملكان كافران ببابل، ولكن سياق الآية الكريمة يأبى ذلك، لأن الله أخبرنا فيها أنهما ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ والكافر لا ينصح غيره بترك الكفر، وزعم بعضهم أن قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أن حرف (ما) نافية، والصحيح أنها موصولة ومعطوفة على ما

قبلها، وإنها على القراءة المتواترة المشهورة بفتح لام الملكين، من الملائكة الذين أنزلهم الله، صيانة لمقام النبوة من افتراءات المفترين، وفتنة يمتحن الله بها عباده ولله أن يمتحن عباده بما شاء، كما يشاء. وأما على القراءة المرجوحة بكسر اللام، كما جنح إليها بعض المفسرين فقد قدمنا إيضاحه.

وفي قوله سبحانه وتعالى حكاية عن الملكين: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ نكتة حلوة أشار إليها الرسول ﷺ بقوله: «اتقوا الدنيا، **فوالذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت**»[1].

وذلك أن هاروت وماروت قد صرحا بفتنتها، ولكن الدنيا كتمت فكانت أسحر منها، فهي تسحر الناس بخداعها، وتكتمهم فتنتها، فتدعوهم إلى التكالب عليها، والتنافس فيها، والجمع لها، والمنع، حتى تفرق بينهم وبين طاعة الله، وتفرق بينهم وبين معرفة الحق ورعايته، وتطمس بصائرهم بشهواتها، وتَشْردَ بقلوبهم عن الله، وعن القيام بحقوقه، وتجسم فيها عدم المبالاة بوعده ووعيده، وتمنيهم الأماني الكاذبة، وتعمي قلوبهم وتصمها بمحبة الشهوات العاجلة. حقاً إنها أسحر من هاروت وماروت لأن سحر أولئك يجري منه التفريق بين المرء وزوجته، وسحر الدنيا يفرق بين الإنسان وخالقه.

فالمسلم المؤمن يجب عليه أن يكون قوي الإيمان بالله، جازماً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعالج أقدار الله بضدها، من أقداره الأخرى التي أوجب الله مقاومتها به دون استسلام.

---

(١) إسناده ضعيف: انظر الحديث في كنز العمال برقم /٦٠٦٣/ و /٦١٩٦/ ولسان الميزان (٤١٦/٧) والدر المنثور (١٠٠/١) وذكره السيوطي في جامعه وقد أشار شيخنا الألباني حفظه الله إلى ضعفه في ضعيف الجامع برقم/١١٥/، وورد الحديث بلفظ آخر (احذرو الدنيا...الخ) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في الشعب وهو حديث منكر لا أصل له كما ذكر ذلك الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة برقم/٣٤/.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، أما كونه يضرهم، فلأنه سبب في الإضرار بالناس، وهو محرم يعاقب الله عليه في الآخرة، وقد يعجل العقوبة في الدنيا، أو يجمع للمضر بالناس بين عقوبات الدنيا والآخرة، زد على هذا أن من عرفه الناس بالإيذاء يمقتونه، ويكونون عليه أعداء. فقد أثبت الله الضرر في تعلم السحر وتعاطيه. ونفى منه المنفعة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وذلك أن بعض المضار، وإن كانت ضارة من جهة، يكون فيها نفع من جهة أخرى، بخلاف السحر على اختلاف ضروبه، فإنه ضرر بلا نفع، فمضرته ثابتة، ونفعه منتفي، فما أروع البلاغة في كلام الله بهذه الجملة القصيرة التي احتوت على نفي واجب في قانون البلاغة لا بد منه، وصدق الله، ومن أصدق من الله قيلاً.

فإننا نرى المتعاطين للسحر بجميع صنوفه من أفقر الناس وأحقر الناس، ولو أن المغفلين الذين يراجعونهم، لالتماس المنافع لأنفسهم، أو إيقاع الضرر بأعدائهم، أقول: لو أنهم نظروا في حالهم نظرة عقلية صحيحة، لعرفوا أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن الشقي في نفسه، لا يهب السعادة لغيره، وأنه لو كان يقدر على إنزال ضرر بأحد، لنفع نفسه ليسعد بشقاء من يضره، أو ينعم ببؤس من يضره، ولكنها الجهالة العمياء التي حلت بالدهماء لحرمان قلوبهم من نور وحي الله، فكانت مظلمة بأنواع الخرافات، ويسيرها الطمع الأعمى بدون بصيرة ولا جدوى.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾. يعني وقد علم اليهود الذين فضلوا السحر، سحر الشياطين، على وحي رب العالمين، واشتروه بضياع أنفسهم، حيث أضاعوا بسببه وحي الله، أن خطتهم في هذا الاختيار الخسيس، هي خطة المفلس من الله، خطة المفلس الذي ليس له في الآخرة من نصيب، فالخلاق هو النصيب من الخير، والله أخبرنا عن اليهود أنهم أضاعوا نصيبهم في الآخرة. وارتضوا بالإفلاس فيها، لما اختاروا سحر الشياطين، طمعاً في حطام الدنيا، ونبذوا وحي الله على علم منهم، ليس عن جهل ولا تفضيل،

إنما هو اختيار للضلالة، ليفسدوا على الناس دنياهم بأنواع السحر، ويلعبوا عليهم ويبتزوا أموالهم، وهم يعلمون أن التوراة حرمت عليهم السحر علماً وعملاً وتعليماً، وجعلته كعبادة الأوثان، وشددت العقوبة على فاعله، وعلى متبعي الجن والشياطين، ولكنهم كفروا على علم منهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ بئس من حروف المبالغة في الذم لسوء حالهم ومآلهم، لأنهم باعوا أنفسهم بالعذاب المتنوع في الدنيا، وبنيران الجحيم في الدار الآخرة، إنهم والعياذ بالله باعوا الدين والرسالة التي أورثهم الله من أنبيائهم، والتي بها مناط عزهم وتحقيق شخصيتهم في الحياة بين الأمم، إذ لا قيمة لهم بتاتاً إذا تجردوا من رسالة الله، وشردوا عن صراطه، ونبذوا وحيه، واطرحوا دينه، فقد تفتخر عليهم أصغر أمة أو أحقر أمة متفوقة بقوتها، أو بحضارتها وتستعلي عليهم، بخلاف ما لو كانوا للرسالة حاملين، وبدين الله زاحفين؛ فبئس لهذه البيعة التي باعوا بها رسالة الله ودينه القويم، بسحر الشياطين، لقد هبطوا بأنفسهم من أعلى طود شامخ، إلى أسفل سافلين، وقد علموا هذا وارتضوه عن علم، ولكن الله نفى عنهم العلم أخيراً، مع إثباته لهم أولاً، وذلك أن العلم علمان:

علم تفصيلي روحي، متمكن من النفس، له سلطان على توجيه إرادتها وتحريكها إلى الأعمال الطيبة، وتهذيب فطرتها، وكبح جماحها، وتسييرها إلى الله وفق شرعه، فهذا هو العلم الذي فقده بنو إسرائيل، ونعاه الله عليهم في ختام هذه الآية الكريمة.

وأما العلم الثاني: فهو علم إجمالي خيالي مادي، لا روحانية فيه، يلوح في ذهن صاحبه عندما يعرض عليه شيء أو سؤال، فهو علم تدرك به حقائق الأشياء عند الحاجة، لكنه ليس روحياً متشبعاً بتقوى الله وخشيته، ليعمر الضمير، بل هو على العكس، علم يعرف صاحبه به الخير والشر، لكن عندما يصطدم مع أغراض نفسه وشهواتها، يكون وبالاً عليها، لأنه يعين على التأويل والتحريف حسب مطامع النفوس.

فهذا هو العلم الذي أثبته الله لبني إسرائيل بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

والعلم الأول الروحي النافع، هو الذي نفاه عنهم في آخر الآية بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ و(لو) حرف امتناع لامتناع. فالعلم المنفي عنهم هو العلم الذي يطهر النفوس وينظم الإرادة - هذا العلم فقدوه - لذا كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وكانوا يسارعون في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت بالتأويلات الفاسدة والتخصيصات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا العلم العديم النفع، والذي فيه مجلبة للضرر كثيراً ما يحمله كثير من أدعياء العلم عندنا، بحيث تميعوا فكانوا عن صلاتهم ساهين، ولحرمات الله غير معظمين، وكانت فتاويهم مضطربة حسب ما يسنح لهم وقت كتابتها، من خيالات أو منافع.

وقد ذكر الإمام محمد عبده أمثلة من هؤلاء العلماء، لهم أقبح التأثير في إفساد العامة، باستباحة المحظور والإقدام على شهادة الزور بمجرد تظلم الخصم وصيحاته، وهو لو يسمع تظلم الطرف الآخر لعض على يديه بما جنى، حتى ذكر رجالاً صالحين يفترون بما يسمعون من أهازيج الخصم ولا يذكرون أن أخوة يوسف رموه في البئر على أبشع وحشية، ثم جاءوا أباهم عشاء يبكون.

إن الذي يراقب الله لا يجرؤ على مخالفة شيء من أمره أو ارتكاب أدنى شيء من نواهيه، استعظاماً لجنابه، ووقوفاً عند حدوده، واستشعاراً لمحاسبته وعقابه، في يوم لا ريب فيه، بل خوفاً من عقوباته العاجلة وبطشه الشديد، وحياء من اطلاعه سبحانه على مخالفته بالغيب، وأن ما وقع فيه بعض العلماء أو أكثرهم في أمصار المسلمين هو ناشىء من عدم تصور ذلك، فعدم تصور عظمة جناب الله وهيْمَنَتِه على الخلق واطلاعه على خفايا النفوس ووساوسها وعدم استشعار مشاهد يوم القيامة وأهوالها هو السبب في غفلة القلوب، ونقص الإيمان، وكون العلم لا ينفع صاحبه، والعياذ بالله،

بل يحصل بسبب ذلك قسوة القلوب، ولهذا يحصل التشابه بين أعمال أكثر علماء أمصار المسلمين، وبين علماء بني إسرائيل، فلينتبه المسلم المؤمن لتحصيل أي نصيب من العلم الروحي الذي يكسبه خشية الله ويوقفه عند حدوده، ويجعل شخصيته شخصية مسلمة متميزة عما سواها، من الذين بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وإلا فما قيمته إذا لم يحصل إلا على مجرد الاسم؟

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ١٠٣).

يعني لو أنهم آمنوا بكتابهم الذي يهديهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ربهم حق تقاته في أخذ التوراة بقوة، وعدم الجناية عليها بالتأويلات، لتركوا السحر الخادع الذي هو من نزعات الشياطين، والتزموا الوحي المنزل عليهم من ربهم، والذي يصدق الوحي الأخير المنزل على محمد ﷺ لكانت (مثوبة الله) أي ثوابه العظيم لهم على الإيمان الصحيح، والعمل الصالح، خير لهم مما اختاروه من شرور السحر وكفره، وافترائهم على الله بنسبتهم السحر إلى سليمان عليه السلام، فإن جريمتهم عظيم وزرها، متراكم شرها، لجمعها بين الكفر والافتراء على الله، مما لا يصدر من أي عالم فاهم للعلم الصحيح، كما قدمنا، فلقد باعوا أنفسهم بأخس بيعة، صفقتها من أخسر الصفقات، ولو أنهم عكسوا الأمر لنالوا المثوبة من الله التي هي خير ما يحصلون عليه من حطام الدنيا، الذي يكون سبباً لتسعير نار جهنم عليهم بما عملوا ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم في جميع ماهم عليه من أنواع السحر والأباطيل وزعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضروب من التأويلات الفاسدة، واتباع الظنون والتقليد الأعمى ليسوا على شيء من العلم الصحيح.

فالله يكرر نفي العلم الصحيح عنهم، مع أنهم عندهم علم لا ينتفعون به، جعله الله كالعدم لأن العلم الذي لا يعظم صاحبه حرمات الله، ولا يوقفه عند حدوده، ولا يجعله ملتزماً لخشيته ومراقبته، بحيث يكون له سلطان

على القلب والجوارح يوجهها به إلى الله، قولاً وقصداً وعملاً، فالعلم الذي لا يسلك بهم هذا السبيل، يكون وجوده كالعدم، ويحل محله علم مادي لا روح فيه. ويزين لهم استباحة المحرمات والافتراء على الله وأكل أموال الناس بالباطل من الربا والرشوة وبيع الضمير بالفتيا التي تناسب حال المستفتي، وترضي أنانيته، وتشبع شهوته، ويوهمهم أن السحر الذي يتعاطون نافع غير ضار، أو أن ضرره يكون موجهاً إلى غير اليهود، ونحو ذلك مما تجره التصورات الفاسدة الناشئة من العلم المادي البعيد عن الله وعن وحيه.

قال الإمام محمد عبده رحمه الله: (وإننا نرى كثيراً من الحرمات قد انتهكت في المسلمين بمثل تلك التأويلات حتى جوّز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الإسلام بالحيلة، وهو ركن الزكاة الذي يحارب تاركوه شرعاً، وترى هذه الحيل قد أثرت في الأمة أسوأ التأثير، فقلما يوجد فينا غني يؤدي الزكاة ولا يعتقد التمسك بالدين من هؤلاء الأغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته، وأنه قد فسق عن أمر ربه، لأنه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية، وقد أخذها عمن يسمون فقهاء ويفتخرون أنهم ورثة الأنبياء، ثم إن الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها في بعض الكتب وأدمغة أهل العمائم مجال).

وما ذكره الإمام محمد عبده وعلق عليه تلميذه الطيب صاحب المنار شيء معروف، جاء هو وكثير من مثله كتحذير لأصحابنا من مشابهة أهل الكتاب، خصوصاً في السحر والشعوذة وتأويل النصوص حسب الأهواء أو حسب مرضاة الأغنياء والحكام.

وقد تجلت لنا في الآية (١٠٢) حقيقة السحر الذي لا يجوز إنكارها، ولو لم يكشف العلم الحديث عن كنهها فإنه قد شاع في هذا الزمان ما يسمى بـ (التنويم المغناطيسي) ولم يكشف العلم حقيقته وفيه من العجائب، إذ كيف يتصل فكر بفكر وكيف يتلقى عن الآخر كأنه ينقل من صحيفة؟ وكيف تسيطر إرادة على إرادة. وكذلك علم (تحضير الأرواح) بتسمية

الغربيين ومع هذا لم ينكر لأنه غربي وينكر السحر المنصوص في القرآن، مع أن ما يسميه الغربيون (تحضير الأرواح) يسمى عندنا علم التعزيم، وهو تحضير الجن، لكن لما كان الغربيون لا يؤمنون بالجن، سموا هذه القوة وهذا العلم بهذا الاسم الذي اختاروه وروجوه، ولا يبعد أن يكون التنويم المغناطيسي فيه تخاطب للشياطين من قرناء بني آدم، وأن قرين كل شخص يعبر عنه ويخبر عنه، ولكن ما دام الغربيون لا يؤمنون بالجن ولا بالشياطين، فلن يغيروا هذه الأسماء أو يعترفوا بما عداها.

وكذلك أفراخهم ممن تتلمذ على أيديهم أو تقبل ما يصدر عنهم كقضية مسلمة، فإنهم لا يؤمنون بالملائكة ولا بالجن ولا بالشياطين، ولا يمكن إقناعهم أبداً حتى يقتنع أساتذتهم أو أسيادهم من ملاحدة الغرب والشرق.

ولا شك أن من لم يؤمن بالملائكة إجمالاً وتفصيلاً، أنه كافر مهما ادعى الإيمان بالله، لأن المؤمن بالله يجب عليه أن يؤمن بملائكته، دون البحث عن كنههم، وكذلك من لم يؤمن بالجن والشياطين، فإنه كافر مهما ادعى الإيمان بالله، لأن المؤمن بالله يجب عليه أن يؤمن بجميع ما ورد من الله في وحيه المبارك، من الجن والشياطين، أما الذي لا يؤمن بهم حتى يؤمن بهم أسياده من الغرب، فهذا لا شك في كفره، مهما قال أو عمل لأن المكذب بحرف واحد من القرآن كافر، فكيف بالتكذيب بالجن وأبيهم إبليس وبالشياطين إجمالاً؟.

والحاصل أن ما ورد في هذه الآية من ذكر السحر والشياطين وهاروت وماروت، يجب الإيمان به دون البحث في كهنه، وأن من لم يؤمن به - لأن العلم لم يسلم به - فهذا كافر ويرد عليه إيرادات من كون أشياء مسلم بها في الغرب دون أن يكشفها العلم ويعطي كلمته كالتنويم المغناطيسي وما يسمونه تحضير الأرواح، مما هو تحضير للجن والقرناء من الشياطين بلا جدال، وستضطركم الحقيقة إلى الاعتراف بذلك.

هذا شطر من مهمات الآية (١٠٢) والشطر الثاني: يخبر عن خسة اليهود وخبث نفوسهم وسوء طباعهم، أنهم لما كفروا بالقرآن ونبذوه وراء ظهورهم، لم يؤمنوا بالتوراة، بل نبذوها كما نبذوا القرآن، واتبعوا ما تتلوه شياطين الجن والأنس من السحر الذي نسبوه إلى سليمان إفكاً وزوراً وأن الله برأ نبيه سليمان من السحر لأنه كفر، من أوضاع الشياطين إخوان اليهود، فهم الذين تقبلوا عنهم السحر ونبذوا كتاب الله متبعين السحر الذي هو كفر وضرر لا نفع فيه، كما قرر الله سبحانه وتعالى.

وعلى المهزومين هزيمة عقلية أن لا يتمادوا في مكابرتهم، فينكروا السحر ونحوه من القوى الخفية، لمجرد أن العلم لم يكتشفها أو أن أسيادهم من ملاحدة الغرب والشرق لم يعترفوا بها، وأن يعلموا أن إنكار ما جاء به القرآن كفر، ولا ينتفع صاحبه بدعوى الإيمان بالله، وهو مكذب بما جاء عن الله.

لا تكونوا كاليهود

وقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

ينادي الله عباده المؤمنين بنداء الكرامة، ولقب التشريف لتتفتح قلوبهم، وليستحثهم على سرعة الانقياد والقبول. وفي هذا النداء نهي للمؤمنين عن مشابهة اليهود، حتى في الدعاء لله سبحانه، ليقطع الالتقاء معهم حتى في ألفاظ دعائه سبحانه وتعالى. وليتميز المؤمنون في دعاء الله بأسلوب خاص لا يشابههم فيه غيرهم.

وقد كانت اليهود تقول في دعائها لله (رعنا) من الرعاية فنهانا الله عن مشابهتهم وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ ﴾ وذلك أن اليهود عليهم لعائن الله لا يخلو كلامهم من الدس والغش والتلبيس ليوقعوا المسلمين في الشر من حيث لا يدركون، فقد قيل أن سفهاء اليهود يميلون بألسنتهم في النطق بهذا الدعاء وهم يوجهونه للنبي ﷺ حتى يؤدي معنى آخراً مشتقاً من الرعونة، لأنهم يخشون أن يشتموا النبي ﷺ شتماً صريحاً وجهاً لوجه، فيحتالون على سبه من هذا الطريق الغامض، الذي لا يحس به، والذي لا يصدر إلا من سفاهة، ومن ثم جاء النهي الصريح للمؤمنين عن استعمال اللفظ الذي يتخذه اليهود

---

(١) سورة البقرة، آية ١٠٤.

ذريعة للشتم أو السخرية، وأمرهم الله أن يستبدلوا هذه اللفظة بلفظة مرادفة في المعنى، لا يقدر اليهود على تحريفها حسب ما يريدون من إيذاء محمد ﷺ، ليفوتوا على اليهود غرضهم الدنيء الحقير، ولا يجعلوا لهم مجالاً في سواه، ثم يأمر الله المؤمنين بالسمع وهو الطاعة قائلا: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ لأن من لم يحقق الاستماع بالطاعة والانقياد لم يكن سامعاً بل هو من ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

ثم يحذر الله المؤمنين من مصير الكافرين مخبراً عباده أن للكافرين عذاباً أليماً موجعاً، بالغاً في الإيلام أبشع صفاته وأقساها، وذلك تحذيراً للمؤمنين من تقليدهم وقبول أي شيء من عاداتهم وسننهم التي يتوارثونها، والتي تتجدد مع زيادة كفرهم، وبدعتهم وافترائهم على الله، وأن لا يلتقي المسلم المؤمن بهم ومعهم في أي مورد أو مصدر، لأن من تشبه بقوم فهو منهم كما نص على ذلك الصادق المصدوق ﷺ[1] ولأنه لا يتشبه أحد بهم في الظاهر إلا بعد ما يلتقي معهم في الباطن، من حبهم أو الركون إليهم، أو حب شيء من طرائقهم التي يبثون الدعايات في تحسينها على أيدي عملائهم، فالله سبحانه يذكر المؤمنين بمصير الكفار المحتوم من العذاب الأليم ليبتعد عنهم حتى لا يصيبه كِفلٌ من عذابهم والعياذ بالله.

(فوائد): من قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾.

(أحدها): أن الله سبحانه اختص أمة الإجابة المحمدية بنداء الكرامة، ولقب التشريف في ثمانية وثمانين موضعاً في القرآن تكريماً لهم وتشريفاً،

---

(١) نص الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رسول الله ﷺ: « **من تشبه بقوم فهو منهم** » رواه أبو داود برقم/٤٠٣١/ وأحمد في المسند كجزء من حديث طويل برقم/٥١١٤/ واسناده حسن، وابن ماجة برقم/٣٦٠٦/ في اللباس، باب من لبس شهرة من الثياب وقد حسنه المنذري وغيره، وصححه الألباني في الإرواء/١٢٦٩/ وفي حجاب المرأة المسلمة ص ١٠٤.

وحثاً لهم على المسارعة بالامتثال، ولم يخاطب اليهود في التوراة إلا بنداء المسكنة، لتكون عاقبتهم المضروبة عليهم، وأما هذه الأمة فموجب ندائها بالإيمان يستلزم الأمان من العذاب فلله الحمد والمنة.

(ثانيها): كلمة (راعنا) مفاعلة من الرعي بين اثنين، فكأن هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين كأنهم قالوا: أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا فناهم الله لأجل ذلك، وأيضاً ففي قول (راعنا) خطأ لأنه يشعر بالاستعلاء، كأنه يقول: (راعِ كلامي ولا تغفل عنه ولا تشتغل بغيره) وهذا من أوضح الفروق بين هاتين الكلمتين المترادفتين التي منعنا في أحدهما وأمرنا بالأخرى وهما: (راعنا وانظرنا).

(ثالثها): أن كلمة (راعنا) على وزن (عاطنا) من المعاطاة. و(رامنا) من المراماة ثم أنهم قلبوا هذه النون إلى النون الأصلية وجعلوها كلمة مشتقة من الرعونة التي هي الحمق، فالراعن اسم فاعل من الرعونة كأنهم أرادوا به المصدر فيكون قولهم (راعنا) أي فعلت رعونة، ويحتمل أنهم أرادوا به صرت راعناً أي صرت ذا رعونة، فحقاً لما قصد اليهود هذه الوجوه الفاسدة نهى الله المسلمين عن استعمال هذه الكلمة.

وقال قطرب: هذه الكلمة وإن كانت صحيحة، فإن أهل الحجاز لا يستعملونها إلا عند الهزء والسخرية، فلا جرم أن منع الله منها.

(رابعها): أن المسلمين كانوا إذا تلا عليهم رسول الله عليه الصلاة والسلام شيئاً من العلم قالوا: راعنا يا رسول الله، أي تمهل، وكان عند اليهود بالعبرانية كلمة تشبهها تحمل السب فاستعملوها، وهي راعنا وراعينا، فنهى الله المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة للالتباس.

ويدل على هذا قوله سبحانه عن اليهود في سورة النساء: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[1] يقصدون بكلمة راعنا (اسمع لا سمعت) وفي الحقيقة أن خبثهم عميق.

---

(١) سورة النساء، آية ٤٦.

(**خامسها**): قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ فيه وجوه:

(**الأول**): أنه من نظره أي انتظره كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾[1] فأمرهم سبحانه أن يسألوه الإمهال لينقلوا عنه. فلا يحتاجوا إلى الاستعاذة فإن قيل- هل كان النبي ﷺ يعجل عليهم حتى يقولوا هذا، فالجواب من وجهين:

(**أحدهما**): أن هذه اللفظة قد تقال في خلال الكلام وإن لم يكن فيه عجلة تحوج إلى ذلك، كقول الرجل في خلال حديثه اسمع أو سمعت.

(**ثانيهما**): أنهم فسروا قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[2] أنه عليه الصلاة والسلام كان يعجل قول ما يلقيه إليه جبريل حرصاً على تحصيل الوحي وأخذ القرآن فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ فلا يبعد أن يعجل فيما يحدث به أصحابه من أمر الدين حرصاً على تعجيل إفهامهم فكانوا يسألونه في تلك الحال الإمهال فيما يخاطبهم به حتى يفهموه.

و (**الثاني**): أن (انظرنا) معناه انظر إلينا إلا أنه حذف حرف (إلى) كما في قوله ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾[3] والمعنى من قومه والمقصود أن المعلم إذا نظر إلى المتعلم كان إيراده للكلام على طريقة الإفهام والتعريف أظهر وأقوى.

و (**الثالث**): أن أبيّ بن كعب قرأ (انظرنا) من النظرة، أي أمهلنا والله أعلم.

(**سادسها**): إنما كان عدم الإصغاء بكل احترام لما يقوله النبي ﷺ كفر لأنه يتكلم عن الله سبحانه. والسعادة لمن يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به

---

(١) سورة الحديد، آية ١٣.

(٢) سورة القيامة، آية ١٦.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٥٥.

بالأدب. ويسأل عما لا يفهمه بالأدب ومن فاتته هذه السعادة نال الشقاء السرمدي. الذي لا مثيل له. والعياذ بالله. فمخاطبة محمد ﷺ مخاطبة الأكفاء والنظراء. مجاوزة للكفر. ومعنى هذه المجاوزة: أن سوء الأدب الذي حكاه الله عن اليهود في سورة النساء بقوله: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

فمثل هذه الألفاظ التي توعد الله اليهود عليها. وحكم بكفرهم بسببها. إذا صدرت من المؤمنين بغير قصد حسن وتأويل صحيح. فإنها خارجة عن حدود الأدب الواجب أمام النبي ﷺ وورثته من العلماء العاملين الصادقين. فإذا شابها شيء من الاستهزاء ونحوه. صارت كفراً.

(سابعها): لا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل. يقل اهتمامه له. وتزول هيبته من نفسه حتى تقل استفادته منه أو يكون محروماً من علمه. لأن المدار في التربية الدراسية على الاحترام وحسن التأسي والقدوة. وأي شخص تراه في المعلومات مثلك أو أقل. فإنك لا ترتضيه إماماً وقدوة. أما من رأيته فوقك في العلم والكمال. فإنك ترغب في إمامته وأخذ العلم عنه. وحينئذ لا بد من احترامه. فكيف إذا كان المعلم سيد المرسلين ﷺ. ولذلك نهى الله الصحابة عن التكلم بلفظة (راعنا) إجلالاً لمقام النبوة. لئلا يجرهم الأنس به والطمع بكرم أخلاقه إلى تعدّي حدود الأدب الواجب معه الذي لا تكمل التربية إلا بكماله. كما نهاهم فوق ذلك عن رفع أصواتهم فوق صوته الشريف. والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض. محذراً لهم من حبوط أعمالهم. والعياذ بالله.

---

(١) سورة النساء. آية ٤٦.

(ثامنها): ينبغي للمسلمين المؤمنين أن يرتعوا في رياض الجنة التي هي حَلَقُ الذكر، ويجب عليهم الإنصات خصوصاً لاستماع القرآن ولكتب الأحاديث الصحيحة التي هي الوحي الثاني مما أوتي محمد ﷺ، ويشرع لهم حسن الأدب والخشوع والبكاء والتباكي، وإجلال حامل العلم القائم برسالة الله والموزع لهداية الله، فإنه ومثله من ورثة الأنبياء عامة، وورثة المصطفى ﷺ خاصة، وليس كل عالم يحسب من ورثة الأنبياء خصوصاً المعطل لرسالة الله، الذي لا يتجول لنشر الدين ذات اليمين وذات الشمال في سبيل الله لا يريد لقباً ولا وظيفة، وإن سنحت له وظيفة يستعين بها على أداء واجب الله، ولا تخرسه عن الصراحة بملة إبراهيم، فليس فيها عيب ولا بأس.

قال الإمام محمد عبده: (إنهم يلغطون في مجالس القرآن فلا يستمعون ولا ينصتون ومن أنصت فإنما لأجل الطرب بالصوت، والالتذاذ بتوقيع نغمات القارىء، وأنهم يقولون في استحسان ذلك ما يقولونه في مجالس الغناء، ويهتزون للتلاوة ويصوّتون بأصوات مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق) أهـ.

وذلك لأن أدمغتهم قد ألفت الغناء.

وقوله سبحانه: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

يكشف الله سبحانه في هذه الآية للمسلمين المؤمنين عما تكنه صدور اليهود وأذنابهم من المشركين على اختلاف أنواعهم من الشر والمعاداة، وما تحمله قلوبهم من الحقد والحسد والغيظ، بحيث ما يودون أن ينزل الله على المسلمين أي خير، سواء كان هداية، أو كان نصراً، أو مغنماً.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٠٥.

فهم حريصون على الوقوف في وجه ذلك، والحيلولة بينه وبين المسلمين.

ومن عظيم رحمة الله بنا تشخيصه لأعدائنا، كي نحذر منهم ولا نطمع بهم خيراً، أو نرجو منهم خيـراً. فإنه سبحانه في كل موقع يذكر مكر اليهود بنا، أو حسدهم لنا، أو طمعهم في إضلالنا، أو شدة عداوتهم لنا. فإنه يقرن معهم المشركين على الإطلاق، ليعم جميع أنواع المشركين. حيث أنهم كلهم من نتاج اليهود قديماً وحديثاً.

فالمشركون بشتى أنواعهم قديماً وحديثاً، لا يكفون عن عدائهم للمسلمين والمكر بهم، آخذين بخلق وتوجيهات أسيادهم اليهود.

ولكن معاداتهم هذه هي معاداة الله سبحانه، ومن كان معادياً لله. فلا بد من خذلانه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

فمشيئته سبحانه هي النافذة لا مشيئة غيره، فقد اختص بني إسماعيل على يد نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام رغماً على بني إسرائيل وأذنابهم من كل مشرك في ماضي الزمان وحاضره.

لذا فإنه يجب على المسلمين أن يشكروا الله على هذه النعمة التي خصهم بها، شكراً عملياً، وذلك بالقيام بهذه الرسالة وتوزيع أنوار الهداية المحمدية ليكونوا أمناء لله على رسالة محمد ﷺ ويسدوا الطريق على غيرهم - وذلك بالاحتراز من مكر اليهود وأذنابهم من المشركين، وعدم التخلق بأخلاقهم، وعدم السير في مخططاتهم، وأن يلتزموا كل الالتزام بمنهج الله سبحانه وتعالى، ليتم الله لهم فضله، وينجز لهم وعده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

وفي ذلك إشعار بعظم الخير الذي حبانا الله إياه، وأي خير ونعمة أعظم من نعمة النبوة والرسالة؟ وأي خير ونعمة أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه؟

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(1).

يخبرنا الله سبحانه في الآية الأولى من هاتين الآيتين عن دفائن النفوس اللئيمة لبني إسرائيل الذين جعلوا من دينهم عصبية جنسية لهم تقوم على أساسه منافعهم الشخصية وأغراضهم الأنانية. إنهم لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض عهوده بغياً وحسداً له ولقومه على نعمة الرسالة والنبوة. بل هم يزيدون على ذلك بما قصه الله علينا في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾: فهذا بيان من الله لما يضمرونه وما تخفيه صدورهم للمسلمين من الحقد اللئيم والحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها السؤدد والسعادة في الدارين. ولكن لما شق عليهم اتباعهم تمنوا حرمانهم هذه النعمة وأن يرجعوا كفاراً كما كانوا من قبل رغبة منهم في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرين.

وهذا شأن الحاسد، يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم يصل إليه شيء منها. فالحسد الكمين في صدور اليهود هو ذلك الانفعال الخسيس الذي فاضت به نفوسهم ضد الإسلام والمسلمين. وهو الذي تنبعث منه جميع دسائسهم ومؤامراتهم وتدميراتهم، وهو السبب الكامن وراء كل فتنة يقيمونها. ومما يعمق ذلك الحسد في صدورهم من قديم الزمان استيقانهم بأن التمسك بهذه الرسالة والزاحف بها في ربوع الأرض يكون له الحول والطول وينال السيادة من الله، ليس عليهم فقط، بل على جميع الناس. فما داموا مستيقنين أنهم سيدخلون تحت سلطانهم، فكيف لا يحسدونهم على ذلك؟ وكيف لا يعملون جميع ما في وسعهم للحيلولة دون ذلك؟ ولكن الله غالب على أمره.

وقد جاء هذا التنبيه من الله العليم الحكيم تتمة لقوله في الآية السابقة

(1) سورة البقرة الآيتان ١٠٩ - ١١٠.

(١٠٥) من البقرة: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وبين الله لعباده المؤمنين ما كان من تحايلهم على التشكيك، تشكيك المسلمين في دينهم بشتى الوسائل والأساليب، حتى إنهم يأمرون بعض اليهود بالإيمان في أول النهار بالإسلام، والكفر في آخره، ليقوموا بعملية ترسيبية ملعونة سنأتي على ذكرها في موضعها. وهذه من أخبث الخطط وألعنها وأخطرها على المجتمع الإسلامي الناشيء الحديث ولكن الله تولى هداية الأمة، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[1].

وفائدة هذه التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يلقيه أهل الكتاب من اليهود وأذيالهم النصارى من الشبهات على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو من مكرهم السيء الذي مبعثه الحسد والحقد، ليس النصح الذي مبعثه الاعتقاد. ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ليوضح لعباده المؤمنين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو عن خبث النفوس ولؤم الطباع وفساد الأخلاق والتمادي في الباطل إصراراً وعناداً. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: فالحق عندهم ظاهر متبين أنه مع محمد ﷺ ومع أصحابه وهم يعرفونه بكل وضوح، لكنهم عادوه عداءً صريحاً لما صدر على غير أيديهم وحسدوا أهله بكل وقاحة بعدما تبين لهم الحق بالآيات التي جاء بها النبي مطابقة لما في بشارات التوراة به.

فالقرآن الكريم يكشف للمسلمين نفسية أعدائهم ليعرفوها ولا يطمعوا منهم بخلافها. ويعرفوا السبب الكامن وراء كل عمل شنيع يقومون به فلا يستعظمونه بل يستعدون لمقابلة ما هو أشد منه، لأن العدو لا ينقلب صديقاً وعدوك في الدين والعقيدة لا يمكن أن يلتقي معك على مودة، ولكن على منفعة يهتبلها لمصلحة عقيدته والإضرار بعقيدتك، فهو دائماً يهدف إلى ذلك ومع هذا اقتضت حكمة الله أن لا نقابل حسدهم بحسد، ولا غيظهم بغيظ

---

(١) سورة النساء، آية ٤٥.

ولا لؤمهم بلؤم، ولا شرهم بشر، بل نرتفع عن جميع ذلك، ملتزمين ما أمرنا مولانا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ ولم يخصصهم بهذه المعاملة الحسنة، فلم يقل (اعفوا عنهم واصفحوا عنهم) وإنما أتى بها للعموم لنعامل جميع الناس بالصفح والعفو اللائق بمقام المؤمنين وشرفهم، و (العفو) ترك العقوبة، و(الصفح) الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه.

ثم قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾ فجعل العفو والصفح مقيداً بغاية محدودة وهي إتيان أمره بالجهاد الذي يزلزلهم ويجتاحهم، وفي أمره سبحانه للمؤمنين بالعفو والصفح إيذان من الله بأن المؤمنين هم الأقوياء وإن قلوا، وأن خصومهم الضعفاء وإن كثروا، لأن العفو والصفح لا يطلب إلا من القوي القادر، فكأنه يقول لهم: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق الذي تؤيدكم به العناية الإلهية. فعاملوهم معاملة القوي العادل للضعيف الجاهل، وفي إنزال الله المؤمنين على ضعفهم منزلة الأقوياء، ووضع اليهود على كثرتهم موضع الضعفاء إعلام إلهي دائم بأن أهل الحق هم المؤيدون بعزته وحصانته سبحانه وتعالى، وأن لهم العزة في كل زمان ومكان ما داموا ثابتين على الحق.

ومهما يتصارع الحق والباطل فالغلبة للحق بإذن الله، والباطل هو المصروع ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾[1] وإنما بقاء الباطل وجولانه عند غفلة أهل الحق عنه، ولذا أحالهم الله على قدرته التي لا يعجزها شيء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2] فقدرته النافذة التي لا يشذ عنها شيء في العالمين هي التي يكون فيها التأييد للحق.

وليعلم أن أوائل اليهود يودون لو ارتد المسلمون وصاروا كفاراً كما

---

(١) سورة محمد، آية ١١.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٠.

حكى الله عنهم، ولكن أواخرهم في هذا الزمان عملوا على تخطيط ردة جديدة وجاهلية جديدة مصطبغة بشتى الأسماء والألقاب من قومية وبعثية واشتراكية وشيوعية وإباحية ووجودية تمثل التعري والحيوانية، وفرعونية تمثل ألواناً من ضروب الوثنية وعبادة الأشخاص، ولكل مذهب دعاة بتحضيض من اليهود وعملاء اليهود وتمويل سخي خفي فيه من الإغراء ما ليس له مثيل.

لقد خططت الماسونية اليهودية خطوطاً عريضة نفذ غالبها الاستعمار وخلفاؤه الذين يتبجحون بطرده وشتمه إفكاً وزوراً، خطوطاً عريضة بعيدة المدى لتفتيت العقيدة وإفساد الأخلاق وإخراب الضمائر حتى كسبوا من شباب الأمة من يتنكر لدينه وأمجاده وتاريخه، ويعتز بالفراعنة وما خلفوه مما هو نتيجة تسخير الشعب البائس وإحماء ظهوره بالسياط ليحمل الأثقال، ويبني الأهرام بعرقه المتصبب، وعضلاته الملهبة بضرب السياط، وإلا فلم يذكر تاريخهم أنهم رصدوا له كذا وكذا من آلاف الملايين، ولا أنهم صنعوا ما يريح الشعب من الآلات الحاملة للأثقال، بل على العكس من ظهور الشعب وعرقه. وللعجب أن الذين أوقف الله عليهم اللعنة يوجد من أبناء المسلمين من يقدسونهم نتيجة للردة الجديدة والعياذ بالله.

ومن مكر اليهود وحسدهم ما ذكره المفسرون أن فنحاص بن عازورا وزيد بن قيس ونفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أُحد: ألم تروا ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً. فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: إني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ. وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً. ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه. فقال: «**أصبتما خيراً وأفلحتما**». فنزلت هذه الآية: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ....**﴾.

وهنا فوائد:

١ - ورد في ذم الحسد أحاديث كثيرة نكتفي منها بقوله صلى الله عليه وسلم: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[1]. وبقوله صلى الله عليه وسلم: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة. لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[2].

٢ - حقيقة الحسد: وهي أنه إذا أنعم الله على أحد بنعمة، فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد، وإن أردت لنفسك مثلها فهذا هو الغبطة والمنافسة. أما الأول فحرام على كل حال إلا نعمة أصابها فاجر يستعين بها على الشر والفساد فلا يضرك محبتك لزوالها فإنك ما أحببت زوالها إلا من أجل فجوره وفساده.

٣ - مراتب الحسد: وهي أربعة:

(الأولى): أن يحب زوال تلك النعمة عن المحسود وإن كان ذلك لا يحصل له. وهذا غاية خبث الحسد.

(الثانية): أن يحب زوال تلك النعمة إليه وأن تكون له لا للمحسود.

(الثالثة): أن يشتهي لنفسه مثلها ولا يشتهي زوالها عنه بادىء الأمر، لكن إذا لم يحصل له مطلوبه حسده وتمنى زوالها عنه.

(الرابعة): أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم يحصل فلا يحب زوالها، وهذا معفو عنه. والثالث بين الذم والمدح، والثاني على خطر، والأول هو المذموم الخطير.

---

(١) رواه ابن ماجة برقم /٤٢١٠/ في الزهد، من حديث أنس بن مالك. ورواه أيضاً أبو داود برقم/٤٩٠٣/ في الأدب. باب في الحسد من حديث أبي هريرة بلفظ (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل. الخ) والحديث يرتقي لدرجة الحسن بالشواهد.

(٢) حديث حسن رواه أحمد (١/١٦٥) والترمذي في صفة القيامة باب رقم (٥٦) من حديث أبي هريرة ورواه أيضاً من حديث الزبير بن العوام.

٤ - ذكر العلماء للحسد سبعة أسباب:

(أحدها): العداوة والبغضاء، سواء كان عدواناً أو بسبب إيذاء.

(ثانيها): أن ينال أحد منصباً عالياً يرتفع عليه به وهو لا يتحمل فيحسده ويريد زوال ذلك عنه، وقد يسعى بقدرته لذلك.

(ثالثها): أن يكون من طبيعته استخدام غيره، فيريد زوال النعمة عمن يرغب استخدامهم.

(رابعها): التعجب كما حكى الله عن أعداء الرسل أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[1]... ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[2]... ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3] الخ.

(خامسها): الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بالمتزاحمين على مقصود واحد أو صنعة واحدة، فإن كل واحد منهما يحسد صاحبه على كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، وفي هذا الباب، تحاسد الضرات والإخوة في نيل المنزلة عند الوالدين ونحو ذلك.

(سادسها): حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه كالذي يكون عديم النظير في فن من الفنون أو نوع من الملك والسلطان، فإذا سمع بنظير له ولو بعيداً عنه ساءه ذلك وأحب هلاكه وزوال نعمته أو سلطانه.

(سابعها): شح النفس بالخير على عباد الله، وهذا أكثر أنواع الحسد.

٥ - سبب كثرة الحسد وقلته وقوته وضعفه في الأمكنة. وقد حكى العلماء أسباباً من أرجحها ما يؤيده الحسن، وهو بروز المنافسة لبروز النعمة، وبروز العمل والفن، وغير ذلك. ولهذا نجد الحسد منتشراً في

---

(١) سورة يس. آية ١٥.

(٢) سورة المؤمنون. آية ٤٧.

(٣) سورة الإسراء، آية ٩٤.

القرى الصغار التي يبرز فيها أدنى شيء للعيان فتكثر الغبطة ويقوى الحسد، بخلاف المدن الكبار، فإن الأعمال فيها كثيرة والحركات واسعة والمسافات شاسعة، وكل ذي فن من الفنون مشغول عن منافسه ولا يدري عنه، وكل تاجر منشغل بتجارته، غارق بأعماله عن ملاحظة من سواه، وهكذا سائر الناس في المدن كل منهمك في عمله، منشغل عما سواه، لا يتطلع إلى غيره لانهماكه في عمله وانشغاله، عكس القرى، فإن صاحبها يحصي ذرات منافسه، فأهل القرى دائماً عيون بعضهم لبعض، ولهذا يكثر الحسد ينتشر في القرى انتشاراً فظيعاً، ويقل ويتضاءل جداً في المدن والأمصار لانشغال كل منهم بعمله.

٦ - في العلاج المزيل للحسد: وهذا من جانبين:

(أولاً): من جانب الحاسد: فينبغي له أن يعلم أن من لوازم صحة إيمانه بالله هو الرضى بالقضاء وأنه بحسده لأحد من عباده لا يكون راضياً بقضائه، بل يكون ساخطاً لحكمه وقضائه، ومنازعاً له في قسمته التي قسمها لعباده، وعدله الذي أقامه بينهم بخفي حكمته التي قد لا تظهر لكثير من الناس. والمنازعة جناية تقدح في أصل التوحيد والإيمان.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فعلى الحاسد أن يعلم أنه إذا غش مؤمناً لأجل الحسد خرج من صفة المؤمنين الذين يحبون لإخوانهم الخير، وشارك إبليس وجميع الكافرين في محبتهم الشر للمؤمنين، ومن جهة ثالثة فإنه إذا عادى مؤمناً لأجل الحسد كان مبارزاً لله بالمحاربة، لأن المؤمن من أولياء الله ولو كان فيه ما فيه، إذ لا تشترط العصمة في أولياء الله، ومن جهة رابعة يجب عليه أن يتذكر عقاب الله العظيم للحاسد في الآخرة.

ومن جهة خامسة يجب عليه أن يرحم نفسه ويرثي لها من آثار الحسد من الهموم والغموم والكمد الذي لا يفارق قلبه وصدره مما قد ينقلب عليه مرضاً عضالاً. وكثيراً من الحساد قتلهم الحسد خصوصاً على الرئاسة والجاه. فإذا علم الحاسد واستيقن أن الضرر عليه في دينه ودنياه، وأن حسده لا

يضر محسوده، بل يضره هو، فقد يقلع عن الحسد ويسلم صدره منه، فيسلم له دينه وتسلم له صحته حيث يسلم من الوساوس والمنغصات والهموم والغموم المؤذية بالصحة والعياذ بالله.

ومن جهة سادسة يجب على الحاسد أن يستيقن أن المحسود لا يضره حسده أبداً لا في الدين ولا في الدنيا، لأنه تتتابع عليه النعمة والإقبال إلى الأجل المقدر لها، ولكل أجل كتاب، ولا تزول نعمته بالحسد، بل تزيد نعمته وأجره، والمحسود ينتفع بحسد الحاسد في الدنيا والآخرة، بل في الدين والدنيا. أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهة الحاسد، خصوصاً إذا أخرجه الحسد إلى الغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكره ومساوئه، فهي هدايا يهديها الله إليه على يد حاسده فتزداد حسناته وتقل سيئاته، ولا يزال المحسود يزداد منفعة من الحاسد رغماً عنه، فإذا استيقن الحاسد ذلك عرف أنه هو الخاسر دون المحسود، فأقلع عن حسده وتاب إلى ربه.

هذا علاج الحاسد، أما علاج المحسود فبعدة أمور:

(أحدها): الاستعاذة الصادقة بالله من شر حاسد إذا حسد، ومن استعاذ بالله صادقاً لاجئاً أعاذه.

(ثانيها): تقوى الله وحفظه في حدوده، كما قال ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**»[1].

(ثالثها): التوبة الصادقة من الذنوب التي من أضرارها تسليط الحاسد.

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه الإمام أحمد في المسند برقم /٢٦٦٩/ والترمذي برقم/٢٥١٨/ في صفة القيامة، باب رقم/٦٠/ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة ابنه علي ومولاه عكرمة، وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار وعبيد الله ابن عبد الله وابن أبي مليكة وغيرهم. وقد جمع الحافظ ابن رجب هذه الطرق وشرحه شرحاً وافياً فليراجع لكثرة فوائده.

(رابعها): الصبر على عدوه وأن لا يشاوره ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، بل يستعين بالله.

(خامسها): قوة التوكل على الله والتحصن بملازمة ذكره.

(سادسها): فراغ القلب من الاشتغال بالحاسد والتفكر به، بل يقتلعه من قلبه ولسانه، ويجعله نسياً منسياً، فيمحوه من قلبه ولا يخاف منه ولا يطرأ له على بال.

(سابعها): الإقبال على الله بقوة محبته والإخلاص له والإنابة إليه والضراعة إليه وحده.

(ثامنها): الصدقة والإحسان العام غاية الإمكان، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلايا والكربات عموماً.

(تاسعها): الإحسان إلى الحاسد ومهاداته بما يطفىء حسده المتقد في صدره وهذا شاق على النفوس والله المستعان.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بعد أن أمر الله عباده المؤمنين بالعفو والصفح عن أعدائهم في الدين، وأقامهم سبحانه بذلك مقام القادر العزيز، ليرفع من نفوسهم، ويقوي من معنوياتهم، ثم أمرهم بعد ذلك بإقامة الصلاة لما فيها من التوثيق لعرى الإيمان، وإعلاء للهمة، ورفعة للنفس بمناجاة الله، وتآلف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها في المساجد، ولما فيها من تنزيه النفس عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فتكون بذلك أقوى نفاذاً في الحق وجديرة بالنصر.

هذا وإن إقامة الصلاة ليست أداءها مطلقاً، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية، وذلك بصدق التوجه إلى الله بحضور القلب واستشعاره عظمة الله وجلاله.

وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ فيه تعظيم لشأنها لما فيها من توكيد الصلة بين الأغنياء والفقراء، فتتحقق بذلك وحدة الأمة وصلاحها وفلاحها

وتكاتفها، وتكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم لألمه باقي الأعضاء جميعها.

وقد جرت كلمة الله في القرآن الكريم أن يقرن الزكاة بالصلاة، وذلك لأنهما صنوان في الإصلاح، فالصلاة فيها من إصلاح حال الفرد ما الله به عليم، والزكاة فيها من إصلاح حال المجتمع ما الله به عليم، فبذل الزكاة وقاية من الشح والبخل.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

لذا فإن من جاد بها وبذلها سهل عليه بذل نفسه في سبيل الله، لأن نفسه قد طهرت من الشح بفضل بذل الزكاة.

وبالإضافة إلى أن هذين الركنين من أسباب النصر في الدنيا، فإنهما من أسباب السعادة في الآخرة أيضاً، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] أي تجدوا جزاءه عند ربكم في يوم لا يظلم فيه مثقال ذرة.

وهذا الوعد من الله سبحانه بالجزاء على العمل من شأنه أن يبعث عند المؤمن اندفاعاً نحو الخير والإحسان.

قال الإمام ابن جرير: «وإنما أمرهم الله جل ثناؤه في هذا الموضع بما أمرهم به من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتقديم الخيرات لأنفسهم ليطهروا بذلك الخطأ الذي سلف منهم».

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه منه شيء فتخافون أن ينقصكم من أجوركم شيئاً.

وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً، حتى يجد الناس في طاعته.

---

(١) سورة الحشر. آية ٩.
(٢) سورة البقرة. آية ١١٠.

الجنّة ليست لكافر

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

يخبر الله المؤمنين في هذه الآيات عن تخليط اليهود وإلقائهم الشبهات على المؤمنين لزعزعة عقيدتهم، بزعمهم أنهم هم المهتدون وحدهم، وأن الجنة وقف عليهم، مفنداً هذا ومبيناً للقاعدة العامة التي كررها وأعادها في مواضع من القرآن.

وفي الآية الأولى اختصار بديع، إذ أن معناها: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى.

وهذه هي عقيدة الفريقين إلى اليوم، ولا ينافي انسحاب حكمها على الآخرين أن نفراً من الأولين قالوا ذلك بين يدي النبي ﷺ.

وقد بين الله سبحانه لنا أن هذا القول ليس لهم به حجة في كتبهم المنزلة من عنده، وأنها مجرد أماني منشؤها الافتراء على الله، وإلا فالتوراة

(١) سورة البقرة، الآيتان ١١١ - ١١٢.

توجب الإيمان بعيسى والإنجيل، وكذلك الإنجيل يوجب الإيمان بموسى وبالتوراة.

وإذا كانا كذلك فمن أين لهم الحجة على احتكار كل فريق الجنة لنفسه دون غيره، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم، فقد طالبهم الله بالبرهان على دعواهم ليقرر لعباده المؤمنين قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية، وهي: أنه لا يقبل من أحد قولاً إلا بدليل، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، وكل ما لا دليل عليه ولا برهان فهو قول مرفوض، ودعوى باطلة من الأساس.

ثم إنه سبحانه وتعالى رد على كل من اليهود والنصارى برد قاطع، وذلك بإثبات قاعدة دينية عامة فقال ﴿بَلَىٰ﴾، وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ يعني (بلى) إنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى.

لأن رحمة الله ليست موقوفة على شعب دون شعب، أو أمة دون أمة، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، والذي أوضحه بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

يعني أخلص اتجاهه لله، وكذا مقاصده وأعماله، ولم يسلم وجهه لغير الله، فكانت أعماله على وفق شريعة الله أولاً، وخالصة لوجهه ثانياً.

ثم إنه سبحانه بعدما أثبت لهذا النوع من المؤمنين أجره نفى عنه ما يرهق الكافرين من الخوف والحزن، وما يرهق المذنبين، فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٣.

ذكر الله سبحانه في الآية (١١) تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه، وحكمه بحرمان غيره من رحمة الله، حيث حكم كل فريق بأن الجنة وقف عليه.

والآن ذكر الله لنا طعن كل فريق منهم بالآخر خاصة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الدين الحقيقي الذي يعتد به.

فاليهود القائلون هذه المقالة قد كفروا بعيسى - عليه السلام - الذي بشرتهم به التوراة، فانظر تناقضهم مع أنفسهم، فإنهم ليسوا على شيء، لكفرهم بعيسى وإنكارهم حقيقته.

وهكذا فإن النصارى قابلوهم بالطعن، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي من الدين الحقيقي الذي يعتد به لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم.

فكل فريق ينفي الدين بتاتاً عن الفريق الآخر ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

يعني كل فريق منهم يتلو كتابه المنزل عليه بواسطة نبيه.

فكتاب اليهود - التوراة - يبشر بنبي منهم، وهو عيسى، فلم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم.

وكتاب النصارى - الإنجيل - يقول بلسان المسيح: إنه جاء متمماً لناموس موسى، وليس ناقضاً له، وهم قد نقضوه.

فدينهم في الكذب واحد، إذ أن كلاً منهم آمن ببعض الكتاب، وكفر ببعض، فهم في الكفر سواء.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من مشركي العرب الجهال وغيرهم من أهل الملل الجاهلية.

﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ من تعصّب كل لملته الفاسدة التي جعلها جنسية يعتز

بها. وزعم أنها المنجية لمن رسمها ورضي باسمها ولقبها، وأما غيرها فليس على شيء.

ولكن الحق فوق كل هذه المزاعم، فلا يتقيد بأسماء ولا ألقاب، وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح لا تشوبه شائبة.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1]

لأنه العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل، ولم يبين لنا هنا طريقة حكمه، ولكنه بينها في سورة الأنفال بقوله: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٣.

(٢) سورة الأنفال، آية ٣٧.

سعيهم في خراب المساجد

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

ذكر الله هذه الآية ضمن الآيات التي يتكلم بها عن بني إسرائيل. لأن الاجتراء على حرمة المساجد والسعي في خرابها خراباً معنوياً هو من أعمال اليهود غير المباشرة، فهم الذين يسعون بالدس تارة والتعليم التركيزي تارة. على منع ذكر الله ذكراً تاماً حسبما يقتضيه مدلول (لا إله إلا الله) وعلى التخريب المعنوي للمساجد. فالوثنيون في عهد النبوة الذين يتلقون التعليم من يهود منعوا رسول الله ﷺ، ومنعوا أبا بكر من عمارة بيوت الله بالذكر والصلاة. والوثنيون العصريون الذين تلقوا ويتلقون تعاليمهم من اليهود على اختلاف مبادئهم ومذاهبهم وألقابهم، من شيوعية واشتراكية وبعثية وقومية علمانية وغيرها، كلهم يجنون على المساجد بجنايات مختلفة. منها ما يعمّ التخريب الحسي والمعنوي كما جرى في البلاد الشيوعية. ومنها ما يخص التخريب المعنوي كفرض الرقابة على المنابر. وأن لا يعلوها إلا من يريدون ممن يسترخص نفسه لهم.

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٤.

فإن من تعاليم اليهود الحديثة التخريب المعنوي للمساجد وبوسائل كثيرة مما خططوه. منها استيلاء الحكومة الغالبة على أوقاف المسلمين وصرف كثير من غلتها للإداريين الذين قد يكون بعضهم ليس من المسلمين. فيأخذون رواتب باهظة وهم لا يعرفون من الإدارة سوى ساعات محدودة ثم يغادرونها من الظهر إلى ضحى الغد. أما الأئمة للمساجد والمؤذنون المرتبطون بها ليل نهار والذين يرقبونها من فرض إلى فرض طيلة النهار والليل. فلهم رواتب زهيدة لا تساوي راتب المراسل والخادم أو الفراش في الإدارة. إنه راتب مضحك بل في بعض البلاد العربية ليس للجوامع خطيب سوى ما تؤجره الوزارة من الشارع بثمن بخس.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى يخرسون الخطيب الحر عن النطق بكلمة الحق. بل عن توضيح مدلول الشهادتين المستلزم للكفر بالطاغوت وبيان أحوال الطواغيت وأنواعهم. وبعضهم يسخر منابر المسلمين أبواقاً له يملي على أهلها الخطبة التي يريد أو يبتاع ضمير من يسترخص نفسه فيخطب بما يريدون وأزيد مما يريدون. كما حصل ممن يمدح المذاهب الشيوعية. ونحوها.

هذه نماذج مما خططته اليهود لخراب المساجد. وقد عملت قبل القرون الوسطى على إحداث القرامطة الذين خربوا المساجد تخريباً حسياً بالهدم والإهانة. حتى المسجد الحرام والكعبة المشرفة التي اقتلعوا الحجر الأسود منها. ودام بأيديهم مدة حتى اشتراه المسلمون. وقصته مشهورة. وكل هذا من جرائم اليهود. وقصة إحراق الأقصى وتدنيس الحرم الإبراهيمي آخر ما فعلوه في العصر الحديث.

ثم إن ههنا مسائل:

(أحدها): قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها. فالآية مشعرة بأن ظلمه من أعظم الظلم. ولكن ظلم الشرك أعظم منه. فيكون هذا الظلم مخصوصاً أو

يكون لا أحد أظلم بعد ظلم الشرك من ظلم الجاني على المساجد.

(ثانيها): ذكر المفسرون أو بعض المفسرين أسباباً لنزول هذه الآية لا يصح شيء منها. ومن أغربها ما حكاه ابن جرير رحمه الله من حادثة (بختنصر) البابلي. وما أجراه ببيت المقدس من الخراب زاعماً اتحاد النصارى معه في هذا الصنيع، مع أن حادثة (بختنصر) كانت قبل وجود المسيح والنصارى بست مائة وثلاث وثلاثين سنة. مع أنه رحمه الله من أكبر المؤرخين. فكيف غابت عنه. ولكن يعتذر عنه أن له في التفسير حالة غير حالته في التاريخ. وأنه يعتمد في التفسير على النقل فيما لا يتعلق به حكم شرعي. فإن الرواية التي لا ينبني عليها حكم شرعي يتساهلون فيها. وقد ذكرتها للتنبيه لا للنقد والله تعالى من وراء القصد.

وكما قلنا سابقاً إن السبب هو اليهود وهم الذين أغروا مشركي قريش عن الصد عن المسجد الحرام وأغروا بعدهم القرامطة ثم الصليبيين ثم أفراخهم في هذا الزمان من أصحاب المبادىء العصبية والمذاهب المادية مما فصلناه سابقاً. وهو بحمد الله واضح.

(ثالثها): كون الساعي في خراب المساجد، والمانع فيها من ذكر اسم الله بالمعنى الصحيح المنافي للطاغوت. هو من أظلم الناس بعد الشرك، لأن المنع من ذكره الذكر الصحيح الذي يشعر القلوب بعظمته وينتزع منها حب الطواغيت. هو انتهاك لحرمة الدين، يفضي إلى نسيان الناس من هو رقيب مهيمن عليهم. فيصيرون كالهمل، وتفشو فيهم المنكرات والفواحش وهضم الحقوق وسفك الدماء، لأن عبادة الله بطبيعتها تنهى عن ذلك، ولكن ما أفجر اليهود وأفراخهم النصارى، وتلاميذ أفراخهم، أو تلاميذ الجميع من أصحاب المبادىء العصيبة والمذاهب المادية الذين يقيمون حكماً علمانياً يتبجحون فيه بالحرية، حرية الفساد والإفساد.

فأما حرية الدين فلا، حيث قيدوا أهل المساجد بما يريدون، فلا يقدر أحد أن يشرح لجماعته التوحيد شرحاً وافياً صحيحاً حسب ملة إبراهيم من

الحب والولاء والبغض والبراء. ولا أن يقرأ الآيات الواردة في ذلك ويفسرها حتى على ظاهرها. فهذا يكون مشاغباً أو طائفياً أو غير ذلك مما لا نحب ذكره. فهذا من جملة الخراب المعنوي الذي هو أفتك من الخراب الحسي.

كما أن تقليل رواتب القائمين على المساجد من أنواع التخريب المعنوي لأنه يزهد فيها. فلا تنظف لقلة الراتب. ولا يؤذن فيها من هو جهوري الصوت حسنه، بل يؤذن فيها كل جاهل يكتفي بالراتب الزهيد. ولا يصلي فيها إلا محتسب. وإذا قل المحتسبون صلى فيها الجهلة الذين لا يحسنون القراءة. فتكون المساجد صورة مشوهة كما يريد اليهود وأذيالهم. .وأكثر الناس لا يعلمون. فينبغي التنبه إلى كل ما خطته الدول العلمانية والابتعاد عنه بدلاً من تقليده حتى لا يقع المسلمون في شيء من التخريب وهم لا يشعرون.

وقد توعد الله الذين يكبتون الدعاة ويمنعونهم من ذكره الصحيح وتوضيح توحيده وحق ملة إبراهيم في المساجد، والذين يسعون بخراب المساجد حسياً أو معنوياً. توعدهم الله أعظم الوعيد. ذكر أنه ما كان لهم أن يدخلوا المساجد إلا خائفين، سواء كانوا من المشركين أو من عصاة المسلمين أو المحسوبين عليهم. فالمشركون منعهم الله منعاً باتاً صريحاً. وأخبر أنهم نجس فلا يقربوا المسجد الحرام، فلا يدخله الكافر إلا وهو خائف يترقب. وعصاة المسلمين من المخربين لا يدخلون المساجد إلا وهم خائفون محرومون كأن المسجد ليس موقع عبادة وأمن. لأن ذنوبهم تخيفهم ومن غيرهم أولى بالخوف والحراسة.

ثم الوعيد الثاني الشديد من الله سبحانه بقوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١). أما خزي الدنيا

---

(١) سورة البقرة. آية ١١٤.

فهو عاقبة الظلم وشؤمه المحتوم. وهو أن يكون الحاكم الظالم للمساجد ولأهلها مخذولاً في حكمه. والمحتمل الظالم غير أمين في احتلاله. كما كانت عاقبة العرب المشركين ثم الصليبيين. وكما انقرض حزب القرامطة المجرمين وكل منهم مشيع بالخزي واللعنة. وأما عذاب الآخرة فيكفينا وصف الله بأنه عظيم. عظيم الهول. عظيم الإيلام. عظيم الحسرة. إلى غير ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

وهذه الآية الكريمة من بعض ما رد الله به على اليهود في جدلهم حين تحويل الكعبة. كما قاله ابن عباس. ويدل على صحته أنها في سرد الآيات التي هي بصدد اليهود. ولا شك أن اليهود أكثروا من جدلهم وروجوا ما يشغبون به على المسلمين. والقرآن في هذا المجال لا يرد عليهم سوى الرد المجمل. فتارة يقول: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢) وهنـــــا يقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾ يعني أنه سبحانه رب الجهات كلها. فقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾ أي قطر المشرق على اختلافه كل يوم وقطرا المغرب الذي تغرب فيه الشمس كل يوم من موضع لا تعود له في اليوم الثاني، وكذلك الشروق تشرق كل يوم من موضع لا تعود لشروقها فيه. وللمفسرين ثلاثة أقوال في سبب نزول هذه الآية:

(أحدها): أنها نزلت مطلقاً في النفل وحكمها باق. يتوجه المسافر المتنفل حيث وجهته راحلته. وفي الحضر عند التحري لا يعيد من أخطأ القبلة حتى في الفرض.

---

(١) سورة البقرة. آية ١١٥.

(٢) سورة البقرة. آية ١٤٢.

و(**ثانيها**): أنها من جملة الآيات الرادة على اليهود في كلامهم حول تحويل القبلة. فاقتصر الرد عليهم بأن لله ما بين قطري المشرق وما بين قطري المغرب له سبحانه ملكهما وتدبيرهما. فهما له ملكاً وخلقاً.

و (**ثالثها**): أنها نزلت على قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها. فصلوا على أنحاء مختلفة. فقال الله ما معناه: (لي المشارق والمغارب فأينما وليتم وجوهكم فهناك وجهي).

وقد أورد فيه الإمام أحمد حديثاً صحيحاً عن أبي الربيع السمان عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة سوداء فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه. فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقيل إنها نزلت في أمر النجاشي لما خاض المسلمون فيه. وأنه صلى إلى غير القبلة. فانزل الله هذه الآية.

وقد تكلم بعض العلماء في نسخها . وهل هي ناسخة أو منسوخة. والصحيح أنها محكمة لا منسوخة وأن حكمها باق في التنقل وفي السفر وفي مسابقة العدو. سواء في التطوع أو الفرض. قال بهذا ابن عمر وسعيد بن جبير وغيرهم. ولديهم في ذلك آثار.

وأما قوله سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا﴾ فالمراد به (حيثما). وأما قوله: ﴿تُوَلُّوا۟﴾ فالأولى بتأويله أن يكون (تولون أو تتوجهون إليه). وأما قوله ﴿فَثَمَّ﴾ بفتح الثاء المثلثة أي هنالك. وأما قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فأولاها بالتأويل قبلة

(١) انظر سبب نزول الآية عند الطبري في جامع البيان (٥٠٣/١). والحديث رواه البيهقي (١١/٢). والحاكم نحوه (٢٠٦/١). وفي سند الحديث أبي الربيع السمان (وهو الأشعث) وعاصم بن عبيد الله وكلاهما ضعيف.

الله . يعني وجهه الذي وجههم إليه . وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع يسع خلقه كلهم بالكفاية والأفضال والجود والتدبير، و (عليم) بالمتوجه إليه أينما كان . وبالمنصرف عنه . لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه من أعمال خلقه شيء .

وفي هذه الآية من سماحة ورفع الحرج عن الأمة ما ينبغي شكر الله عليه كما فيها إبطال لما عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن للعبادة هياكل ومواقع لا تصح بدونها ، وفيها إزالة لوهم من يتوهم من آية الوعيد على تخريب المساجد والمنع من ذكر الله فيها أنه لا تصح العبادة خارجها . فهذا وهم من الأوهام لا حقيقة له . فجاءت هذه الآية بعدها موضحة صحة العبادة في كل مكان وكل جهة ، وإنما الوعيد لانتهاك حرمات الله والجناية على حرية المسلمين في بيان عقيدتهم وتوضيحها .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

يخبر الله سبحانه عما قاله بعض اليهود وأغلب النصارى من فريتهم العظيمة. وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ووجه العموم في هذه الآية أن الله سبحانه أخبرنا في مواضع من كتابه أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وأن النصارى قالت: المسيح ابن الله، وأن المشركين قالوا: الملائكة بنات الله.

وقد أشار الله إلى النصارى أنهم يضاهون قول الذين كفروا من قبل، وهم البوذيون الزاعمون أن (بوذا) ابن الله. فهذا هو وجه العموم في هذه الآية من قوله سبحانه (وقالوا). ولا فرق في الأحكام التي تسند إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فإن مثل هذا الإسناد منبى كما أسلفنا بتكافل الأمم، لأن كل من يعلن إنكاره فهو داخل فيهم كما سبق في قصة أصحاب السبت.

(١) سورة البقرة، الآيتان ١١٦ - ١١٧.

وقد ثبت أن القائلين ببنوة العزير بعض اليهود لا كلهم، كذلك القول بأن الملائكة بنات الله، ليس قولاً لجميع مشركي العرب بل لبعضهم. ولكن كل من لم ينكر فهو مشارك. وقد رد الله على مدعي اتخاذ الولد، فقال ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ ومعناها التبرئة والتنزيه والمحاشاة من قولهم اتخذ الله ولداً. فكلمة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تفيد التنزيه مع التعجب مما ينافيه، كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر منه هذا القول الذي يشعر بأن له جنساً يماثله، تقدس الله عن ذلك، بل هو الله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾(١)، ولم يولد فيكون مسبوقاً جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً.

وقوله سبحانه: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيه أعظم الرد وأبلغه، يعني أن الذي له ما في السموات والأرض جميعه ملك له بالإيجاد والاختراع، ليس له حاجة في الولد، وهو مالك للجميع، كما قال في سورة مريم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾(٢)، وإنما تنزه الله عن الولد. لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، فكيف للحق سبحانه أن يتخذ ولداً من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء، وأيضاً فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث.

أما القدم فيقتضي الوحدانية والثبوت، فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ثم إن النبوة تنافي الرق والعبودية التي فرضها على من سواه، فكيف يكون ولد عبداً؟ هذا محال، وما أدى إلى المحال فهو محال. وقد قال تعالى في سورة مريم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ، لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

(١) سورة الأنعام، آية ١٠١.

(٢) سورة مريم، آية ٩٣.

وقال هنا: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ لعزته وجلاله، خاضعون لقهره، مسخرون لمشيئته، فهم قانتون مطيعون خاضعون، وما دام جميع ما في السموات والأرض ملك له، خاضع مطيع مسخر، فالولد المنسوب إليه لا يصلح أن يكون من العالم العلوي ولا من العالم السفلي، أي لا من الأرض ولا من السماء، حيث لا معنى لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه، فإنه سبحانه يختص من شاء بما شاء، كاختصاص الأنبياء بالوحي. ولكن هذا التخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلى مرتبة الخالق، وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأحسن من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة، إذ التفاوت بين الشمس والقمر، أظهر مثلاً من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه، وقالوا هو ابن الله، أو هو الله.

وقد عبر الله عن الملكية بحرف (ما) التي تستعمل فيما لا يعقل، وتعم في الخبر والاستفهام للعاقل وغيره، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بتسخيرها الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار.

وعبر سبحانه في ذكر القنوت بضمير العاقل، لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره، والرب العظيم الذي له ملك السموات والأرض، وكل خاضع لأمره، مسخر بمشيئته، ليس له حاجة إلى ولد أبداً. وقد أعظم الله فرية المدعي له ولد حيث قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[1].

ولهذا كان السلف الصالح لا ينظرون إلى النصراني بأعينهم، لشناعة افترائه على الله بزعمه الولد، ثم تجاوزه إلى الأقانيم الثلاثة.

---

(١) سورة مريم، الآيتان ٩٠ - ٩١.

والآن يوجد من المحسوبين على الإسلام والمتفيئين من فضل الإسلام وأهله ظلاً ظليلاً، من يزعم أخوة النصارى باسم العروبة، رامياً بملة إبراهيم عرض الحائط، فما أبعده عن الإسلام، وما أشد جريمة من يحميه، وهو منتحل هذه النحلة الهادمة لدين الله من الأساس، إن لباب الدين هو الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، ولو لأقرب قريب، فكيف بأبعد بعيد، وأخبث كافر، مفترٍ على الله، مغضب لله، جانٍ على وحي الله، ورسل الله؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف بلغ جهل المسلمين بحقيقة دينهم وعقيدتهم هذا المبلغ؟.

ثم إن الله سبحانه وتعالى زاد ما مضى بياناً وتأكيداً فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والبديع بمعنى المبدع، وبمعنى الفاطر: ﴿فاطر ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وبمعنى البارىء فإن هذه الألفاظ كلها مترادفة، تؤدي معنى واحداً، وهو أنه سبحانه تعالى الخالق البارىء المبدع الفاطر للسموات والأرض، يعني مخترعها على غير مثال سابق، ومن غير تركيب صناعي أو تكييف كيماوي، فإن الفرق العظيم بين خلق الله وخلق غيره أن غيره لا يبدع المادة ولا يخترعها، وإنما هو يتصرف في المواد التي خلقها الله وبثها، فيضيف هذه إلى هذه، ويجعل هذه تحمي هذه، وهذه تلصق بهذه، وهذه تحرك هذه، وهذه تتفاعل مع هذه، ترص هذه أو تدركها، إلى آخر ما يتصرف في الماديات.

أما الله سبحانه فهو الخالق البارىء الفاطر المبدع الذي يخلق أكبر شيء من لا شيء، أو من أتفه شيء، قد كوَّنه هو، لم يكوِّنه غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا..﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى يخلق الشيء من لا شيء، فهو بديع السموات

(١) سورة فصلت، الآيتان ١١ - ١٢.

والأرض خلقها من لا شيء، وأودع فيها وما بينها صنوف الماديات المختلفة التي خلقها من العدم بقدرته التي بين الكاف والنون.

وإذا كان سبحانه وتعالى هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لها من غير مثال سابق، وهو الموجه لجميع ما فيها، فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منها، على أنه جنس له؟ تعالى الله وتقدس عن ذلك علواً كبيراً.

كيف يصح نسبة الولد إليه؟ (و) هو الذي ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. ومعنى هذاأنه سبحانهإذا أراد إيجاد شيءوإحداثه، فإنما يأمره أن يكون موجوداً، فيكون موجوداً بدون ترتيب أو تصميم أو تشكيل، بل يكون حسب إرادته.

قال جمهور العلماء إن تعلق إرادته سبحانه بإيجاد الشيء يعقبه وجوده، فقوله قول حقيقي يقول للشيء (كن) فيكون، أي يوجد، وليس هذا من المتشابهات، كما قاله بعضهم، بل هو من الواضحات، لأن أمره سبحانه وتعالى على نوعين:

أمر التكوين الذي يعبر عنه الشيخ ابن تيمية بالأمر الكوني القدري.

وأمر التكليف الذي يسميه بالأمر الشرعي، فأمر التكوين الذي هو الأمر القدري الكوني، متعلق بصفة الإرادة، وأمر التكليف الذي هو الأمر الشرعي، متعلق بصفة الكلام، فالأمر الكوني يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود، لأن المعدوم، وإن كان معدوماً، فالله يعلمه قبل وجوده، وأنه سيوجد في وقت كذا فتتعلق إرادة الله بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد إذا شاء حسب ما شاء.

هذا شأنه سبحانه في الإيجاد والتكوين، وهو أغمض أسرار الألوهية، فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول: الله الخالق البارىء، فاطر السموات والأرض حقيقة وجوده.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٧.

وقد عبر الله عن هذا السر بهذا التعبير الذي فيه تقريب للأفهام، دون أن تتشعب الأوهام، ولا يوجد في الكلام تعبير أدق منه وأليق، وذلك بأنه سبحانه يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

فالتوالد محال في جانبه تعالى، لأن ما يعهد في حدوث بعض الأشياء وتولدها عن بعض، فهو لا يعدو طريقين:

أحدهما: الاستعداد القهري الذي لا مجال للاختيار فيه، كحدوث الحرارة من النور، وتولد العفونة من الماء، حسب الطبيعة التي ركبها الله في ذلك.

وثانيهما: السعي الاختياري، كتولد الناس والحيوان بالازدواج الذي جعله الله سبباً لبقاء النسل في الناس والحيوان، وما عدا هذا فالله مبدعه من العدم بحسب أمره الذي هو بين الكاف والنون.

فهو المبدع لجميع الكائنات من العدم المحض، وهي بأسرها ملك له، ومسخرة لإرادته سبحانه وتعالى، فلا معنى قطعاً لإضافة الولد إليه، ولذا اعتبره الله مسبة له، كما جاء في صحيح البخاري: عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «**كذّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً**»(١).

والحاصل أن الله الذي يوجد المعدوم بكلمة (كن) فيكون موجود كما يريده، لا يتقدم وجوده عن أمره، ولا يتأخر، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود من الله القادر العظيم، ليس محتاجاً إلى ولد ولا غيره، وجميع الدنيا ملك له سبحانه وتعالى، فاستشهد الله على نفي الولد بذلك مما تقبله الأفهام المستقيمة لأنه استدلال كوني رائع يردع المبطلين ويوقظ الغافلين.

---

(١) رواه البخاري (٩/٢٣٤) في تفسير سورة البقرة. باب وقالوا اتخذوا الله ولداً وهذا من الأحاديث القدسية.

عداء لئيم دائم

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(١).

يخبر الله رسوله عليه الصلاة والسلام، عن العلة الأصلية والعقيدة الدائمة المنعقدة، التي لا يزيلها برهان قاطع، ولا إقناع نافع، لدى اليهود والنصارى، الذين جعلوا عقيدتهم جنسية افترضوها، ويريدون فرضها، فلا يرضون من النبي ﷺ ولا أتباعه حتى يتبعوا ملتهم الجنسية.

ولم يكن النبي ﷺ، ينتظر من أهل الكتاب هذا العناد، وهذه المكابرة، بل كان ينتظر منهم التصديق برسالته، والإيمان بما أوحي إليه، وذلك لموافقته لأصل دينهم ومقصده. لذا كانت هذه الآيات آيات مسلية للنبي، ﷺ، لما كان يجد في نفسه من جراء موقف أهل الكتاب من دعوته.

ومن هنا يتبين لنا أن المعركة مع أهل الكتاب وأذنابهم، ليست اقتصادية ولا عسكرية، ولا استغلالية، وإنما هي عقائدية بحتة، كما أرشد الله بقوله:

---

(١) سورة البقرة. آية ١٢٠.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾.

فالموقف الذي يرتضونه منا، هو تركنا لديننا بالكلية، واتباعنا ما يريدون، وما سواه فهو مرفوض عندهم. فلا ترضيهم الأرض، ولا يرضيهم النفط، ولا ترضيهم المعادن، ولا القواعد العسكرية، ولا يرضيهم منا أي شيء، إلا ما أخبرنا الله به.

وقد حذرنا الله من قبوله أعظم التحذير، ولكن المواجهة الصادقة لجميع الكفار، هي ما اختاره الله لنا بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ بصيغة الحصر والقصر، هدى الله سبحانه فقط هو الهدى، وما سواه ليس بهدى، مهما صبغتموه، وزينتموه، وبأي اسم أو لقب سميتموه، بل هو ضلال مزيف، وانحراف مقصود.

فلو قال لك أحد من تلاميذ اليهود والنصارى: إنهم إخواننا في القومية، أو الوطنية، أو العروبة، فقل له: «إن الهدى هدى الله»، ليس لنا إخوان إلا في العقيدة، ولا نلتقي إلا على العقيدة، ففيها نحب ونوالي، وعلى ضدها نتبرأ ونعادي، وعليها نسالم، وعليها نحارب.

وإن قال لك أحد من تلاميذهم: - الدين لله والوطن للجميع - فقل له: كلا بل الدين لله، والوطن لله، يجب أن تحكمه شريعة الله. وليس الوطن مشتركاً بين المسلم وغير المسلم، لتتحكم فيه الأقلية، ويغلبوا الأكثرية على حكم الله.

ولهذا حذر الله سبحانه من اتباع أهوائهم، وتوعد صفوة خلقه عليه الصلاة والسلام على ذلك، حيث قال: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (سورة البقرة، آية ١٤٠).

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبي ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

المحتويات